1518

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
جامعة وهران السانية

كلية الآداب و الفنون
قسم اللغة العربية و آدابها

الأسس المادية و المعنوية لفكر مالك بن نبي في مشكلات الحضارة

رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه الدولة

إعداد:
عبد القادر بوعزة

إشراف:
الدكتور: عشراتي سليمان

السنة الجامعية: 2005- 2006

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرست الموضوعات

- الإهداء
- شكر و تقدير
- مقدمة 1
- تمهيد 10
- **الباب الأول:** الأسس المادية لفكر مالك بن نبي في مشكلات الحضارة: الإنسان، التراب، الوقت

- الفصل الأول: الإنسان و مشكلاته الحضارية 18

الفرع الأول: عموميات عن مشكلة الإنسان

الفرع الثاني: مشكلة إنسان ما قبل الحضارة و أثناء نشأتها 21

الفرع الثالث: مشكلة إنسان ما بعد الحضارة 30

أ- مشكلة إنسان ما بعد الموحدين 31

ب- مشكلة إنسان النهضة العربية الإسلامية 37

1-مشكلة رجال الإصلاح الديني 43

2- مشكلة رجال الحركة الحديثة 52

- الفصل الثاني: مشكلة التراب الطبيعي و المحول و شروط كيفية استغلاله في العملية الاجتماعية 64

- الفصل الثالث: مشكلة الوقت و كيفية بث معناه في نفسية الفرد و في روح المجتمع 90

الباب الثاني: الأسس المعنوية لفكر مالك بن نبي في مشكلات الحضارة: الدين، التقافة، التوجيه 108

- الفصل الأول: الأفكار و الحضارة
  الفرع الأول: الفكرة الدينية و الحضارة
  الفرع الثاني: أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة 117
  الفرع الثالث: إعادة الفاعلية للفكرة الإسلامية شرط أساسي لحل المشكلة الإسلامية 135

- الفصل الثاني: التقافة و الحضارة 148
  الفرع الأول: تحديد مفهوم التقافة 154
  الفرع الثاني: كيف تحقق التقافة بصورة عملية ؟ 168

- الفصل الثالث: التوجيه الحضاري للإنسان: المعنوي و المادي 178
  الفرع الأول: التوجيه المعنوي 182
  الفرع الثاني: التوجيه المادي 197

- الخاتـــمـــة 207
- المـراجع 210

الإهداء

إلى روح المفكر العظيم مالك بن نبي ...

و إلى كل مسلم غيور على دينه و أمته ...

إلى كل من غرس زهرة في حقل الحضارة المنشودة ...

شكر و تقدير

« لم يشكر الله من لم يشكر الناس »

أتوجه في مقدمة هذا العمل المتواضع بالشكر الجزيل إلى كل الذين ساهموا في إثرائه، إلى الذين كانوا مصدر إلهام لقلمي أو نورا تتبعته لأهتدي وراء الحقيقة سواء عرفوا أو لم يعرفوا.
أشكر الأستاذ: عشراتي سليمان على تفهمه و صبره و قبل ذلك على إيثاره الفكري و عطائه المعرفي فلابد من عقلين يزنان الأمور حتى لا يحيد البحث عن الإطار المرسوم له. ثم أشكر طلبتي الذين دون أن يشعروا ساعدوني في هذا البحث. كيف لا و هم كانوا الأرض التي حاولت أن أغرس فيها أفكار مالك بن نبي و ما تعلمته منه، فما رأيت إلا أزهارا مبهجة و ثمارا مبشرة أكدت لي دوما أن هذا هو الطريق إلى الحضارة.

مقدمة:

هذا البحث "الأسس المادية و المعنوية لفكر مالك بن نبي في مشكلات الحضارة" الذي شغلت نفسي به طيلة خمس عشرة سنة في القراءة و جمع المراجع و الكتابة، هو خلاصة تجربتي و زبدة مشواري التعليمي في مجال الحضارة، و هو قبل ذلك و بعده قطعة مني و جزء من كياني. و هل الإنسان إلا مجموعة أفكار، أو ليست الحياة كلها بحثا طويلا عن الحقيقة. و رغم ذلك فإني لا أدعي له الأسبقية و ليس هذا تواضعا مني بل هو إحقاق للحق. فمالك بن نبي أكبر و أعظم من أن يسلط بحث في القرن الواحد و العشرين عليه الضوء. لا شك أنه أسال حبر كثير من الباحثين و فتح أبوابا واسعة للتساؤل و النقاش. لكن لعل الجديد في هذا البحث أنه نتيجة نظرية لتجربة عملية. فهنا تأتي التجربة أولا ثم النظرة أو النظرية.

هذا و ليعلم القارئ أن مؤلف هذا البحث لم يكن يخطر بباله أبدا أنه سيلتقي بمالك بن نبي –رحمه الله– لولا أن حدثت مصيبة و هي مصيبة الموت الذي انتقل بأستاذنا الفاضل الدكتور ضيف الله –عليه و على جميع أموات المسلمين رحمة الله–، إذ في السنة الدراسية التي أعقبت مباشرة وفاته، كلفني المعهد بتدريس مادتي: الحضارة و النهضة الإسلاميتين.

و لما كنت من جهة مستعدا لتدريس هاتين المادتين و من جهة أخرى غير مستعد لتدريسها بالطريقة الإخبارية المدحية التي ساد انتهاجها في تدريس مادة الحضارة و النهضة؛ فإنني و أنا أفكر في الطريقة الجديدة التي لم أكن أعرفها، التقيت بالأستاذ جلطي بشير لأنه أستاذ في التربية و علم النفس فاستشرته عن المراجع التي يمكنني الاعتماد عليها في طريقتها و في مضمونها في تدريس مادة الحضارة. فاقترح علي العودة إلى كتب مالك بن نبي، لأنه سبق له أن قدم عنها رسالة بعنوان: "مفهوم التربية عند مالك بن نبي"، و قدم إلي كتاب "شروط النهضة".

في هذه اللحظة التقيت لأول مرة بمالك بن نبي –رحمه الله– و من هذه اللحظة بدأت مأساتي مع مشكلات الحضارة في العالم الإسلامي لأنه كان قد استطاع – رحمه

الله- أن يورثني روحه المتوثبة من خلال مؤلفاته و لكنه في الوقت نفسه عجز عن أن يورثني فكره و ذلك لسبب بسيط هو أن الفكر لا يورث كما تورث الأموال و العقارات و إنما يحصل بالبحث و الدراسة. و لذلك صرت أعاني من مشكلتين، مشكلة العالم العربي و الإسلامي التي أقحمني للتفكير فيها من جهة، و مشكلة صعوبة فهم أفكاره و آرائه من جهة أخرى.

و مما زاد في حدة المشكلة الثانية هو أنني لما جمعت بعض الدراسات التي تناولت مالك بن نبي و شرعت في قراءتها أخذ يتملكني اليأس و لما أكملت قراءتها كان اليأس قد استبد بي لأنني لم أجد فيها الجديد الذي كنت أبحث عنه لا من حيث المنهج و لا من حيث الأفكار، فكنت لذلك مع مالك بن نبي كمن يتناول موضوعا قديما جديدا. قديما لأنني سبقت إلى دراسة فكر مالك بن نبي في مشكلات الحضارة بهذه الدراسات، و جديدا لأنني لم أجد في هذه الدراسات ما يمكنني من تعميق الدراسة في أفكار مالك بن نبي من جهة و من الوصول إلى النتائج التي كنت أرغب في الوصول إليها خاصة بعد دراستي لمشكلة الإنسان من جهة أخرى.

و لذلك أعتبر هذا البحث و إن تخللته أخطاء منهجية و مضمونية أول بحث – بالقياس إلى ما وقع تحت يدي من دراسات عن مالك بن نبي- يطرح إشكالية فكر مالك بن نبي في مشكلات الحضارة و يحاول دراستها بالاعتماد على كل كتبه و على مراجع كثيرة قد تبدو بعيدة عن الموضوع المدروس، و لكنها في الحقيقة أقرب إليه من حبل الوريد. و لولا ضيق الوقت لوجدت كل هذه المراجع مكانها بين طيات هذه الدراسة.

و لهذا أعتبر هذه الرسالة دراسة جديدة لمالك بن نبي ليس لنبوغ كاتبها بل لأن الفكر الحقيقي و هو هنا فكر مالك بن نبي هو ذلك الذي يوحي بأفكار جديدة أو زوايا جديدة ينظر من خلالها إلى قضية هامة كقضية الحضارة في هذه الحالة. فلعلها تكون نقطة بداية ينطلق منها كل من يرغب في البحث و الدراسة الجادين في فكر مالك بن نبي، و ذلك لأني إن كنت قد انطلقت في دراسة مالك بن نبي من كتبه فحسب فإن من يأتي بعدي يجد الطريق أمامه بهذه الرسالة ممهدا، لأنها قد أزاحت كثيرا من العقبات المنهجية من جهة و كثيرا من الصعوبات في العثور على النصوص "البنائية" التي يفسر بعضها بعضا أو يكمل بعضها بعضا سواء ما تعلق منها بمشكلة الإنسان

كما تناولت في الفرع الثاني مشكلة إنسان ما قبل الحضارة و أثناء نشأتها، و قد ركزت فيه على نقطتين أساسيتين هما نظرية الإنسان، و كيفية تأثير القرآن في النفس البدوية الفطرية.

فأما بالنسبة للنقطة الأولى، فإنني انطلقت من فكرة مالك بن نبي و هي أن إنسان ما قبل الحضارة و أثناء نشأتها هو بمثابة المادة الخام إذ يكون مذخورا –مثله في ذلك مثل مادة الماء أو مادة الحديد قبل دخول الأول إلى خزان منتج لمادة الكهرباء و قبل تعرض الثاني للتأكسد– بطاقة نفسية هائلة تجعله قابلا لأن يدخل بكل سهولة في دورة حضارة خاصة إذا كانت الفكرة الدينية هي المحرك و الموجه لهذه الطاقة.

و أما بالنسبة للنقطة الثانية فقد تعرضت فيها لأهم الآراء و الأقوال المتعلقة بظاهرة الإعجاز القرآني و أثره في الإنسان العربي البدوي و خلصت منها إلى نتيجة هي أن الوحي المحمدي لم يؤثر في الإنسان آنذاك بلغته أو بأسلوب نظمه أو محتوياته فحسب و إنما أثر فيه أيضا بالطريقة "التنجيم" التي كان يتنزل بها خلال ثلاث و عشرين سنة.

كما تناولت في الفرع الثالث أهم فكرة عند مالك بن نبي و هي أن إنسان ما بعد الحضارة، إنسان فاقد الاستعداد للدخول من جديد في دورة حضارة، لأنه يكون قد استنفذ طاقته الحيوية كما يستنفذ خزان الكهرباء طاقة الماء حين يدخله، لأمر الذي يجعل عودته إلى الحضارة أصعب من إقبال إنسان ما قبل الحضارة على الدخول في دورة حضارة إلا إذا كانت هناك قوة كبيرة تعيد إليه طاقته المفقودة كما تعيد عملية التبخر للماء طاقته، و هذه القوة لا توجد في نظر مالك بن نبي إلا في الدين الإسلامي الأمر الذي يفرض إعادة الفاعلية الاجتماعية إليه.

و مشكلة هذا الإنسان الخارج من الحضارة تناولها البحث في نقطتين أساسيتين هما: أ– إنسان ما بعد الموحدين. ب– و إنسان النهضة العربية الإسلامية.

فأما بالنسبة للنقطة الأولى، فإننا حاولنا أن نبين أن هذا الإنسان؛ انطلاقا من منظره الإنساني و من نموذجه الاجتماعي كما تصفها لنا كتب التاريخ؛ كان عاجزا عن تطبيق مواهبه على التراب خلال قرون فقد ظل التراب بكرا لأن يده لم تمد إليه بالحرث

و الغرس إلى أن جاء الاستعمار الغربي و أخذه منه و استغل ظهره و بطنه في تضخيم إمكانه الحضاري و لا يزال يستغله في ذلك.

و أما بالنسبة للنقطة الثانية فقد حاولنا أن نبين أن هذا الإنسان سواء ذلك الذي كان يدعو إلى العودة إلى الأصول في إطار العصر أو ذلك الذي كان يدعو إلى تحديث العالم العربي و الإسلامي طبقا للنموذج الغربي، لم يتمكن من تجسيد مشروعه الحضاري و بالتالي الخروج بهذا العالم من التخلف لأن نهضته كل منهما لم تكن قائمة على خطة علمية و على توجيه واع، و إنما كانت قائمة على التقليد للنموذج الإسلامي الأول بالنسبة لرجال الإصلاح الديني. و للنموذج الغربي بالنسبة لرجال الحركة الحديثة. و مما زاد في بطء حركة النهضة هو صراعهما المغذى من قبل جهات أجنبية لها مصالح حيوية في العالم العربي و الإسلامي.

هذا بالإضافة إلى أنهما لم يأخذا في حسابهما و هما يحاولان العودة بالإنسان العربي و المسلم إلى الحضارة عمره النفسي الفكري، لأنه كان حين حاولت كل من الحركتين إقحامه في الحضارة في عمر الطفل بالنسبة للإنسان الأوروبي الأمر الذي جعل جهودهم غير مثمرة إذا ما قيست بالنتائج التي حققتها اليابان أو الصين الشعبية.

وأما الفصل الثاني، فقد تناولنا فيه مشكلة التراب الطبيعي و المحول و حاولنا أن نبين فيه أن الإنسان المسلم لم يدرك بعد أهمية التراب في البناء الحضاري، سواء بالنسبة للزراعة و التشجير اللتين تعتبران في نظرالإنسان في الأمم المتقدمة ثديي الحضارة. أو بالنسبة له، باعتباره محرابا، لأنه الخريطة التي ينتشر عليها الإسلام و يرتبط بها مصيره، ناهيك عن أن يفكر في الفنون التي لها صلة بسطحه أو بباطنه؛ و قد انتهينا إلى نتيجة هي أنه لا يمكن للإنسان المسلم أن يدرك قيمة التراب و أهميته الحيوية سواء بالنسبة لبقائه أو بالنسبة لسيادته إلا إذا تحول مفهوم التراب في واعية الإنسان المسلم من كونه مكانا عاديا يقيم عليه منزله و يمارس فيه نشاطه إلى كونه رمزا للبقاء و السيادة. و هو ما يعني وجوب السعي لإعطاء التراب مفهوما ثقافيا جديدا. أي أنه لكي نعطي للتراب قيمة و أهمية في الحياة ينبغي أن نغير الإنسان في إرادته و في اتجاهه.

و أما الفصل الثالث، فقد حاولت أن أعالج فيه قدر الإمكان مشكلة الوقت؛ تلك التي كان الإنسان المسلم منذ أن خرج من الحضارة و لا يزال لا يفكر فيها و لا يحاول إيجاد حلول لها، لأنه لا يعتبر الوقت عنصرا من عناصر الحضارة و بالتالي فإنه لا يعتبره مشكلة.

و لما كان التفكير في الشيء ينتج عن الإحساس أو الشعور به، و كان الإنسان المسلم لا يحس بالوقت خاصة في الأعمال التي يقوم بها، فإنه ينبغي لكي يحس الإنسان المسلم بالوقت – و تصبح له قيمة و أهمية في جميع الأنشطة التي يمارسها في حياته– أن نلفت انتباهه بكل الوسائل إلى أن الغايات التي يفكر أو يعمل من أجل الوصول إليها، لا يمكن أن تحقق إلا إذا اعتبر الوقت بكل أجزائه عاملا من العوامل الموصلة إليها.

و خلصنا من هذا الفصل إلى نتيجة هي أنه لكي نتمكن من الوصول إلى حل لمشكلة الوقت فإنه ينبغي أن نحل مشكلة التراب لأنها مرتبطة بها و لا يمكن فصلها عنها.

و أما الباب الثاني من هذا البحث، فقد قسمته إلى ثلاثة فصول. و جزأت الفصل الأول إلى فرعين، تحدثت في الفرع الأول عن علاقة نشأة الحضارة الإنسانية و تطورها بالظاهرة الدينية. و لم تكن كتب مالك بن نبي هي المصدر الوحيد المعتمد في دراسة الظاهرة، بل إنه يوجد إلى جانبها أكثر من مرجع و مصدر كما هو ثابت من هوامش هذا الفرع.

و على الرغم من أن النصوص المستقاة من هذه المصادر و المراجع تعتبر وسيلة من الوسائل التي تثبت هذه العلاقة إلا أنني لم أكتف بها، و إنما عمدت إلى القرآن لكونه المصدر الأساسي الذي يقدم النصوص التي لها صلة بهذه المسألة من ناحية و لكون ما ورد فيه من قصص عن الأنبياء و عن الأمم الغابرة يعتبر الوثيقة التاريخية التي يطمئن إليها الباحث، لإثبات هذه العلاقة من ناحية أخرى.

و لما كانت نصوصه في هذه القضية كثيرة و لا يمكن الاستشهاد بها كلها، فإنني تخيرت منها نصا واحدا، هو نص قصة النبي إبراهيم – عليه السلام–، لأنه بالنسبة إلى هذه النصوص الكثيرة يعتبر نموذجا كافيا لتوضيح هذه العلاقة و لإثباتها في الوقت ذاته.

و أما الفرع الثاني من هذا الفصل، فقد تحدثت فيه عن أثر الفكرة الدينية أو الظاهرة القرآنية كما يسميها مالك بن نبي في تطويع الطاقة الحيوية لدى الإنسان البدوي و إشراطها و تكييفها، مستعينا في ذلك بما كتبه مالك بن نبي في هذا المجال و ببعض ما كتبه آخرون عن حالة العرب كيف كانت قبل الإسلام و كيف أصبحت من جهة. و ببعض ما جاء في عدد من الدراسات خاصة تلك التي تناولت هذه القضية من ناحية الإعجاز البياني للقرآن من جهة أخرى.

و قد حاولت في هذا الفرع مناقشة بعض الآراء التي استعنت بها لإبراز هذا التأثير لأبين ما لها و ما عليها.

و أما الفصل الثاني من هذا الباب، فقد قسمته إلى فرعين: حاولت في الفرع الأول أن أحدد مفهوم الثقافة و مفهوم العلم، ليس انطلاقا من التعريفات المختلفة المعطاة لكل منهما، و لكن انطلاقا من الأمثلة العملية التي استقاها مالك بن نبي من واقع حياة الإنسان المسلم و من واقع حياة الإنسان الغربي مسيحيا كان أو غير مسيحي، تلك التي دفعته إلى عقد مقارنة بين موقف الإنسان المتعلم في البلاد الإسلامية من مشكلة واحدة كالأمية مثلا و بين موقف الإنسان المتعلم في البلاد الغربية منها، خرج منها بنتيجة هي أن هذا الاختلاف بين الموقفين، ليس ناتجا عن العلم الذي كانا يتلقيانه؛ لأن العلم واحد و لكنه ناتج عن الثقافة التي تميز المستوى الحضاري للمجتمع الذي ينتمي كل منهما إليه. الأمر الذي دفعنا في هذا الفرع إلى القول: إن حل مشكلة الثقافة يتوقف ابتداء، على مدى قدرتنا و إرادتنا في إزالة الخلط الشائع في العالم العربي و الإسلامي بين ما يفيده لفظ علم و ما يفيده لفظ ثقافة.

و أما في الفرع الثاني من هذا الفصل، فقد حاولت أن أجيب على السؤال: كيف نحقق الثقافة بصورة عملية في واقع حياتنا الفردية و الجماعية. و قد اقتضت مني الإجابة على هذا السؤال أن أنبه في هذا الفرع إلى قضية هامة و هي أنه لكي نحقق الثقافة بصورة عملية في واقع حياتنا لا ينبغي أن نكتفي بوضع خطة تربوية صالحة لتركيب عناصر الثقافة المختلفة، بل يجدر بنا إذا كان ذلك هو هدفنا من وضع الخطة، أن نستغل كل الوسائل التي من شأنها أن تشيع في نفسية الفرد و في روح المجتمع الاهتمام الأسمى بعالم الأفكار و الأشياء و عالم العناصر و الظواهر الطبيعية.

و أما الفصل الثالث من هذا الباب، فقد حاولت فيه تبرير إدراج فكرة التوجيه في هذا البحث، و اعتبارها عنصرا من العناصر المعنوية للحضارة من جهة، كما حاولت فيه الحديث عن أهمية هذه الفكرة في الحياة بصفة عامة و في البناء الحضاري المعنوي منه و المادي بصفة خاصة، من جهة أخرى. و قسمته إلى فرعين: تحدثت في الفرع الأول عن أهم مشكلة في الثقافة العربية الإسلامية، لا من الناحية النظرية و لكن أيضا من الناحية العملية و هي مشكلة توجيه الأفكار.

و لما كان الهدف الذي يرمي إليه مالك بن نبي من وراء حديثه عن فكرة التوجيه بصفة عامة و التوجيه الثقافي بصفة خاصة هو تكتيل الطاقات الفردية و الجماعية في العالم العربي و الإسلامي، و كان ذلك في نظره يقتضي التفكير في وضع خطة عامة لمشروع حضاري شامل من ناحية، و التفكير في أهم المبادئ و القيم التي من شأنها تكتيل الطاقات الاجتماعية المختلفة و توتيرها، و تسديد حركاتها المختلفة في اتجاه الحضارة، لإنجاز مفردات المشروع الحضاري في أوجز مدة و بأقل تكلفة من ناحية أخرى، فإننا نبهنا في هذا الفرع إلى ضرورة توجيه الإنسان المسلم على أساس من المبادئ الخلقية و الجمالية و العملية للفكرة الإسلامية.

و تحدثت في الفرع الثاني عن أهمية التوجيه الحضاري المادي للإنسان المسلم في عملية البناء و التشييد، انطلاقا من نقطتين أساسيتين في هذا المجال هما: العمل و رأس المال. فبالنسبة للنقطة الأولى لم أنطلق من قول مالك بن نبي عن العمل في البلاد العربية و الإسلامية « لا بأس على كل حال من أن نتحدث عن توجيه شيء لا وجود له »[1]، لأن ظروف الحياة الاقتصادية في البلاد العربية و الإسلامية قد تحسنت نوعا ما الأمر الذي جعل فرص العمل تكثر بالقياس إلى المرحلة التي كتب فيها مالك بن نبي كتاب "شروط النهضة".

و لكن الأمر الذي يهمنا في هذه النقطة ليس هو وجود أو عدم وجود المجال الذي يمارس فيه الإنسان المسلم هذا النشاط أو ذاك بقدر ما يهمنا من فكرة توجيه العمل، أن نسعى لإعطاء العمل بعده الأخلاقي الاجتماعي حتى يتسنى للإنسان المسلم

---

[1] شروط النهضة ص: 113.

أن يتعلم معنى الواجب و معنى الجماعة أو العمل المشترك من جهة و يتعلم معنى المحصول الاجتماعي للعمل من جهة أخرى.

و أما بالنسبة للنقطة الثانية فقد تحدثنا فيها عن أهمية توجيه رأس المال لا بالمفهوم الشيوعي و لا بالمفهوم الليبرالي، و لكن بالمفهوم الإسلامي للمال بصفة عامة، خاصة و أن الإنسان المسلم وجه بناء على أحد المفهومين أو على كليهما معا و لم يمكنه ذلك من تكوين مفهوم لا عن وظيفة المال في الحياة و لا من اكتساب الخبرة التي تمكنه من الكيفيات التي يستثمر بها أمواله في المجالات التي تعود عليه و على المجتمع بالضمانات الاجتماعية.

و أما الخاتمة فكانت عبارة عن مجموعة من الأسئلة التي ستظل عالقة إلى أن يتكفل الزمن بالإجابة عليها، و من هذه الأسئلة السؤال الكبير المحير: كيف يمكننا أن نعيد لجميع أجنة الفكرة الإسلامية فاعليتها في الحياة الإسلامية الاجتماعية و الاقتصادية، و هل يمكن إعادة تركيب عناصر الحضارة الإسلامية دون إعادة الاعتبار للدين الإسلامي في جميع مجالات الحياة ؟ و أسئلة أخرى تتفرّع يمكن استنتاجها من هذا البحث و التي لم استطع الإجابة عليها كما ينبغي.

تمهيد:

من التكديس إلى البناء، ذلك هو المنطلق الذي انطلق منه مالك بن نبي في دراسته لمشكلات حركة النهضة في العالم العربي و الإسلامي بوجه عام و في دراسته لمشكلات الحضارة –دراسة أفقية و عمودية– بوجه خاص[1]؛ فتبين له أن هذه المشكلات التي يعاني من شدة وطأتها الرجل الأفرسيوي نخبويا كان أو من عامة الناس، لا تخرج إذا ما عدنا بها إلى أصولها عن أنها ناشئة عن ثلاث مشكلات هي مشكلة الإنسان الراكد التائه، و مشكلة التراب البكر السائب، و مشكلة الوقت الذي ينتهي في حياة هذا الرجل إلى عدم[2].

و ذلك لأن الرجل الأفرسيوي لم يدرك بعد و إن كان يعرف أن الحضارة سواء كانت قديمة أو حديثة تتركب من الإنسان و التراب و الوقت بمركب[3]، أن ليست الأفكار و الأشياء التي يستوردها من الحضارة الغربية هي هذا المركب.

و بناء على النتائج التي توصل إليها، سواء من خلال دراسته لحركة النهضة أو من خلال دراسته لمشكلات الحضارة قرر « أن الحضارة، ليست أساسا، تكديس منتوجات حضارية بل هي بناء مركب اجتماعي يشمل ثلاثة عناصر فقط، مهما كانت درجة تعقيدها كحضارة القرن العشرين »[4] ، وهذا البناء يقتضي منا –ونحن نحاول العودة إلى الحضارة التي خرجنا منها منذ قرون– أن نحل ثلاث مشكلات، لكي نتمكن من الوصول إلى تركيب هذه العناصر.

وهذه المشكلات التي يجب التفكير فيها هي[5]:

– أولا: مشكلة الإنسان، التي ينبغي لكي نحلها أن نحدد الشروط التي تجعله ينسجم مع سير التاريخ.

---

[1] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة، دار الفكر الجزائر، و دار الفكر –سوريا– دمشق، ترجمة: عمر كامل سقاوي، عبد الصبور شاهين، الطبعة الرابعة لعام 1987من موضوع: من التكديس إلى البناء ص: 44–51.

[2] مالك بن نبي: تأملات، دار الفكر الجزائر، دار الفكر –سوريا –دمشق، الطبعة الخامسة لعام 1991م ص: 198–200.

[3] انظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى، دار الفكر –الجزائر، دار الفكر –سوريا– دمشق، الطبعة الأولى لعام 1991م ص: 60.

[4] المصدر نفسه ص:200.

[5] المصدر السابق ص: 201.

- ثانيا: مشكلة التراب، تلك التي تفرض علينا الاهتمام به لتحديد شروط استغلاله في العملية الاجتماعية.

- ثالثا: مشكلة الوقت، تلك التي يتطلب حلها بث معناه في نفسية الفرد و في روح المجتمع.

و لكي نتمكن من معرفة هذه المشكلات و من تحديدها و ترتيبها حسب أهميتها من حيث الأولوية[1]؛ فإن الأمر يتطلب منا أن نحلل « الحضارة نفسها، باعتبارها مركبا لا يتكون في أصله من أشياء و منتوجات حضارية، بل من أصول تفرضها طبيعة المنتوجات، و شروط تطور الإنتاج»[2] و هذا التحليل يفرض « علينا اللجوء إلى الطريقة المعتمدة في مختبر التحليلات. فنحن لكي نقوم بتحليل مادة ما، لا ننقلها برمتها إلى المختبر، و لكننا نقتصر على اقتطاع (عينات) منها فحسب، و عينات حضارة ما، هي منتجاتها الاجتماعية في جميع أشكالها. فالمصباح الذي نستنير به، و الأفكار التي وجهت أمر تجهيزه، و الآدميون الذين قاموا بعملية إنجازه، تمثل جميعها منتجات اجتماعية لحضارة معينة. و نحن لو حللنا من وجهة نظر علم الاجتماع هذه (العينة)، لوجدنا أن محتواها أو مادتها الجوهرية المتعلقة بعلم الاجتماع تؤول إلى ثلاثة حدود هي: التراب و الوقت و الإنسان. فالتراب يتمثل ضمنها في صورة مواد أولية واصلة أو عازلة. أما الزمن فيندمج داخل سائر الاطراد العلمي و الفني الواقع بين اكتشاف الظاهرة الكهربائية... و بين تطبيقه في ميدان الإنارة ... و أما الإنسان فينخرط ضمن التدخل البشري (اليدوي و الذهني) في هذا الاطراد »[3]. بالنسبة للحضارة الغربية المعاصرة « ابتداء من "غلفاني" (GALVANI) حتى "إديسون" (EDISON)»[4].

و هكذا ينبغي أن يكون الأمر مع جميع منتجات الحضارة من أبسط منتوج لها كالإبرة مثلا إلى أعقد منتوج كالطائرة و القمر الصناعي، و عليه فإن « كل مفهوم من عالم المفهومات و كل شيء من عالم الأشياء و كل شخص من عالم الأشخاص،

---

[1] و بعث الإنسان فكريا و روحيا يعتبر من أولى الأولويات لأنهما يعتبران عماد كل حضارة في سيرها الحثيث. مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 36.

[2] مالك بن نبي: تأملات ص: 198.

[3] مالك بن نبي: القضايا الكبرى دار الفكر الجزائر ، دار الفكر دمشق سوريا الطبعة الأولى لسنة 1991 ص: 54-55.

[4] مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 55.

اره معادلة شخصية أنتجتها ظروف التاريخ و شروط التطور، كل عينة من هذه ت ... مع اختلاف صورها و أشكالها و طبائعها تكوّن من حيث تركيبها ماعي نوعا واحدا هو نوع المنتوجات الحضارية »[1].

و لهذا و لاعتبارات كثيرة ستتضح من البحث ككل، نتبين أن الأسس المادية مالك بن نبي هي: الإنسان و التراب و الوقت.

ن سرعان ما يرد إلى الذهن سؤال هو إذا كانت الحضارة عندما نجمع كل اتها جمعا أفقيا و عموديا ثم نحللها ننتهي من ذلك إلى أنها تساوي (=) إنسان + + وقت، فلم لا يوجد هذا الناتج تلقائيا كلما اجتمعت هذه العناصر ؟؟!

و لكن إذا كان ذلك كذلك، فلم لا يوجد هذا الناتج و ليكن على سبيل المثال هذا الذي نكتب به أو هاته الورقة التي نكتب عليها، من تلقاء نفسه، حيثما و أينما رت هذه العناصر الثلاثة[2].

و قبل الإجابة على هذا السؤال ينبه مالك بن نبي إلى « أن المعادلة التي انتهينا ا ليست صحيحة إلا بشروط بينها التاريخ؛ لأنه هو مختبر التجارب و العمليات تماعية »[3]. و هو ما يعني أن الحضارة و إن كانت من حيث تحليل أي منتوج من جاتها تساوي إنسان + وقت + تراب، فإن هذه العناصر التي تتركب منها الحضارة يمكن أن « تمارس مفعولها [و هي] ضمن حالة شتيتة، و تكمن ضمن تركيب ف يحقق بواسطتها جميعا إرادة و قدرة المجتمع المتحضر، و إذن فإن مشكلة هذا ركيب المتآلف هي التي توضع أمامنا»[4].

و لكي يوضح مالك بن نبي مشكلة التركيب المتآلف و في الوقت ذاته لكي ب على السؤال الآنف الذكر، فإنه يلجأ إلى رجل الكيمياء فيقتبس منه طريقته في يل مادة الماء إلى عنصريها ثم محاولته في إعادة تركيبها ليستعين بها –من باب اس– على تحليل أي عينة من عينات الحضارة كالورقة مثلا إلى عناصرها التي

نظر مالك بن نبي: تأملات ص: 198–199.

ظر مالك بن نبي: شروط النهضة، دار الفكر، دمشق، الجزائر، الطبعة الرابعة لعام 1987م ترجمة: عمر كامل سقاوي، الصبور شاهين ص: 49، 50.

الك بن نبي: تأملات ص: 200.

الك بن نبي: القضايا الكبرى، دار الفكر الجزائر– دمشق، الطبعة الأولى لعام 1991 ص: 57.

تتركب منها، ثم إعادة تركيبها ليدلنا على القانون الذي يتدخل في تركيب عناصر الحضارة: الإنسان و التراب و الوقت فيقول[1] إن « الماء [هو] في الحقيقة نتاج للهيدروجين و الأكسجين و [و لكن] على الرغم من هذا فهما لا يكونانه تلقائيا؛ فقد قالوا إن تركيب الماء يخضع لقانون معين يقتضي تدخل (مركب) ما، بدونه لا تتم عملية تكون الماء، و بالمثل لنا الحق في أن نقول: إن هناك ما يطلق عليه (مركب الحضارة) أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض ».

و كما أن رجل الكيمياء بعد أن يحلل عينة الماء يكون مقتنعا بأنه إذا ما أراد ترتيبها ينبغي أن يخضعها للقانون الذي يمكنه من إعادة تركيبها على الصورة التي كانت عليها قبل التحليل، فإن مالك بن نبي هو الآخر مقتنع من أنه إذا ما أردنا إعادة تركيب عناصر الحضارة: الإنسان و التراب و الوقت، فإنه ينبغي أن تخضعها للقانون الذي يمكننا من ذلك[2].

و لما كان هذا القانون الذي يجب أن يتدخل كعامل مؤثر في مزج العناصر الثلاثة كيما يحيلها تركيبا، لا يمكن العثور عليه إلا في تاريخ الإنسانية الاجتماعي[3]، فإنه ينبغي « أن نلتفت ... إلى مختبر التاريخ ليدلنا على المركب الذي يتدخل في تركيب العناصر الثلاثة: الرجل و التراب و الوقت كيما يكوّن بها حضارة »[4]. و لما كان التاريخ قد أثبت لكثير من الدارسين[5] لتاريخ نشأة الحضارات أن "الحضارة لا تنبعث -كما هو ملاحظ- إلا بالعقيدة الدينية ... [أو أنها] لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة و منهاجا ...»[6] فإن الدين يعد عاملا أساسيا في تركيب عناصر الحضارة. بل إنه و من وجهة نظر مالك بن نبي التي

---

[1] شروط النهضة ص: 50.

[2] مالك بن نبي: تأملات، دار الفكر -الجزائر- دمشق، الطبعة الخامسة لعام: 1991 ص: 200، 201.

[3] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة، موضوع: الدورة الخالدة ص: 52-64.

[4] مالك بن نبي: تأملات ص: 201.

[5] نذكر منهم على سبيل المثال المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون، المجلد الأول، دار الكتاب اللبناني -لبنان-بيروت، طبعة سنة 1983م الفصل السابع و العشرون: في أن العرب لا يحصل لهم ملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة ص: 266. و منهم المؤرخ الإنجليزي المعاصر أرنولد توينبي صاحب المؤلف: دراسة في التاريخ، انظر أحمد محمود صبحي في فلسفة التاريخ، دار النهضة العربية ... لبنان -بيروت- طبعة عام 1994م الفصل الرابع من الباب الثاني ص: 260-268.

[6] مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 56.

تنطلق من طرح السؤال التالي: هل المبدأ القرآني سليم في تأثيره التاريخي[1] و من الإجابة عليه بواقع الإنسان العربي قبل نزول القرآن و بعده[2] فإن حل المشكلة الإسلامية يتوقف على إعادة الفاعلية للفكرة الإسلامية.

وإذا كان المبدأ القرآني[3] من حيث فاعليته الاجتماعية سليما في تأثيره التاريخي؛ إذ هو الذي صنع من الإنسان العربي البدوي حين غير ما بنفسه، إنسانا متحضرا؛ فإنه يستطيع أن يفعل ذلك من جديد إذا ما أعيد « تنظيم تعليم (القرآن) تنظيما (يوحي) معه من جديد إلى الضمير المسلم (الحقيقة) القرآنية، كما لو كانت جديدة. نازلة من فورها من السماء على هذا الضمير »[4]. و ذلك لأن « قوة التركيب لعناصر الحضارة خالدة في جوهر الدين، و ليست ميزة خاصة بوقت ظهوره في التاريخ، فجوهر الدين ... مؤثر صالح في كل زمان و مكان. و تسجيله في النفس و هو ما يهم التاريخ ... يمكن أن يتجدد و يستمر ما لم يخالف الناس شروطه و قوانينه »[5].

و لئن كان الهدف من تركيب عناصر الحضارة: الإنسان و التراب و الوقت تركيبا متآلفا؛ هو خلق إرادة[6] حضارية تحرك الفرد و المجتمع الإسلامي « إلى أن يغير بصورة عملية الواقع الذي يتمثل في النموذج الاجتماعي الأفرسيوي، و في المنظر الإنساني من طنجة إلى جاكرتا »[7]. و كان هذا التغيير لا يتحقق إلا إذا سلمنا أن « كل واقع اجتماعي في جذوره [التي أفرزته] هو قيمة ثقافية معينة محققة في واقع الإنسان و في ... المنظر الإنساني الذي يحوطه »[8]. فإنه و انطلاقا من هذا التسليم

---

[1] انظر المصدر نفسه ص: 54.

[2] المصدر نفسه ص: 57، 58.

[3] يقول مالك بن نبي: –المصدر السابق ص: 54– "إننا نجد في القرآن الكريم النص المبدئي للتاريخ التكويني (Boi Histoire): (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) الرعد 11/13، و ينبغي ألا نقرر هذا المبدأ حسب إيماننا به فقط، بل يجب أن يكون تقريره في ضوء التاريخ. و (نعم) لا تجدي جوابا عن السؤال المطروح أمامنا، إلا إذا تأكدنا من شرطين: أولهما: هل المبدأ القرآني سليم في تأثيره التاريخي ؟، ثانيهما: هل يمكن للشعوب الإسلامية تطبيق هذا المبدأ في حالتها الراهنة ؟".

[4] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، دار الفكر المعاصر –لبنان– الطبعة الثانية لعام 1986م.

[5] مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 65.

[6] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، موضوع: الأسس الحضارية لعالم الاقتصاد ص: 59–64.

[7] مالك بن نبي: فكرة الإفريقية الآسيوية ... ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر –دمشق– طبعة عام 1981م ص: 135.

[8] مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 135.

« يصبح أي تفكير في مشكلة الحضارة هو أساسا تفكير في مشكلة الثقافة »[1].

ومن ثم ينبغي أن ينطلق التفكير في هذه المشكلة من السؤال التالي: هل هناك ثقافة في بلادنا، وإذا كانت فلم كان النموذج الاجتماعي و المنظر الإنساني دون مستوى شعوب كالصين و اليابان و روسيا مع أن نهضتنا عاصرت أو سبقت نهضتها[2] ؟!

و لذلك فإنه ينبغي أن نتساءل ما هي الثقافة القادرة على الارتفاع بنا إلى مستوى الشعوب المتحضرة[3] ؟ و هل الثقافة مرادفة للعلم أم هي شيء أهم و أشمل منه ؟[4]

و هل يمكن اعتبار الثقافة نظرية في السلوك[5] ؟ و هل يكفي لحل مشكلة الثقافة حل مشكلة الأفكار، على اعتبار أن وظيفتها ذات علاقة بمجالات الحياة و مشكلاتها الاجتماعية ؟ أم لابد –لكي نحل مشكلة الثقافة من حيث تحديد مفهومها و تحقيق عناصرها– من توجيه الأفكار[6].

كل هذه الأسئلة و غيرها طرحها مالك بن نبي في أكثر من كتاب من كتبه و أجاب عليها، و ذلك بعد أن لاحظ أن نهضة العالم العربي و الإسلامي بالمقارنة مع نهضة اليابان أو الصين الشعبية، تعاني منذ انطلاقها من عوامل تعطيل نفسية أثرت في سيرها، و من عوامل فكرية أخرى أثرت في اتجاهها تأثيرا سلبيا[7].

و هو الأمر الذي دفعه إلى تناول قضية النهضة في العالم العربي و الإسلامي من الناحيتين النفسية و الفكرية خاصة في كتبه التالية "مشكلة الثقافة"، "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي"، "بين الرشاد و التيه"، "ميلاد مجتمع" ...الخ.

و ذلك لأنه بعد أن تناول في كتابه "شروط النهضة" مشكلات الحضارة في العالم العربي و الإسلامي و على رأسها مشكلة الإنسان و مشكلة التراب و مشكلة الوقت

---

[1] مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 135.

[2] انظر المصدر نفسه موضوع: مشكلة الرجل الأفرسيوي ص: 70 و ما بعدها. و انظر له مشكلة الثقافة ص: 13 و ما بعدها.

[3] انظر مالك بن نبي: بين الرشاد و التيه، دار الفكر –الجزائر–، دار الفكر –سوريا– دمشق الطبعة الثانية لعام 1988م، موضوع: تغير الإنسان ص: 49 و ما بعدها.

[4] انظر مالك بن نبي: من أجل التغيير، دار الفكر المعاصر –لبنان، سوريا الطبعة الأولى لعام 1998م. موضوع: نداء قسنطينة (مشكلة الثقافة) ص: 51–58.

[5] انظر مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، دار الفكر –دمشق– الطبعة الرابعة لعام 1984م ص: 73.

[6] انظر مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 67.

[7] انظر مالك بن نبي: تأملات ص: 187.

تبين له أن حل هذه المشكلات يتوقف على حل مشكلة الثقافة و مشكلة الأفكار[1]، لذلك كرس كل جهده و وقته إلى تأليف الكتب التي أشرنا إليها، خاصة بعد أن أثبتت له تجربته الحياتية أن مشكلة الثقافة في العالمين: العربي و الإسلامي ليست في تحديد مفهومها و تحقيق عناصرها فحسب، بل هي أيضا –لا سيما من الوجهة التربوية– في توجيه الأفكار[2].

و لهذا و استنادا إلى تعريف مالك بن نبي للحضارة من أنها مجموع الشروط الأخلاقية و المادية[3]، تبين أن الأسس المعنوية لفكر مالك بن نبي في مشكلات الحضارة هي: الدين، الثقافة، التوجيه. فإذا أضفنا إلى هذه الأسس المادية التي سبقت الإشارة إليها يصبح عنوان الرسالة في صيغته النهائية كالتالي: الأسس المادية و المعنوية لفكر مالك بن نبي في مشكلات الحضارة.

و لقد ارتأينا أن نقسمه إلى بابين هما الأسس المادية: الإنسان، و التراب، و الوقت. و الأسس المعنوية: الدين، الثقافة، و التوجيه، و أن نقسم البابين إلى فصول.

و سيكون الإنسان هو أول فصل من فصول الباب الأول من هذا البحث، لأنه يعتبر في نظر مالك بن نبي العنصر الجوهري في مركب الحضارة[4]. و هو و إن كان يتأثر بعنصري التراب و الوقت إلا أنه يبقى أكثر تأثيرا فيهما؛ لأن قيمتهما الاجتماعية و قيمتها الاقتصادية و إن كانت نابعة من قيمته الطبيعية فإنها تبقى مرتهنة بمدى تأثير أو عدم تأثير الإنسان فيهما، فهما لا ينفعلان إلا إذا تفاعل الإنسان معهما[5].

و لكن على الرغم من أن الإنسان هو المؤثر في التراب بتكييفه أو تحويله إلى منتجات حضارية، و في الوقت بإعطائه قيمة اجتماعية حين يعتبره مادة أولية في تنمية

---

[1] انظر مقدمة كتاب مشكلة الثقافة ص: 13–16.

[2] انظر كتابه: شروط النهضة ص: 84 و ما بعدها.

[3] انظره في كتاب القضايا الكبرى ص: 43.

[4] يرى مالك بن نبي: –شروط النهضة– ص: 81، 82– "أن المشاكل التي تحيط بالإنسان تختلف باختلاف بيئته؛ فالإنسانية لا تعاني مشكلة واحدة، بل مشاكل متنوعة تبعا لتنوع مراحل التاريخ ... ففي بلد أوربي كبلجيكا، نجد الرجل لا يتمتع بتوازن اقتصادي في حياته، فهناك اضطراب نتج عن عدم الملاءمة بين حاجاته و تيار الإنتاج المسرع ... بينما البلاد الإسلامية ... أزمتها ليست في الحركة بل في الركود، فهي مشكلة الإنسان المتوطن فيها الذي عزف عن الحركة و قعد عن السير في التاريخ ... فمن الرجل تتبع المشكلة الإسلامية بأكملها".

[5] انظر مالك بن نبي: تأملات، موضوع: قيم إنسانية و قيم اقتصادية ص: 49–62.

مواهبه المختلفة و في زيادة قدرة مجتمعه؛ إلا إنه « لا يمكن فصل دراسة الحضارة عن دراسة العالم الطبيعي و لا عن دراسة الإنسان، فهي واسطة العقد بينهما، فالعالم الطبيعي هو المسرح الذي يعرض الإنسان فصول حياته عليه و الحضارة هي التمثيلية التي يعرضها، و الإنسانية بطلها، و لكن الإنسان ليس ممثلا فقط بل هو المؤلف و المخرج أيضا »[1].

و لما كان الإنسان لا يعتبر في عملية البناء أو السقوط الحضاري، ممثلا فحسب، بل و يعتبر أيضا المؤلف و المخرج، فإنه لذلك ارتأينا أن نبدأ دراسة هذا البحث انطلاقا من دراسة مشكلة الإنسان.

[1] تيسير شيخ الأرض: إرادة الحضارة، دار الفاضل –سوريا– دمشق طبعة عام 1991م ص: 19.

الباب الأول: الأسس المادية لفكر مالك بن نبي في مشكلات الحضارة: الإنسان، التراب، الوقت.

الفصل الأول: الإنسان و مشكلاته الحضارية.

الفرع الأول: عموميات عن مشكلة الإنسان.

الفرع الثاني: مشكلة إنسان ما قبل الحضارة و أثناء نشأتها.

الفرع الثالث: مشكلة إنسان ما بعد الحضارة.

أ- مشكلة إنسان ما بعد الموحدين.

ب- مشكلة إنسان النهضة العربية الإسلامية.

1- مشكلة رجال الإصلاح الديني.

2- مشكلة رجال الحركة الحديثة.

الفصل الثاني: مشكلة التراب و المحول و شروط كيفية استغلاله في العملية الاجتماعية.

الفصل الثالث: مشكلة الوقت و كيفية بث معناه في نفسية الفرد و في روح المجتمع.

الفصل الأول: الإنسان و مشكلاته الحضارية:

الفرع الأول: عموميات عن مشكلة الإنسان

يعتبر الإنسان المخلوق الوحيد الذي منحه الله صفة التكريم[1]، مع أنه خلقه من تراب[2] ثم من ماء مهين[3]، ثم نفخ فيه من روحه[4]، و بهذه المنحة فضله على كثير ممن خلق: كالجن و الملائكة، تفضيلا، هذا بالإضافة إلى أنه أنعم عليه بنعمة العقل؛ التي هي مناط التكليف بعد البلوغ، فصار بذلك جنسا متميزا عن جنس الملائكة و الجن[5].

و بناء على هذا التمييز للإنسان، و بناء على حكمة يعلمها من خلق الخلق –و هو اللطيف الخبير[6]–، و بناء على نعمة العقل و القلب، كلفه مَن خلقه أن يتحمل أعباء مسؤولية استخلافه في الأرض[7].

و لما كانت وظيفة الاستخلاف في الأرض تتطلب تعليما و توجيها و استعدادا[8]؛ فإن الله علم الإنسان– بوساطة أبيه آدم عليه السلام– كل الأسماء[9]، و بين له منهج التعامل بها و معها. و ترك له حرية الاختيار بعد أن بين له جزاء التمسك بمنهج افعل

---

[1] انظر المصحف الشريف سورة الإسراء الآية رقم: 70.

[2] انظر المصحف الشريف سورة الحجر رقم: 26.

[3] انظر المصحف الشريف سورة المرسلات الآية رقم: 20.

[4] انظر المصحف الشريف سورة الحجر الآية رقم 29.

[5] انظر محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن الكتاب الثالث، شركة الشهاب –الجزائر– الطبعة الثانية لعام 1990م ص: 17 و انظر له الكتاب الأول الفصل الخامس ص: 378–380.

[6] انظر المصحف الشريف سورة الملك الآية رقم: 14.

[7] انظر المصحف الشريف سورة البلد الآية رقم:1–30.

[8] انظر محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن الكتاب الثالث الفصل الثالث و الرابع ص: 121، 145.

[9] انظر المصحف الشريف سورة البقرة الآية رقم: 31.

و لا تفعل، و جزاء الانحراف عنه، و ذلك ليكون مسؤولا عن نتائج سعيه في الكون خلال رحلة العمر و ما بعدها.

و لم يكتف الله بتعليم الإنسان و توجيهه بل هيأه شكلا و مضمونا[1] لكي يؤدي أمانة الاستخلاف على الوجه المطلوب منه، إذ جعل له يدين يبطش بهما و رجلين يستوي عليهما و يمشي، و عقلا يتأمل و يتدبر و يفكر و يخطط و يميز و يستنتج أو يستنبط، و قلبا يسوغ للجوارح تجسيد الخواطر و المشاعر و الأفكار بإرادة حرة في حركة نافعة أو ضارة[2].

و كل هذا مما يعنى أن مصادر الطاقات الاجتماعية عند الإنسان سواء كانت موجهة نحو البناء و التعمير أو نحو الهدم و التخريب أو كانت غير موجهة "إذا حللناها إلى عناصرها الأولية البسيطة نجدها تنحصر في عناصر ثلاثة [هي] اليد، القلب، العقل ... فكل طاقة اجتماعية تصدر حتما من دوافع القلب و من مسوغات و توجيهات العقل، و من حركات الأعضاء"[3] خاصة اليد و الرجل.

و هذه الهيأة التي خلق عليها الإنسان، في شكله و مضمونه أو في ماديته و روحانيته؛ يسميها مالك بن نبي المعادلة البيولوجية[4] التي تسوي بين الإنسان و أخيه الإنسان في كل مكان و في كل زمان، ليستطيع هذا كل ما يستطيعه ذاك، إلا بما فصل الله فيه بعض الأفراد عن بقية النوع[5].

بيد أن هذه المعادلة البيولوجية المكونة من عنصرين متنافرين في النزوع

---

[1] انظر المصحف الشريف سورة النور الآية رقم: 45. كل ما خلقه الله خلقه من ماء. فمنهم من يمشي على بطنه و منهم من يمشي على أربع ... إلا الإنسان فإنه يمشي على رجلين و يبطش بيدين. و هو يمشي أو يبطش يعرف لماذا يمشي ؟ و كيف يمشي ؟

و بماذا يستعين على قطع المسافات أو تحصيل الحاجات.

[2] انظر مالك بن نبي: تأملات ص: 135، و انظر له ميلاد مجتمع ص: 70، 71.

[3] مالك بن نبي: تأملات ص: 38.

[4] انظر المصدر نفسه ص: 135.

[5] انظر المصدر السابق موضوع: الفعالية ص: 123-138. و انظر المسلم في عالم الاقتصاد، دار الفكر –الجزائر، دار الفكر –دمشق– سوريا، الطبعة الثالثة لعام 1987م ص: 91.

و الاتجاه و متكاملين في الوظيفة التي خلق من أجل تأديتها الإنسان[1]؛ جعلت هذا الأخير و هو يسعى فوق الأرض؛ يتخبط في التوفيق بين حاجاته البيولوجية و بين حاجاته الروحية[2]، خاصة و أن سلطة الغرائز على الإنسان أقوى من سلطة الضمير و العقل، الأمر الذي جعله ينحرف رويدا رويدا عن الفطرة التي فطره الله عليها[3].

و من أجل تقويم هذا الانحراف الناتج عن شدة وطأة الغرائز على الإنسان أو شدة وطأة الضمير عليه. بعث الله رسله و أنبياءه لإعادة بناء حياة الإنسان على أساس من التوازن بين المادي و الروحي[4]، لأن هذا التوازن هو الذي يضمن بقاء النوع و استمراره من جهة و يرتقي بإنسانية الإنسان في سلم الحضارة من جهة أخرى[5].

و إذا كانت الثقافة العبرية حين بُعث موسى –عليه السلام– تركز على الواقع المادي للحياة و تغفل ما بعد الموت في العالم الآخر؛ فإن نفس هذه الثقافة في عهد عيسى –عليه السلام–كانت تنكر على الإنسان وجوده المادي، وتلقى طاقتها على الجانب أو النشاط الروحي فقط[6]، وفي كلا الوجهين إخلال بما تقتضيه حياة الإنسان، فهو لم يخلق ليأكل ويشرب وينسل، ويملك ويكافح من أجل استمرار النوع فحسب،وإنما خلق ليؤدي رسالة في الحياة، تلك التي تقتضي منه أن يراقب هذه الأعمال الأولية،وأن يوجهها إلى غايات تتفق ونقدم النوع[7].

ومن أجل تحقيق هذه الغاية بوجهيها: الروحي والمادي، لم يترك الله الإنسان دون معلم وموجه، بل ظل يبعث إليه منه الرسل والأنبياء، ليعيدوا إليه توازنه بالتعاليم التي

---

[1] السيد سابق: إسلامنا، مكتبة الشركة الجزائرية دار البعث قسنطينة الطبعة الأولى لعام 1988م ص: 93، 94.

[2] انظر محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن الكتاب الثالث، قصة قابيل و هابيل ص: 27، 28، البشرية و هوى النفس ص: 29، 30، النفس جبلت على الخير بفطرتها ص: 31، 32.

[3] انظر المرجع نفسه الجزء الثامن الفصل الأول ص: 95 و ما بعدها.

[4] انظر محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن، الكتاب الخامس، الفصل الثاني، شركة الشهاب قسنطينة –الجزائر– الطبعة الثانية لعام 1990م ص: 25–28.

[5] انظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، موضوع: النوع و المجتمع ص: 15 و ما بعدها.

[6] انظر عفت الشرقاوي: قضايا إنسانية في أعمال المفسرين، دار النهضة العربية للطباعة و النشر بيروت – الطبعة الثانية لعام 1980م ص234.

[7] انظر مالك بن نبي ميلاد مجتمع ص70.

نربط أهداف السماء بضرورات الأرض[1]، ذلك الربط الذي يجول بين الإنسان وبين أن يحدث في حياته فراغا اجتماعيا، حيث تغور الروح وتغور معها وسائل الحضارة[2].

ولما كانت مشكلة الإنسان بصفة عامة ومشكلة إنسان ما قبل أو ما بعد الحضارة بصفة خاصة، في نظر مالك بن نبي[3] هي دائما مشكلة ثقافة ومشكلة أفكار[4] –سواء كانت أصلية أو وضعية[5]–ومشكلة توجيه الإنسان بتوجيه الأفكار[6]؛ فإن خاصية هذه المشكلة المزدوجة تقتضي منا مراعاة موقع الإنسان؛ الذي نحاول تحريكه وتوجيهه؛من الحضارة؛ لأن مشكلة إنسان ما قبل الحضارة ليست هي مشكلة إنسان الحضارة ومشكلة هذا وذاك ليست هي مشكلة إنسان ما بعد الحضارة[7].

الفرع الثاني: مشكلة إنسان ما قبل الحضارة وأثناء نشأتها

لقد ظلت العناية الإلهية بالإنسان تتعهده بالرعاية والهداية إلى الصراط المستقيم طيلة الأعصار السابقة على ظهور الإسلام[8]، ولما حان موعد ظهور الإسلام كانت إنسانية الإنسان قد اكتمل نضجها النفسي والعقلي، وبلغت مبلغ الرشد، فبعث الله من القبائل العربية محمدا– صلى الله عليه و سلم– رسولا للإنسانية جمعاء[9]. وبذلك لم يكن محمد –صلى الله عليه و سلم– رسولا إقليميا، كموسى أو عيسى عليهما الصلاة والسلام، بل كان رسولا عالميا، وستظل رسالته كذلك، وفي هذا القرن الذي بعث فيه

---

[1] انظر المصدر السابق ص79.

[2] انظر المصدر نفسه ص98.

[3] انظر مالك بن نبي مشكلة الثقافة ص13.

[4] انظر مالك بن نبي نفس المصدر ص15.

[5] انظر مالك بن نبي مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي،دار الفكر المعاصر دمشق سوريا ترجمة بسام بركة، أحمد سعيد الطبعة الأولى لعام 1988م موضوع: الأفكار المطبوعة والأفكار الموضوعة ص68–75.

[6] انظر مالك بن نبي مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي،موضوع: المجتمع والأفكار ص 35 وما بعدها.

[7] انظر مالك بن نبي المصدر السابق ص37 وما بعدها وانظر في شروط النهضة ص81 وما بعدها.

[8] انظر محمد متولي الشعراوي معجزة القرآن، الكتاب الثاني الجزء السادس الفصل الثاني، شركة الشباب الجزائر ص299–305.

[9] انظر مارسيل بوازار إنسانية الإسلام ترجمة عفيف دشنية، منشورات دار الآداب بيروت الطبعة الأولى لعام 1980م ص389.

محمد –صلى الله عليه و سلم– « بدا على الدنيا أنها أصيبت بالجفاف، وحين فقدت اليهودية مولدها واختلطت المسيحية بموروثات الأمم الرومانية والبربرية، نبع في الشرق فجأة ينبوع صاف من الإيمان ارتوى منه نصف العالم... وإن حكمة الله لعجيبة ذات قوة في قضائها العجيب، فإن هذا الينبوع الصافي قد انبثق من أجدب بقعة بين بقاع الأرض قاطبة: صحراء الجزيرة العربية »[1].

غير أن العجب العجاب ليس– فيما أعتقد – من مهد الظاهرة القرآنية أو ممن تلقى وحي هذه الظاهرة ، فلله في تفضيل مكان على مكان[2] أو زمان على زمان[3] أو في تشريف و اصطفاء من يشاء من خلقه –ملكا كان أو بشرا[4] ليعهد إليه بتبليغ رسالته إلى البشر– حكمة بالغة ، فهو خالق الزمان و المكان و خالق الإنسان و هو أعلم بالإنسان الصالح لتلقي رسالته في الزمان و المكان المعينين. فإذا كان الله قد اختار محمداً – صلى الله عليه و سلم– الأمي لتلقي الوحي القرآني و لم يكن محمد قد « قرأ لفيلسوف و لا لصاحب نظرية...[و لم يكن قد] أخذ من ثقافات الدنيا شيئا [و كان] كل ما يأتي به معجزا و معجبا إذن فالأمية لرسول الله– صلى الله عليه و سلم– شرف و شهادة»[5]. و إذن فليس العجب من البقعة المباركة التي نزل فيها الوحي و لا ممن تلقى هذا الوحي، و إنما العجب هو من سرعة التأثير الذي أحدثته الظاهرة القرآنية في عالم الأشخاص، حيث تحرك هذا العالم الذي كان من قبل خامدا راكدا، حين سمع محمدا – صلى الله عليه و سلم– يتلو[6] « اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق ...»[7] ؛ ثم تتابع الوحي محدثا حركة طالت الجزيرة العربية و ما حولها خلال 23

---

[1] نقلا عن عباس محمود العقاد: الإسلام دعوة عالمية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت –لبنان– ص: 16.

[2] انظر المصحف الشريف سورة آل عمران الآية رقم 96–97.

[3] انظر نفس المصدر سورة البقرة الآية رقم 185 ، سورة التوبة الآية رقم 36.

[4] انظر المصحف الشريف سورة الحج الآية رقم 75.

[5] انظر محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن الكتاب الأول شركة الشهاب الجزائر طبعة سنة 1990 الفصل الخامس ص: 386.

[6] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ترجمة عمر كامل سقاوي، عبد الصبور شاهين دار الفكر دمشق سوريا، دار الفكر الجزائر الطبعة الرابعة لسنة 1987 م ص: 57.

[7] المصحف الشريف: سورة العلق الآية رقم 1–2.

سنة[1]. فما هو السر الذي انطوت عليه الظاهرة القرآنية حتى جعلت ذلك الإنسان الخامل الراكد يتحرك في اتجاهين متناقضين في المعتقد وفي الغاية[2] ؟ و للإجابة على هذا السؤال تناول كثير من الباحثين، ابتداء من القائلين بالصِّرفة و هو قول في نظر الرافعي[3] لا يختلف عن قول العرب الذين قالوا عن القرآن : « إن هو إلا سحر يؤثر» مرورا بعبد القاهر الجرجاني صاحب نظرية النظم، و انتهاء بالدراسات الحديثة حول الإعجاز القرآني.

و هذه السلسلة من الدراسات اللغوية و البيانية أو البلاغية[4] و إن كانت لها أهمية بالغة في إلقاء الضوء على المعجزة البيانية للظاهرة القرآنية فإنها تبقى غير كافية في تبيان مدى تأثير هذه الظاهرة على الإنسان العربي طيلة ثلاث و عشرين سنة من الناحية النفسية و الاجتماعية[5] فالقرآن الذي نزل بلسان القوم ، لم ينزل ليتحداهم فيما برعوا فيه فحسب، و إن كان ذلك التحدي يعتبر أول حجة أقامها عليهم[6] و تسلل منها إلى نفوسهم، و إنما نزل من أجل صياغتهم صياغة جديدة تختلف اختلافا جذريا عما ألفوه من عادات وتقاليد و أعراف[7] و ما هو ملفت للنظر في الظاهرة القرآنية أنها لم تنزل جملة واحدة كالإنجيل و التوراة[8] و إنما ظلت تتنزل على الرسول – صلى الله عليه و سلم– نجوما و أقساطا حسب الوقائع و الأحداث[9] و هي إذ نزلت كذلك، فمن

---

[1] انظر مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر دمشق سوريا، دار الفكر الجزائر الطبعة الرابعة لسنة 1987م.

[2] انظر عبد العزيز ياويش: الإسلام دين الفطرة و الحرية، دار المعارف مصر الطبعة الأولى لسنة 1968م ص: 46←59،48←61.

[3] انظر مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، مكتبة رحاب الجزائر ص:146.

[4] المصدر السابق فصل في معنى الإعجاز: الأقوال في الإعجاز ص: 141–155.

[5] المرجع نفسه ص: 99–113.

[6] انظر المصحف الشريف سورة الإسراء الآية رقم 88.

[7] انظر محمد النؤلي: المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، الدار التونسية للنشر تونس طبعة سنة 1986م موضوع البعد الاجتماعي للعقيدة ص: 29 و ما بعدها.

[8] انظر غازي عناية: هدى الفرقان في علوم القرآن الجزء الأول ص: 98.

[9] انظر محمد عبد الله دراز النبأ العظيم دار طيبة للنشر و التوزيع الطبعة الأولى لسنة 1997م ص: ب ، ج.

أجل تثبيت النبي و أتباعه فقد كان في أمس الحاجة إلى المواساة و المؤازرة المتواصلة خاصة قبل هجرته إلى المدينة المنورة[1].

و هذه الظاهرة و إن كانت قد لفتت انتباه الدارسين لمعجزة القرآن و جعلوها من موضوعات علوم القرآن تحت عنوان: التنجيم و أسراره[2] فإن اهتمامهم بها انصرف إلى الجانب المدرسي منها أكثر من انصرافه إلى الجانب الجوهري فيها و هو الجانب الاجتماعي التاريخي و الروحي، تلك الجوانب التي أخذت تتجلى منذ أن جهر محمد – صلى الله عليه و سلم– بدعوته إلى حجة الوداع[3].

و إذا كان لتنجيم الوحي المحمدي أسرار تربوية على المستوى الفردي و الجماعي، فإن هذه الأسرار لا تتجلى إلا في تلك الحركة التاريخية التي أحدثها في قبائل الجزيرة العربية[4] حين قضى على وثنيتها و حميتها الجاهليتين و ربط بينها على أساس من التوحيد و أساس من المساواة في الأصل و أساس من العدل في المعاملات المختلفة[5].

و لم يكن من الممكن أن يؤصل الوحي المحمدي في النفوس و الحياة هذه المبادئ و غيرها لو نزل جملة واحدة[6]؛ فالإصلاح و التغيير ، و هما الهدفان الأساسيان من الوحي المحمدي ، لا يمكن أن يتحققا إلا بالكيفية التي نزل بها[7]. و إلا فـ « بماذا كنا نفسر من الوجهات التاريخية و الاجتماعية و الأدبية قرآنا يهبط كأنما هو برق خاطف في ظلمات الجاهلية* ؟ و ماذا يعني هذا بالنسبة لتاريخ النبي، لو أنه كان قد تلقى وحيا كليا فجائيا لو أنه تلقاه بوصفه وثيقة، أي نوعا من صحف التفويض لدى بني الإنسان؟... أي أمل كان يمكن أن يلتمسه عنده قبيل بدر مثلا، لو أنه بدلا من أن يتوقع

---

[1] انظر مالك بن نبي الظاهرة القرآنية ص: 121–132 و انظر محمد عبد المنعم خفاجة، عبد العزيز شرف، التفسير الإعلامي للسيرة النبوية، الباب الثالث و الرابع و الخامس ص: 137–223.

[2] نذكر على سبيل المثال صبحي الصالح من المهتمين بعلوم القرآن، و له مؤلف بعنوان مباحث في علوم القرآن و من هذه المباحث مبحث التنجيم و أسراره.

[3] انظر مارسيل بوازار إنسانية الإسلام ص: 99 و ما بعدها.

[4] انظر جورج جرداق على: حقوق الإنسان، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت الطبعة الثانية لسنة 1970م ص: 29–33.

[5] انظر مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، الفصل الرابع: المدينة الإسلامية ص: 99، 145–155.

[6] انظر صبحي صالح: مباحث في علوم القرآن.

[7] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر دمشق سوريا ص: 147–148.

* انظر مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام ص: 98–137.

د الملائكة، ظل يكرر آية سبق أن حفظها عن ظهر قلب؟ إننا ببحثنا مسألة تجزئة حي في ضوء هذه النظرات نستطيع أن ندرك أولا قيمته التربوية. فتلك في الواقع الطريقة التربوية الوحيدة الممكنة في حقبة تتسم بميلاد دين وبزوغ حضارة[1]».

ونحن حينما نضع ظاهرة الوحي المحمدي و طريقة التنجيم أو طريقة تجزئتها إطارها الزمني، و نحاول النظر إلى الإنسان الذي نزلت من أجل صياغته نفسيا عقليا و وجدانيا؛ فإننا نجد الوضع العام لهذا الإنسان لم يكن يتطلب بالذات إحداث ير سطحي[2] يمكن أن يحققه نزول القرآن جملة واحدة و إنما كان يتطلب تغييرا ريا لمحتوى النفوس و العقول. أو بتعبير آخر كان يتطلب ثورة على الموروث افي الجاهلي[3].

إذ لم يكن من الممكن للإسلام باعتباره ثورة أن يأتي على ذلك الموروث اهلي من أساسه، و يحقق تلك الأهداف التي حققها لو لم يسلك إليها طريق التنجيم، لذلك ظل الوحي بهذه الطريقة، طيلة 23 سنة يهدي « سير النبي و أصحابه خطوة طوة نحو هذا الهدف البعيد، و هو يحولهم في كل لحظة بالعناية الإلهية المناسبة. فهو ز جهودهم العظيمة، ويدفع أرواحهم و إرادتهم نحو هذه الملحمة الفريدة في اريخ، فيكرم بآية صريحة قضاء شهيد أو استشهاد بطل »[4].

و لهذا يمكن القول: إن التنجيم كان بالنسبة للإنسان في الجزيرة العربية –في ك الحقبة من التاريخ– بمثابة جرع الدواء التي يحقن بها من حين لآخر جسم عليل، ما يسترد عافيته و يتقوى بها على النهوض و الحركة، أو على مواصلة الحركة

مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ص:180.

نظر حسين مروة ، محمد دكروب: دراسات في الإسلام، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية لسنة 1981م ص: 7-18.

انظر محمد عمارة: الإسلام و الثورة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت الطبعة الثانية لسنة 1980م ص: 19 و ما دها.

انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 87.

انظر محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي، دار الكتب الجزائر الطبعة الثانية ص: 145-167. و انظر مارسيل بوازار سانية الإسلام ص: 36.

مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ص :180 .

و النشاط. فطبيعة الإنسان بوجه عام من ناحية أخرى. كانتا تقتضيان نزول القرآن نجوما و أقساطا و إلا فـ « كيف كان القرآن يؤدي دوره في طبيعة الإنسان التي جاء يصوغها في ذلك العصر، لو أنه سبق بنزوله أحداث حنين و أحد؟... و ماذا كان يكون، لو أنه لم يأت لكل ألم بعزائه العاجل، و لو أنه لم ينزل لكل تضحية جزاءها، و لكل هزيمة أملها، و لكل نصر درسه في الاحتشام، و لكل خطر أدبي أو مادي روح التشجيع اللازم لمواجهته »، و لو لم يتنزل القرآن منجما لما استطاع النبي محمد – صلى الله عليه و سلم– تغيير الإنسان العربي في إرادته و اتجاهه.

و كلما كان النبي – صلى الله عليه و سلم – يخطو بالمؤمنين في طريق الدعوة و يجد للإسلام خطوة، ويجد لدعوته و لأتباعه موقعا، كلما كان وقع ذلك على المشركين وأهل الكتاب من يهود و نصارى مغيظا، مما جعل مشركي مكة خاصة يبالغون في الأذى و يجدون في الإهانات و الاعتداءات و الملاحقة[1] أو يعقدون معاهدة تقضي بمقاطعة محمد – صلى الله عليه و سلم– و أتباعه و ضرب حصار اقتصادي عليهم[2] أو يجتمعون فيأتمرون على قتل محمد – صلى الله عليه و سلم– أو يجمعون الجموع و يجيشون الجيوش و يعقدون الأحلاف لقتال محمد –صلى الله عليه و سلم– و أتباعه[3] أو يعقدون معاهدة صلح ثم ينقضونها بعد تشكيل حلف مع يهود المدينة و القبائل المحيطة بها للقضاء *على محمد – صلى الله عليه و سلم – و أتباعه[4]، و لهذه الأسباب و غيرها « كان الوحي يتنزل بالدرس الضروري في المثابرة و الصبر و الإقدام و الإخلاص يلقنه أولئك الأبطال الأسطوريين أبطال الملحمة الخارقة. فهل كان لدرسه أن يجد طريقه إلى قلوب و ضمائرهم لو لم يكن نزوله تبعا لأمثلة الحياة نفسها و الواقع المحيط بهم؟ »[5] .

---

[1] انظر محمد بيصار: العقيدة و الأخلاق و أثرهما في حياة الفرد و المجتمع، دار الكتاب بيروت الطبعة الرابعة 1973م ص: 178–181.

[2] انظر سيد أمير علي: روح الإسلام ترجمة عمر الديراوي دار العلم للملايين بيروت الطبعة الخامسة 1989م ص: 51 و انظر عبد العزيز جاويش: الإسلام دين الفطرة و الحرية ص: 58–61.

[3] انظر محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية. دار الفكر لكل من الجزائر و سوريا دمشق. الطبعة الحادية عشر لسنة 1991م ص:155–160.

[4] انظر نفس المرجع ص: 213–223.

[5] مالك بن نبي الظاهرة القرآنية ص:181.

و لهذا، فإننا حينما نتتبع خطوات الوحي في صياغة إنسان الحضارة الإسلامية الإنسانية منذ بداية نزوله إلى آخر آية منه[1]، فإننا لا يمكننا أن نعزو سر تأثيره في النفوس و الضمائر إلى لغته أو أسلوب نظمه أو محتوياته المختلفة فحسب، و إنما ينبغي أن نعزوه أيضا إلى الطريقة التي كان يتنزل بها خلال المدة التي استغرقها نزوله، و ذلك ليصل بهذا الإنسان تربية و تعليما إلى أرقى مرحلة من النضج[2] النفسي و العقلي و الوجداني « و لو أن القرآن كان قد تنزل جملة واحدة لتحول سريعا إلى كلمة مقدسة خامدة و إلى فكرة ميتة، و إلى مجرد وثيقة دينية، لا مصدرا يبعث الحياة في حضارة وليدة »[3].

و ليس أدل على نجاعة هذا المنهج* – و مدى تأثير الوحي به على محتوى النفوس و الضمائر– في معركة الإصلاح و التغيير من تلك النماذج البشرية التي طغى بها على مسرح الحياة من مثل أبي بكر و عمر و علي و عثمان و بلال و أبي ذر و حذيفة و عبد الرحمن بن عوف و الغامدية... و غيرهم كثير[4]. و قد أشاد بها القرآن الكريم في أكثر من موضع لتكون على مر الأعصار أسوة لإنسان الحضارة الإسلامية الإنسانية[5]. و ما كان لهذه النماذج أن تخرج من مدرسة الوحي المحمدي بهذه الصفات لو أن القرآن مع معجزته اللغوية و البيانية نزل جملة واحدة، لأنه كان سيتحول « سريعا إلى كلمة مقدمة خامدة و إلى فكرة ميتة »[6].

و بالإضافة إلى الأسرار التربوية لظاهرة الوحي المنجم؛ فإن هناك سرا آخر دائما لا ينقضي، و هو أن أدبيات الخطاب القرآني سواء في ذلك المكي و المدني،

---

[1] انظر سيد قطب : في ظلال القرآن . المجلد الرابع ، دار الشروق ، الطبعة العاشرة لسنة 1982م ص: 2253.

[2] انظر هـ. أ. أوقرستريت : العقل الناضج. ترجمة: عبد العزيز القوصي، محمد عثمان. مكتبة النهضة المصرية . الطبعة الثانية لسنة 1963م . الفصل الثالث عشر: من أين تبدأ ص: 368 و ما بعدها.

[3] مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ص: 181.

* و الذي يجدر بأولئك الذين يندبون أنفسهم لخوض معركة الإصلاح و التغيير دون أن يعدوا لها عدة الفهم و المواءمة أن يلتفتوا إليه، فلئن كان لكل آية قرآنية أو لكل سنة نبوية صحيحة وظيفة نفسية اجتماعية معينة فإنه يتعين عليهم إن شاءوا من خلال حديثهم بها أو عنها أن يعيدوا إليها أن يعوا متى و كيف و أين يتحدثون بها أو عنها؛ لأن فاعلية تأثيرها في النفوس و بالتالي استعادة وظيفتها الاجتماعية في الحياة، مرهونتين بهذا الثمن و هذه المواجهة تقتضي منهم ...

[4] خالد محمد خالد: خلفاء الرسول. دار الكتاب العربي، بيروت– لبنان، الطبعة الرابعة 1987م. تأملات ص: 40–42.

[5] انظر المصحف الشريف سورة الأحزاب الآية رقم: 21–22–23 ، سورة الإنسان الآية رقم: 8–9–10.

[6] مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ص: 181.

تتميز بمخاطبة العقل و إقناعه و مخاطبة الوجدان و إمتاعه[1]– في آن واحد[2] سواء كان المخاطب من العامة أو من الخاصة–. و في هذه الازدواجية التي تمتاز بها أدبيات الخطاب القرآني، و هو من حين لآخر يصنع قاعدة أساسية أو مبدأ من المبادئ العامة أو حكما عاما كان أو خاصا بغية تأصيل العقيدة و الأخلاق أو العقيدة و الشريعة في النفوس[3]، يكمن سر تأثير الخطاب القرآني في الإنسان عامة، و إنسان الحضارة الإسلامية الإنسانية خاصة[4].

و لعل إدراك زعماء قريش أثناء المرحلة الأولى للدعوة الإسلامية في مكة، لهذه الميزة لأدبيات الخطاب القرآني و مدى خطورة المقرئين لها من المؤمنين على المستمعين من أهل مكة، هو الذي دفع بهم إلى إصدار أمر عام شفوي يقضي بعدم الاستماع إلى ما يتلى من القرآن[5] بل إلى إصدار أمر آخر يقضي باللغو فيه[6]، و ذلك

---

[1] انظر محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم. دار طيبة للنشر و التوزيع . الرياض – السعودية. الطبعة الأولى لسنة 1997م ص: 143.

[2] المرجع نفسه ص: 142–143.

[3] فتحي هويدي : تزييف الوعي. دار الشروق، الطبعة الثالثة لسنة 1999م ص: 60–63.

[4] انظر مالك بن نبي: تأملات، ص: 40–42، شروط النهضة ص: 56،57.

[5]، [6] انظر المصحف الشريف: سورة فصلت الآية: 26. و انتظر فتحي رضوان: الإسلام و المسلمون، دار الشروق ص: 203–204–205.

قصد فتنة المؤمنين عن التدبر في القرآن من جهة و قصد الحيلولة بينهم و بين الذين يتسللون في الليل خاصة للاستماع إليهم من جهة أخرى[1]، و ليس أدل على قوة سر هذه الميزة و مدى تأثيرها في القارئ و المستمع لها من قصة[2] إسلام عمر بن الخطاب أو قصة[3] عتبة بن ربيعة المبعوث من قبل أبي جهل للتفاوض مع محمد- صلى الله عليه و سلم- أو قصة[4] منع كبار قريش أبا بكر الصديق- رضي الله عنه- من الصلاة و التلاوة في المسجد فهؤلاء و غيرهم وجدوا أنفسهم أمام فن من القول لم يسبق لهم أن سمعوه، و هذا الفن من القول و إن صيغ بلسانهم فإن صياغته و أفكاره الجديدة عليهم بهرتهم و سحرتهم[5]. فآمن بدين محمد- صلى الله عليه و سلم -من آمن عن ذوق و اقتناع و كفر به من كفر عن جحود و كبرياء و حاول بكل الوسائل أن يحول بين محمد – صلى الله عليه و سلم- و أتباعه و بين نشر دعوته بين الناس[6].

و لكنه لم يستطع؛ لأنه كان من الذين صدق و يصدق عليهم قول من له الأمر من قبل و من بعد، على امتداد الزمان و المكان، « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون...»[7].

---

[1] انظر سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الخامس، دار الشروق الطبعة العاشرة لسنة 1982م ص: 3120.

[2] انظر عباس محمود العقاد: عبقرية عمر: قصة إسلام عمر بن الخطاب، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان طبعة سنة: 1969 ص: 79-80.

[3] انظر محمد عبد المنعم خفاجي، عبد العزيز شرف: التفسير الإعلامي للسيرة النبوية، دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى لسنة 1992، ص: 118-119.

[4] انظر محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي، دار الكتاب، الجزائر ص: 157-158.

[5] انظر زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع الهجري، دار الجيل بيروت دون طبعة ص: 44، 45.

[6] انظر محمد الغزالي: كيف نفهم الإسلام، دار الكتاب – الجزائر ص: 20-23.

[7] المصحف الشريف: سورة الأنفال الآية رقم: 36.

الفرع الثالث: مشكلة إنسان ما بعد الحضارة:

ليس الإنسان السابق على الحضارة كالإنسان الذي خرج من الحضارة[1]، فالأول يظل مستعدا للدخول في دورة حضارة أما الثاني فإنه يكون قد فقد كل استعداد و قدرة على العودة إلى الحضارة[2]. و لتوضيح الفرق بينهما، يستعين مالك بن نبي بمثل من علم الطاقة فيقول[3] أن مثلهما « كمثل جزيء من الماء في وضعين مختلفين: يكون في أولهما قبل وصوله إلى خزان ينتج الكهرباء و في ثانيهما بعد خروجه منه. فهذا الجزيء عندما يكون قبل دخوله في الخزان يعطينا صورة عن الإنسان السابق على الحضارة؛ فهو جزيء منطو على طاقة مذخورة قابلة لتأدية عمل نافع. بيد أن هذا الجزيء، يصبح قاصرا على تأدية العمل نفسه منذ أن يصبح بعد الخزان؛ لأنه يكون قد فقد طاقته المذخورة و هو ما يعطينا صورة عن الإنسان الذي خرج من الحضارة »؛ و بما أن الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب و الأندلس كانت قد أكملت دورتها بسقوط الدولة الموحدية سنة 667هـ الموافق لـ 1269م[4]، فإن الإنسان الذي جاء بعد هذا السقوط يعتبر إنسانا قد خرج من الحضارة.

أ- مشكلة إنسان ما بعد الموحدين:

يعتبر عهد إنسان ما بعد سقوط الدولة الموحدية سنة: 667هـ الحد الفاصل بين الحضارة التي قامت في العالم الإسلامي و عمّرت لستة قرون و نصف، و بين تاريخ الانحطاط و الجمود الذي حل منذ ظهور هذا الإنسان إلى أن دخل الاستعمار العالم الإسلامي.

---

[1] انظر زكريا إبراهيم : مشكلة الإنسان، دار مصر للطباعة، ص: 23-24. و انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 78.

[2] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة، ص:78.

[3] المصدر نفسه ص: 78-79.

[4] انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي و الديني و الثقافي و الاجتماعي، المجلد الرابع ، دار الأندلس بيروت لبنان الطبعة الأولى لسنة:1967م ص: 233.

و إذا كان تاريخ الانحطاط و الجمود قد ظهر مع ظهور هذا الإنسان الذي تتجلى فيه الخصائص النفسية و الاجتماعية للانحطاط و الجمود فإن أسباب هذه الخصائص تعود من حيث جذورها الضاربة في عمق التاريخ – في رأي مالك بن نبي- إلى ذلك الانفصال الذي أحدثه معاوية بن أبي سفيان بعد معركة صفين سنة 38 للهجرة. فمنذ تلك الحادثة عرف العالم الإسلامي أول انفصال بين السلطة الروحية و السلطة الزمنية؛ و إذا كان العالم الإسلامي بعد هذا الانفصال عرف حضارة فإنها في نظره « ليست من الناحية العضوية التاريخية التي تهمنا، سوى صورة مشوّهة عن البناء الأصلي الذي شاده القرآن، و الذي قام على أساس من التوازن بين العقل و الروح... اللازم لكل بناء اجتماعي أهل للخلود »[1].

و لكي ندرك مغزى هذا الانفصال الذي أحدثه معاوية في بنية الأمة الإسلامية الروحية المادية[2]، يجب أن نعرف أن معاوية ينحدر من أسرة بني عبد شمس التي كان لها في الجاهلية سيادة قضى عليها الإسلام[3]، كما أنه لم يدخل في الإسلام إلا حين فتح الله مكة للمسلمين، و لذلك فهو من الطلقاء و إن عُدّ من الصحابة و من كتبة الوحي[4]، و هذا يعني أن تمكن الإيمان من قلبه لم يكن كتمكنه من قلب أبي بكر و عمر و عثمان و علي- رضي الله عنهم أجمعين[5]- ، و لذلك فبمجرد أن اعتلى كرسي الخلافة بدأ ينحرف بالأمة عن الخط الذي رسمه القرآن و السنة الشريفة للسير عليها في الحياة[6]،وهذه الانحرافات هي السبب المباشر في ظهور تلك الاحزاب الثائرة والطوائف الخارجة[7].

---

[1] مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص: 25.

[2] انظر مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص: 155-156.

[3] انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي و الديني و الثقافي و الاجتماعي، المجلد الأول ص: 278.

[4] انظر صبحي الصالح: مباحث علوم القرآن دار العلم للملايين بيروت لبنان الطبعة 17 لعام 1988م ص: 69.

[5] جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، الجزء الأول، منشورات دار مكتبة الحياة -لبنان- بيروت ص: 76-83. انظر سيد أمير علي: روح الإسلام، ترجمة: عمر الديراوي، دار العلم للملايين بيروت الطبعة الأولى لعام 1961 ص: 295.

[6] انظر مهدي فضل الله: آراء نقدية في مشكلات الدين و الفلسفة و المنطق، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع، لبنان – بيروت-الطبعة الأولى لعام 1981 ص: 54. و انظر محمد تقي المدرسي: التاريخ الإسلامي دروس و عبر ...، دار الجيل – لبنان- بيروت، الطبعة الأولى لعام 1984م موضوع: الأزمة الحضارية للأمة ص: 69-80، 165-169.

[7] انظر علي الوردي: مهزلة العقل البشري، دار انتشارات الشريف الرضي، الطبعة أمير قم إيران، الطبعة الأولى لعام 1997م ص: 47-65.

و إذا كان الخلفاء الراشدون قد ساروا في الأمة سيرة الرسول- صلى الله عليه و سلم-؛ فذلك لأن ضمائرهم كانت قد أفرغت نهائيا من موروثها الجاهلي و ملئت بالثقافة الإسلامية ذات الأصول القرآنية و السنة النبوية الشريفة، و بذلك كانت سيرتهم انعكاسا للاندماج بين الضمير و الثقافة[1]، بينما لم يستطع معاوية - و إن عُدّ من الصحابة و من كَتَبَة الوحي- أن يحقق هذا الاندماج بين ضميره و بين ثقافته الإسلامية؛ لأن ضميره لم يكن قد تخلص بعد من حمية الجاهلية وأفكارها الاجتماعية[2]، فكان بذلك- إذا ما قيس بضمائر الخلفاء الراشدين- متخلفا عن الفكرة الإسلامية وثقافتها[3] .

وهذا التخلف بين الضمير والعلم[4] من جهة وبين الثقافة والعلم من جهة أخرى « كان هو السبب المباشر في الانفصال الذي حدث في العالم الإسلامي في صفين، فالقرآن من حيث كونه نظاما فلسفيا كان علما يتجاوز في مداه آفاق الضمير الجاهلي بطريقة فريدة، فنتج عن ذلك انفصال بين أولئك اللذين تمثلوا الفكر القرآني الجديد، وأولئك الذين استعبدتهم حمية الجاهلية، وأفكارها الاجتماعية، وشرائط الحياة التي جاء القرآن ليمحوها محوا من طبائع الناس. و تعتبر هذه الظاهرة - [أي ظاهرة انفصال أولئك الذين تمثلوا الفكر القرآني عن أولئك الذين استعبدتهم حمية الجاهلية]- هي السر الذي تحكم في التاريخ الإسلامي منذ ثلاثة عشر قرنا، فإذا ما غابت في غمار القرون بعثتها ضروب الصراع الباطن من رمسها ما بين أزمة و أخرى. و ما كانت حركة الخوارج في الجانب السياسي، و حركة المعتزلة في ميدان الفكر إلا محاولات للجمع بين الفكر القرآني و الضمير المتخلف الذي مازال يتهرب من الحقائق المنزلة، و كان

---

[1] انظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص: 108-109، و انظر عباس محمود العقاد: ما يقال عن الإسلام، مكتبة رحاب، الجزائر ص: 142-144.

[2] انظر مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه دار الفكر-الجزائر، دار الفكر-دمشق،سوريا،الطبعة الثالثة سنة 1988، ص: 79، 80.

[3] انظر مالك بن نبي: تأملات ص:148 ، 149، 192.

[4] نفس المصدر ص:148.

السبب في هذا الصراع كله، ما كان يعانيه العالم الإسلامي من انفصال بين سلطانه الزمني و فكرته القرآنية»[1].

و بما أن اندماج العنصر الزمني في الروحي هو الذي مكن للرسول- صلى الله عليه و سلم- و الخلفاء الراشدين من بعده من تحقيق معنى الخلافة في الأرض[2]، فإن أي فصل بينهما لا يمكن أن يتوقع منه إلا تلك النتيجة التي أخذ يؤول إليها حال الأمة من التنازع و الفشل و ذهاب الريح[3]، و كانت نتيجته الحتمية هي ظهور إنسان ما بعد الموحدين[4]، و لذلك « فإذا تناولنا الظواهر من جانبها السياسي وجدنا أن هذا الانفصال الأول، إنما كان إحدى الأزمات التي تغير نظام بلد معين خلال التاريخ»[5].

و هذا الانفصال الأول؛ هو الذي حد من قوة الحركة[6] التاريخية الصاعدة التي خلقها الإسلام في المجتمع الوليد – بعد أن حققت فيه أقصى درجات الفاعلية في الانسجام و التوافق في السير نحو الحضارة[7]- حين ألغى أهم مبدأ من مبادئها[8] وأهم خاصية من خصائصها[9]، وهو بهذا يكون قد غير اتجاه هذه الحركة في المجتمع الذي نشأ ليبقى إلى غايات لم تكن تتفق مع تقدم الإنسان و تطوره[10] بقدر ما كانت تتفق مع تدهوره ثم انهياره[11] فإذا جاء يوم على هذا المجتمع المنتسب إلى الإسلام و انعدمت فيه

---

[1] مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص: 114-115.

[2] انظر مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص: 162-165. و انظر مهدي فضل الله : آراء نقدية في مشكلات في الدين و الفلسفة و المنطق، ص: 61.

[3] انظر سورة الأنفال: الآية رقم 46 «...و أطيعوا الله و رسوله و لا تنازعوا فتفشلوا و تذهب ريحكم و اصبروا إن الله مع الصابرين »

[4] انظر كارل بروكلمان: تاريخ الثورة الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين بيروت ، الطبعة الأولى لسنة 1981م، موضوع انحلال الخلافة و نشوء الدويلات ص: 212 و ما بعدها و 323 و ما بعدها.

[5] مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ص: 31.

[6] انظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص: 18-28-40-41-78.

[7] انظر مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة : عبد الصبور شاهين ، دار الفكر دمشق ، الطبعة الرابعة لسنة 1984 ص: 51-52.

[8] مبدأ الشورى، وخاصية الأخوة ،انظر مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام ، ص:161،158.

[9] مبدأ الشورى، وخاصية الأخوة، انظر مارسيل بوازار:إنسانية الإسلام، ص:161،158.

[10] انظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص: 18-19 و انظر مهدي فضل الله: آراء نقدية في مشكلات الدين و الفلسفة و المنطق ص: 60.

[11] انظر مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص: 156-157.

الحركة[1]، فتلك هي النتيجة الطبيعية لمجتمع فارق أعضاؤه سبيل الحضارة[2] و اتبعوا السبل التي نهوا عن اتباعها[3].

و سبيل الحضارة- باعتبارها تركيبا أصيلا للإنسان و التراب و الوقت[4]- « هو أن يتعلم الإنسان [في كل الأوقات و الظروف] كيف يعيش في جماعة، و يدرك في الوقت ذاته الأهمية الرئيسية لشبكة العلاقات الاجتماعية في تنظيم الحياة الإنسانية من أجل وظيفتها التاريخية » [5]، و هي الإصلاح و البناء لا الإفساد و التخريب[6]. و ما كان لإنسان ما بعد الموحدين و قد أتى عليه حين من الدهر تحولت فيه الخلافة الإسلامية الاسمية إلى شعوب و قبائل منكرة بعضها بعضا[7]؛ أن يذكر هذا الفن و لا أن يدرك الأهمية الرئيسية لشبكة العلاقات الاجتماعية، لأن التركيب الأساسي للإنسان والتراب والوقت كان قد تحلل منذ زمان فتحللت معه الحياة وأخلت مكانها للحياةالبدائية[8].

وبما أن الحضارة من حيث وظيفتها الاجتماعية هي كل مركب[9] من شروط معنوية تتجلى فيي صورة إرادة تحرك المجتمع نحو تحديد مهامه الاجتماعية والاضطلاع بها ومن شروط مادية تظهر في صورة إمكان يضع تحت تصرف المجتمع كل الوسائل الضرورية للقيام بمهماته المختلفة[10]، فإنه بفقدان إنسان ما بعد الموحدين للإرادة التي تحركه من جديد وتدفعه نحو الحضارة[11]، يكون قد فقد القاعدة الأمامية للإمكان الحضاري مما جعل « القيروان قرية مغمورة ،بعد أن كانت في عهد

---

[1] انظر لوثروب ستو دارد: حاضرالعالم الإسلامي، المجلد الأول، ترجمة: عجاج نويهض، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت- لبنان، الطبعة الرابعة لسنة: 1973م ص: 259 و ما بعدها.

[2] سبيل الحضارة في نظر بن نبي هو البناء المعنوي و المادي على أساس من التعادل بينهما فإذا اختل هذا التعادل في جانب أو في آخر كانت السقطة رهيبة قاصمة. وجهة العالم الإسلامي، ص: 156. ميلاد مجتمع، دار الفكر – دمشق-سوريا، الطبعة الثالثة لسنة: 1986م ص: 94-98.

[3] انظر المصحف الشريف، سورة الأنعام الآية: 153.

[4] انظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى ص: 67.

[5] انظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص: 94.

[6] انظر المصحف الشريف سورة البقرة الآية 11-12 و سورة هود الآية: 83-88.

[7] انظر أحمد أمين: ظهر الإسلام الجزء 1-2، دار الكتاب العربي بيروت – لبنان- الطبعة الخامسة ص: 90-91.

[8] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي،ص:31.

[9] انظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى،ص:43.

[10] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الإقتصاد ص:61.

[11] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص:31-85-86-87،ميلاد مجتمع ص :77-78.

الأغالبة قبة الملك، وقمة الأبهة، والعاصمة الكبرى التي يقطنها مليون من السكان، ولم يكن خط بغداد و سمرقند خيرا من ذلك؛ لقد كانت أعراض الانهيار العام تشير إلى نقطة الانكسار في المنحنى البياني[1]».

والتغير في المنظر الذي يحيط بالإنسان من المدن المخططة إلى الأكواخ الفوضوية أو الخيم وفي النموذج الاجتماعي من اليسر إلى العسر[2]،هو نتيجة للتغير اللاحضاري الذي يعتري القيم والأذواق والأخلاق في منعطفات التاريخ[3] طبقا للمبدأ القرآني[4] الصارم « فإذا نظرنا إلى هذا الوضع نظرة اجتماعية ،وجدنا أن جميع الأعراض التي ظهرت في السياسة أو في صورة العمران، لم تكن إلا تعبيرا عن حالة مرضية يعانيها الإنسان الجديد -إنسان ما بعد الموحدية- الذي خلف إنسان الحضارة الإسلامية، والذي كان يحمل في كيانه جميع الجراثيم التي سينتج عنها تأثيرات في فترات متفرقة جميع المشاكل التي تعرض لها العالم الإسلامي منذ ذلك الحين»[5].

و أول ما ظهر في حياة إنسان ما بعد الموحدين بعد أن فقد الإرادة إلى التحضر و الحضارة، هو نشاطه الذي لم تكن له علاقة تربطه بعالم الأفكار أو بعالم الأشياء، لأن الاهتمام الأسمى الذي يجعله يلتفت إلى هذه العلاقة و يمكنه من الربط بين النشاط و بين الأفكار أو بين العمل و الأشياء لم يعد له وجود في حياته، و لذلك فمنذ سقوط الدولة الموحدية إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي لم يعد لهذا الإنسان «قدرة ما على استنطاق فكرة ابن خلدون؛ لأن ذلك [الإنسان] لم يكن قد أسس نشاطه العقلي والإجتماعي على اهتمام أسمى. ومنذ ذلك العصر كان المسلم ينزلق إلى سطح الأشياء دون أن يغور، ويمر بجانب الأفكار« دون أن يتعمقه، لأنه لم تعد له علاقة بهذه أو تلك، فلم يعد ينتج عن لقائه بالحياة الاجتماعية تلك الصدمة القوية التي تغير أسلوبها كما تغير سلوكها»[6].

---

[1] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص:31-32.

[2] انظر مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر دمشق سوريا ص:75-77.

[3] انظر مالك بن نبي المسلم في عالم الاقتصاد ص:59.

[4] انظر المصحف الشريف سورة الرعد الآية رقم :11.

[5] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 32.

[6] انظر مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص: 48.

و ليس في هذا الوصف لإنسان ما بعد الموحدين أو في الحكم عليه مبالغة أو شطط، و إنما هو الواقع عينه الذي كان عليه العالم الإسلامي آنذاك و الحقيقة التي لا يمكن إنكارها، لأنه منذ مجيء هذا الإنسان إلى الحياة دخل العالم الإسلامي في مرحلة يمكن أن نطلق عليها مرحلة الزمن الميت في النمو المعنوي و المادي لشعوبه فعلى امتداد تلك القرون « وقف المسلمون في علمهم فليس إلا تزويد بعض الكتب الفقهية والنحوية والصرفية ونحوها. وفي صناعتهم، فلا اختراع ولا إتقان للقديم وفي آلاتهم وفنونهم العسكرية، فهي على نمط الأقدمين... والعلم [فيهم] كتاب ديني شكلي يقرأ، أو جملة تعرب أو متن يحفظ أو شرح على متن أو حاشية على شرح أما علوم الدنيا فلا شيء منها إلا حساب بسيط يستعان به على معرفة المواريث أو قيس من فلك قديم يستدل به على أوقات الصلاة. والسياسة [عندهم] نزاع مستمر بين الأمراء وكل أمير له حزبه، وكل حزب يتربص الدائرة بخصمه والبلاد ضائعة بينهم »[1]. و ليست هذه الصورة الوصفية للأوضاع المتدينة في الناحيتين: الأدبية و المادية لشعوب العالم الإسلامي آنذاك إلا انعكاسا للإطار الثقافي الذي كان يحيط بحياة إنسان ما بعد الموحدين لا باعتباره أفكارا علمية أو فلسفية أو أخلاقية مجردة، بل باعتباره سلوكا و أسلوبا للحياة، مترجمين في نشاط إنساني مختلف الأشكال[2]، فإذا أضحى هذا النشاط من الناحية العلمية اجترارا للأفكار القديمة ومن الناحية الاقتصادية رعبا للماشية والإبل[3] ومن الناحية التجارية تصديرا للجلود والصوف[4] و من الناحية السياسية نزاعا بين الأفراد مستمرا فإن في هذا دلالة على أزمة ثقافية كان يعيشها إنسان ما بعد الموحدين تقهقرت به لحد الجمود[5].

---

[1] أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص: 7-8.

[2] انظر مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص :50-51.

[3] أنظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ،ص :27-36-37.

[4] أنظر سفيتلانا باتسيف: العمران البشري مقدمة ابن خلدون، ترجمة: رضوان إبراهيم، الدار العربية للكتاب ، ليبيا -تونس، الطبعة الأولى لسنة1978 ص:117.

[5] انظر مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص: 117.

ب- مشكلة إنسان النهضة العربية الإسلامية:

منذ سقوط الدولة الموحدية بدأ الإنسان في العالم العربي و الإسلامي يعود تدريجيا إلى الحياة البدائية بعد أن نبذ الدين من حياته الاجتماعية فرجع إلى فقره و توحشه[1] الذي كان عليه قبل ظهور الإسلام.

و لما ورد الإنسان الأوربي البلاد العربية و الإسلامية في القرن التاسع عشر لم يجد الإنسان فيها يطلب رزقه من الأرض -فقد كانت فقيرة، ليس فقرا ناتجا عن طبيعتها، و إنما هو فقر ناتج عن إرادة و وعي هذا الإنسان الذي لم يمد يدا بالبذر و الغرس منذ قرون- و إنما وجد عليها إنسانا يتحرك فوق كنوز، و مع ذلك لم يكن يعتمد في طلب رزقه إلا على الحيوان؛ لأن الإرادة التي تحركه إلى العمل، و الوعي الذي يمكنه من إيجاد مصادر أخرى للرزق كانا مفقودين عنده.

و لقد كان هذا الإنسان حين وفد عليه الرجل الغربي إما راع مترحل و إما محارب أجير، و لذلك فلم يكن من الممكن تحديد البقعة التي يعيش فيها إلا بتحديد أقرب منطقة من مسكنه -الذي لم يكن في الغالب إلا خيمة أو كوخا- نزل بها المطر لآخر مرة[2].

و ذلك لأن هذا الإنسان و منذ أن خرج من الحضارة لم يكن يعرف الاستقرار في المكان[3] – و إن كان قد عرفه في الأفكار و العادات و التقاليد و الأذواق[4]- فقد كان يعيش حياته متنقلا من نجد إلى سهل و من ربوة إلى واد كما كان أسلافه قبل الإسلام[5]، و لذلك لم يعرف علاقات جوار منظمة؛ لأنه لم يكن يعرف الملكية العقارية[6]، و هذه الحياة السائحة السائبة لم تكن تسمح له بالاندماج في نظام اجتماعي لأن ذلك

---

[1] انظر عبد الله شريط: الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون، ص: 212-213-227-228.

[2] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 36.

[3] انظر عبد الله شريط: الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون ص: 438.

[4] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 29 و انظر ميلاد مجتمع ص: 15-16.

[5] نفس المصدر ص: 36-37.

[6] انظر مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، دار الفكر للطباعة و النشر، دمشق- سوريا، الطبعة الثانية لسنة 1984م ص: 183.

يتطلب فن العيش في جماعة[1]، و هو كان قد نسي هذا الفن منذ أن خرج من الحضارة و عاد إلى حياة أسلافه البدو ضاربا في أرض لا علاقة بينه و بينها إلا علاقة الحرمان و الفقر المادي و المعنوي[2].

و في الوقت الذي كان فيه الإنسان في العالم العربي و الإسلامي نائما مستغرقا في نومه منذ قرون، كان الإنسان الأوروبي قد أخذ ينشئ حضارة و يتدرج في إنشائها و في منتجاتها المعنوية و المادية[3]، فلما شعر بضخامة إمكانه الحضاري خاصة العسكري منه هجم على العالم العربي و الإسلامي فأخذت أقطاره تتساقط قطرا بعد قطر[4]، و بدافع ما كان يضغط على أهله بكل ما يملك من وسائل مادية و أدبية و يدير شؤون أهل القطر المختلفة على هواه[5]. فكان من نتائج هذا الضغط، أن أخذ وعي هذا الإنسان بعد غيبوبة قرون يستيقظ، و طموحه بعد رضى يتوثب[6]، و بهذا الضغط كان الإنسان الأوربي، و إن لم يكن يهدف، بمثابة المنقذ لـــ « العالم الإسلامي من فوضى القوى الخفية، التي يغرق فيها كل مجتمع يستبدل الخيال الساذج بالروح... [لأنه] حين نسف وضعه الاجتماعي الذي كان يعيش فيه راضيا بالدون، و حين سلبه وسائله التي كان يتبطل بها هادئ البال حالما... [كان في الواقع و الحقيقة يقوم] -دونما قصده- بدور " الديناميت" الذي نسف معسكر الصمت و التأمل، و الأحلام، و بذلك شعر إنسان ما بعد الموحدين كما شعر بوذي الصين و برهمي الهند بهزة انتفض بعدها مستيقظا ليجد نفسه في إطار جديد لم تصنعه يداه، و أمام ضرورتين ملحتين: فهو ملزم... بأن يحافظ على الحد الأدنى من كرامته ... و هو ملزم أيضا بأن يضمن لنفسه الحد الأدنى من الحياة في مجتمع قاس، لا يعول البتة صعلوكا يعيش على الغارة، أو متزهدا يعيش

---

[1] انظر مصطفى العوجي: الأمن الاجتماعي: مقوماته، تقنياته، ارتباطه بالتربية المدنية، مؤسسة نوفل بيروت- لبنان – الطبعة الأولى لسنة 1983م ص: 342-345.

[2] انظر مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق-سوريا- الطبعة الثانية لسنة 1971م ص: 73-74.

[3] انظر أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص: 8-9.

[4] انظر نفس المرجع ص: 8، و انظر منير شفيق: قضايا النهضة و الاستقلال في الصراع الحضاري، ص: 49.

[5] انظر نفس المرجع ص: 9.

[6] انظر نفس المرجع ص: 9.

على صدقات الناس، أو ولدا محظوظا يعيش على موارد أسرته، فقد زالت من الوجود كل إمكانيات التبطل منذ ذلك الحين »[1].

و في إطار هذه الحياة الجديدة و على إثر هذه اليقظة الفجائية غير الطبيعية[2]، نهض رجال للإصلاح كانوا يشعرون بآلام شعوبهم أكثر مما كانت تشعر، كما كانوا يدركون الأخطار المحيطة بها أكثر مما كانت تدرك[3]. غير أن شعورهم بهذه الآلام و إدراكهم لتلك المخاطر لم يصاحبه تفكير عميق[4] في مشكلة الإنسان، و بالتالي إنضاج حلول عملية لها، و ذلك لأنه لم يكن يخطر ببالهم أبدا أن مشكلة العالم الإسلامي ليست في الاستعمار، و إنما هي في الإنسان الذي كانوا يحاولون النهوض به، لأن هذا الإنسان و منذ قرون خلت قبل مجيء الاستعمار إلى هذا العالم، كان بعجزه عن القيام بأي جهد اجتماعي منظم يهيئ كافة الشروط المعنوية و المادية في أرضه للاستعمار. فإغفالهم لهذه المشكلة باعتبارها سببا و للربط بينها و بين التمكن من إحداث نهضة في العالم العربي و الإسلامي كانت -لو لم يقعوا في هذا الخطأ- ستتحقق معها جميع الشروط النفسية و الاجتماعية التي تحرر الإنسان نهائيا من التبعية للاستعمار الخفي و العلني.

و من هنا تبدأ مشكلة النهضة في العالمين: العربي و الإسلامي؛ لأن إغفال مشكلة الإنسان من قبل رجال النهضة، جعلهم لا يلتفتون إلى قضية أخرى ذات صلة بالواقع الذي كانوا يحاولون تغييره و هي قضية الوراثة الاجتماعية، كي يعطوها حقها من التفكير في الكيفيات والوسائل التي تمكنهم من تخليص الإنسان من جميع سلبياتها، و لذلك و من وجهة نظر مالك بن نبي[5]، فإن جميع النقائض التي عانت منها النهضة آنذاك « يعود وزرها إلى ذلك الرجل الذي لم يكن طليعة في التاريخ، فنحن ندين له بمواريثنا الاجتماعية، و بطرائقنا التقليدية التي جرينا عليها في نشاطنا الاجتماعي [لأنه] بلغنا نفسه المريضة التي تخلقت في جو يشيع فيه الإفلاس الخلقي و الاجتماعي

---

[1] مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 41-42.

[2] انظر مالك بن نبي: تأملات ص: 213.

[3] انظر أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث ص: 9.

[4] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 143-145.

[5] نفس المصدر ص: 32.

و الفلسفي و السياسي ».

و بما أن النهضة التي حدثت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر و النصف الأول من القرن العشرين تحت قيادة و إشراف رجال الإصلاح الديني و رجال التحديث السياسي و الاجتماعي، لم تكن ظاهرة خاصة ببلدان العالم الإسلامي، و إنما كانت ظاهرة عامة شملت كل البلدان التي تعرضت للاحتلال الاستعماري كاليابان و الصين و ألمانيا، و أنها لذلك تعتبر الفعل[1] الذي صدر عن شعوب هذه البلدان للرد على فعل التحدي الذي وجهه إليها الاستعمار؛ فإن الملفت للنظر في هذه الظاهرة العامة، هو اختلاف نتائجها غي البلدان العربية و الإسلامية عنها في البلدان المشار إليها آنفا، مع أن التحدي الاستعماري هو السبب المباشر في تكوين الظروف النفسية و الاقتصادية و السياسية التي تخلق في جوها رد الفعل.

و لذلك فإن مالك بن نبي وضع أمام هذه الظاهرة في نتائجها لا في أسبابها علامة استفهام كبرى ثم انطلق في دراسة حركة و اتجاه النهضة العربية الإسلامية بغية تحديد العوامل النفسية التي أثرت في بطء سير حركتها و العوامل الفكرية التي أثرت في تذبذب وجهتها فتبين له أن الاختلاف بين بلدان العالم العربي و الإسلامي و بين اليابان أو الصين أو ألمانيا في نتائج نهضاتها لا يعود إلى طبيعة التحدي الاستعماري؛ لأنه كان واحدا بالنسبة لها، و إنما يعود إلى نوع الصلة التي عقدها قادة[2] هذه النهضات بالحضارة الغربية إذ لم تكن هذه الصلة في نظره بالنسبة لقادة شعوب البلدان العربية و الإسلامية صلة التلميذ بالمعلم كما كان شأنها عند قادة الشعب الياباني أو الصيني و إنما كانت هذه الصلة كصلة الزبون بالتاجر.

و مع أن هؤلاء القادة حاولوا بكل الطرق أن يجعلوا من هذه الصلة، وسيلة لإحداث تركيب لعناصر الحضارة، إلا أنهم فشلوا، و ذلك لأن محاولاتهم في النهوض بالإنسان المسلم، لم تكن تستند لا إلى نظرة تأخذ في عين الاعتبار موقع هذا الإنسان

---

[1] انظر مالك بن نبي: تأملات ص: 164-213.

[2] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، الفصل الثاني ص: 141-166، و انظر عبد اللطيف عبادة: الموافقات، العدد الثالث جوان 1994: مناهج الحركات الإسلامية المعاصرة في التغيير...ص: 315 و ما بعدها.

و مشكلاته من دورة الحضارة الإسلامية. و لا إلى إدراك لأوضاع العالم الإسلامي الاجتماعية و ما كان يعتورها من عوامل الانحطاط من ناحية، و ما كانت تنطوي عليه من أسباب التقدم من ناحية أخرى[1].

و لهذا، يرى مالك بن نبيب أنه ما لم يأخذ رجال الإصلاح و أعلام الفكر و قادة السياسة بعين الناقد البصير نتائج نهضة العالم الإسلامي، و ما لم ينظروا إلى راهن المشكلة الإسلامية في أصوله التاريخية[2]؛ فإنهم لن يتمكنوا من فهم مشكلة الإنسان في بلدان فهما واقعيا و لن يستطيعوا تقويم أسباب نهضته و أسباب نهضته و أسباب فوضاه تقويما موضوعيا[3]، و بالتالي فإن النهوض ببلدانهم يصعب عليهم أو يستحيل.

فالنهضة الجديدة و الحلول التي تنشأ عنها تدريجيا -في هذه البلدان لسائر مشكلات الإنسان الحضارية- تتوقف على توافر هذه النظرة و هذا الفهم عند من يقود الإنسان في هذه البلدان[4]، إذ ليس في استطاعة بلدان العالم العربي و الإسلامي أن تحدد الشروط الأساسية، و تحصر الإمكانات و الوسائل الضرورية لنهوضها، و تطرح الحلول المناسبة لإمكاناتها و وسائلها[5]، و تجد الكيفيات التي تضع بها مشكلتها الإسلامية في وضعها المناسب و في الطور الذي تستطيع منه الحضارة أن تبدأ دورها في تركيب الإنسان و التراب و الوقت، دون نظرة من موجهيها إلى الواقع في جذوره الثقافية و دون فهم منهم لأوضاعه المختلفة[6].

فإذا كانت الحضارة من منظور مالك بن نبي ليست أي شكل من أشكال الحياة، و إنما هي بناء و هندسة يتطلبان من الإنسان بوجه عام، و من المصلح و المفكر و الموجه و القائد بوجه خاص فكرة و إرادة و وعيا و خطة[7]، فهل توافرت هذه العوامل و الشروط في العمل النهضوي الذي قام به رجل الإصلاح الديني و رجل

---

[1] شروط النهضة ص: 52-54.

[2] انظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى ص: 54-61.

[3] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 112.

[4] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 81-83.

[5] انظر مالك بن نبي: تأملات ص: 175-198.

[6] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 52-64.

[7] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 59-66. و انظر له فكرة الأفريقية الآسيوية... ص: 248.

التحديث السياسي و الاجتماعي[1]، ذلك ما سنعرفه في ثنايا الحديث عن مشكلته.

و إذا كانت اليقظة من نوم قرون، قد عبّر عنها في العالم العربي و الإسلامي آنذاك باسترداد الشعوب للوعي المفقود[2]، و شروعها في الحركة التي عبر عنها بالنهضة. فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو هل وضعت مشكلة الإنسان الذي كان نائما عازفا عن الحركة منذ قرون من قبل رجال الإصلاح الديني و التجديد الاجتماعي و السياسي في إطار تسلسلها التاريخي الهجري؟! و هل أدرك هؤلاء الرجال أوضاعها الاجتماعية السياسية أي النفسية الفكرية و ما كان يعتورها من عوامل الانحطاط و ما تنطوي عليه من أسباب التقدم؟! و هل خضعت حركة النهضة بالإنسان للتخطيط والتوجيه المنهجيين أي للتفكير و التنظيم طبق أفكار و قوانين؟؟. لكي نجيب على هذه الأسئلة يجب أن نعرف نظرة هؤلاء الرجال إلى مشكلة الإنسان و الزوايا التي نظر منها كل واحد منهم[3] إليها.

1- **مشكلة رجال الإصلاح الديني:** و مما لا خلاف فيه بين المؤرخين أن السيد جمال الدين الأفغاني هو المفجر الأول للمشكلة الإسلامية في ضمير الإنسان و هو الرائد الأول لحركة الإصلاح[4] في العالم الإسلامي و العربي فقد « شاءت الأقدار أن تجعل من هذا الرجل في التاريخ، الشاهد الصادق* و الحكم الصارم على مجتمع انتهى أمري

---

[1] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة موضوع: من التكديس إلى البناء ص: 44-51.

[2] انظر على سبيل المثال: جورج أنطونيوس: يقظة العرب: تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة: ناصر الدين الأسد/ إحسان عباس، دار العلم للملايين بيروت، المقدمة ص: 11-26.

[3] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 44-45.

[4] انظر أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث ص: 59 و ما بعدها.

* « يقول السيد جمال الدين عن نفسه: لقد جمعت ما تفرق من الفكر، و لممت شعث التصور، و نظرت إلى الشرق و أهله، فاستوقفتني الأفغان... فإيران... فجزيرة العرب... و العراق... و الشام... و الأندلس... و هكذا كل صقع و دولة من دول الإسلام و ما آل إليه أمرهم... فخصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه، و تحري دوائه، فوجدت أقتل أدوائه داء انقسام أهله و تشتت آرائهم، و اختلافهم على الاتحاد، و اتحادهم على الاختلاف. فعمدت على توحيد كلمتهم و تنبيههم للخطر الغربي المحدق بهم ». أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث ص: 106.

في هدوء إلى الانحلال، بينما أخذ الاستعمار يستقر على أرضه »[1].و قد هاله هذا الوضع الذي آل إليه العالم العربي و الإسلامي، فأخذ يفكر فيه و يشخص داءه و يتحرى دواءه، فانتهى من تشخيص الداء إلى نتيجة هي أنه داء نفسي و فكري[2]، و انتهى من تحري الدواء إلى نتيجة هي أنه يكمن في نشر الوعي و الثقافة. فعقد العزم بعد ذلك و شرع على الفور في إلقاء دروس نظامية و أخرى عامة و كان « يريد في درسه النظامي توسيع عقول الطلبة و تفتيح آفاق جديدة في فهم العالم، و تعليم الحرية في البحث، و إيجاد شخصيات من الطلبة تبحث و تنقد و تحكم... و يريد في درسه العام أن يتحرر الشعب من العبودية للحكام، و يفهموا موقفهم من الحاكم، و موقف الحاكم منهم. كل يعرف حدوده و يؤدي واجبه ... يريد تكوين رأي عام واسع الثقافة قوي هازم، يفهم الأمور الداخلية و الخارجية... و يريد في السياسة أن يقتنع الشعب بحقه في الحكم؛ فإذا فهم ذلك... طالب بالمجلس السياسي، فيعطاه بناء على فهمه و طلبه و قدرته، لا على أنه منحة تمنح له فإذا أعطيه بجهده كان أجدر بالمحافظة عليه و حرص عليه حرصه على دمه، فاستقر و ثبت و لم تستطع سلطة ما أن تلغيه أو تهمله »[3].

و على الرغم من الجهود التي بذلها في كل مكان حل به، و القلق الذي بعثه في النفوس، و أهمية الأهداف التي كان يرمي من وراء كل ذلك إلى تحقيقها[4]؛ فإن دوره « لم يكن دور مفكر يتعمق المشكلات لينضج حلولها [لأن] مزاجه الحاد لم يكن ليسمح له بذلك »[5] و هذه الملاحظة؛ هي نفس الملاحظة التي أبداها صاحب " إنسانية الإسلام" على دور السيد جمال الدين الأفغاني بوصفه رائدا للإصلاح حين قال عنه « يبدو أن تعابيره كانت تتنوع كأفكاره تبعا للجمهور الذي يخاطبه. و كان لنشاطه، و كثيرا ما كان انفعاليا و عفويا، تأثير روحي هام على الجماهير الإسلامية... [غير أنه] لم يضع

---

[1] مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 44.

[2] انظر أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث ص: 59.

[3] المرجع السابق ص: 74-75.

[4] كان على رأس هذه الأهداف تقويض دعائم نظم الحكم الموجودة آنذاك في العالم الإسلامي و العربي و إعادة بناء نظام سياسي برلماني على أساس الأخوة الإسلامية. كما كان أيضا على رأس هذه الأهداف مكافحة المذهب المادي الذي أخذ آنذاك ينتشر في البلاد الإسلامي. انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 44.

[5] نفس المصدر ص: 45.

[لذلك النشاط] مذهبا حقيقيا متماسكا »[1].

و بالإضافة إلى حدة مزاج السيد جمال الدين الأفغاني، و عفوية نشاطه و ارتجال مواقفه[2] فإن ثقافته النادرة لم تكن سوى وسيلة جدلية ثم تحولت إلى وسيلة لنشاط ثوري كان له أهمية سياسية في ذلك الوقت، حين كان العالم الإسلامي غارقا في جمود شامل.

و كان من فائدة هذا النشاط على العالم العربي و الإسلامي أنه فجر المأساة الإسلامية في الضمير المسلم ذاته[3].

بيد « أن استيقاظ هذا الضمير بما احتوى من مأساة، لم يكن جزءا من خطة منهجية وضعها جمال الدين، فإن كتاباته القليلة التي تميزت بالجدل ضد الطبيعيين... لا يثبت شيئا من هذا »[4]، و ما يجب التنبيه إليه هنا، هو؛ أن هذا النقد الذي وجهه مالك بن نبي إلى السيد جمال الدين المصلح، لم يكن للتقليل من أهمية الدور الذي قام به، إذ يكفي أنه اعتبره أول مصلح فجر المأساة الإسلامية في الضمير و أيقظ النائمين[5]، و لكن الذي أخذه عليه هو أنه، و إن كان قد « أدرك ... بصادق فطنته ما أصاب مجتمعه من عفونة و فساد »[6]، إلا أنه و بدافع من الدوافع التي ولدتها اليقظة الفجائية، عند الشعوب الإسلامية عامة و عند رجال الإصلاح و رجال التحديث خاصة، لم يجد الفرصة الكافية كي يفكر في الأسباب الداخلية للمأساة الإسلامية تفكيرا عميقا، و يشخص مشكلاتها الاجتماعية، ابتداء من مشكلة الإنسان الذي صاغه عصر ما بعد الموحدين تشخيصا صحيحا، لذلك فإنه لم ينظر إلى هذه المأساة إلا نظرة سياسية[7] فجاهد لإعادة التنظيم السياسي للعالم الإسلامي، قاصدا أنه تنظيم جموع الشعب

---

[1] مارسيل بوازار ص: 306-307.

[2] انظر أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث ص: 81-96-98.

[3] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 45.

[4] نفس المصدر ص: 45.

[5] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 24.

[6] المصدر السابق ص: 46.

[7] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 45.

و إصلاح القوانين[1]، و كان بهذه النظرة يعتقد « أنه بدلا من أن ينصرف إلى دراسة العوامل الداخلية التي أدت إلى هذا الوضع، يستطيع أن يقضي عليه، بالقضاء على ما يحيط به من نظم و قوانين »[2] فكان بتلك النظرة أن أخطأ الهدف الذي ثار من أجله، و جاهد في كل مكان لبذر البذور المحققة له.

و إذا كان الهدف من الثورة التي أعلنها على تلك النظم و القوانين هو تقويض أركانها من الأسس التي قامت عليها ثم إعادة بنائها من جديد على أساس مبدأ الأخوة الإسلامية؛ فإن هذه الأخوة التي سعى إليها سعيا حثيثا، لم تتحقق في المجتمع الإسلامي الأول إلا بعد مراحل قطعتها الثورة الإسلامية لتغير ما بالإنسان من أوضاع نفسية و فكرية و وجدانية تغيرا جذريا[3] و من ثم « ربما كان [رأي السيد جمال الدين صادقا] لو أنه أدى إلى [تلك] الثورة [نفسها لأن] الثورات تخلق قيما اجتماعية جديدة صالحة لتغيير الإنسان بيد أن السيد جمال الدين لم يحسن تشخيص الدافع إلى تلك الثورة، و ما كان لثورة إسلامية أن تكون ذات أثر خلاق إلا إذا كانت على أساس" المؤاخاة" بين المسلمين لا على أساس الأخوة الإسلامية »[4].

إن مشكلة الإنسان سواء في عهد السيد جمال الدين الأفغاني أو بعده ليست فيما يحيط به من نظم و قوانين؛ لأن هذه النظم المستبدة و القوانين ألف مرة، ما هي إلا أعراض[5] لما كان يعاني منه هذا الإنسان، و إن كانت و لا تزال في العوامل الإنسانية المتمثلة في عجز الإنسان آنذاك و الآن عن تطبيق مواهبه الخاصة على التراب و الوقت[6] أولا ثم إيجاد صيغة للنظام ثانيا.

---

[1] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 45.

[2] المصدر نفسه ص: 46.

[3] انظر عبد الله شريط: الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الطبعة الأولى لسنة: 1975م، ص: 230-231.

[4] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 46. و انظر مالك بن نبي: بين الرشاد و التيه، موضوع: تغيير الإنسان ص: 49-54.

[5] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 45.

[6] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 31.

و لو تأمل السيد جمال الدين الأفغاني النموذج الاجتماعي البائس و المنظر الإنساني الساكن، و حاول استقصاء العوامل الإنسانية التي أوجدتهما[1] لكان قد أدرك أن علاج هذه العوامل، ليس من اختصاص مهندس الاجتماع و إنما هي من اختصاص عالم الحياة الاجتماعي[2]، الذي يحيي النفوس، و ينبه العقول، لأن الإنسان « في المجتمع الإسلامي [آنذاك كان] عاجزا عن التقدم، و التخلي عما تعارف عليه الناس، عاجزا عن اجتياز مراحل تاريخية جديدة، عاجزا عن ابتكار المعاني و الأشياء الجديدة و تمثلها »[3]. و لكان قد توصل من ذلك إلى أن هذه المشكلة لم تكن لتحل حلا جذريا بتغيير الأنظمة و إصلاح القوانين الجائرة.

و على فرض أن السيد جمال الدين الأفغاني، كان قد تأمل و أدرك، و لكنه تعمد اختصار الطريق الطويل الذي كان الإمام محمد عبده يريد أن يسلكه إلى التغيير و الإصلاح[4]. فهل كان الإصلاح السطحي، سيغير الدوافع النفسية الخاملة و العادات الفكرية المتوارثة و اللامبالاة من المشكلات الاجتماعية السائدة[5] ؟؟ اعتقد أن السيد جمال الدين الأفغاني لم يتأمل هذه المشكلة باعتبارها معادلة اجتماعية، و لم يفكر في جذور تاريخ تكوّنها تفكيرا عميقا لينضج لها حلولا على الأمدين: القريب و البعيد، و إنما كان ككل المصلحين و المجددين الذين عاصروه و الذين جاءوا بعده يخضع في رؤية طرحه لها، للعادات الفكرية المتوارثة، تلك التي تجعل الإنسان يرى العلاج النافع في وضع النقيض أمام الداء[6] فقرر طبقا لهذه العادة أن الأخوة[7] الإسلامية هي العلاج النافع للتمزق الذي كان يعيشه المسلمون، و أن الشورى[8] هي العلاج النافع للاستبداد الذي كان سائدا دون قيد أو شرط.

---

[1] انظر مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر ، دمشق-سوريا ص: 70-87.

[2] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد ص: 15-23، و انظر: فكرة الأفريقية الآسيوية... ص: 123-125.

[3] مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 29.

[4] انظر أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث ص: 81.

[5] انظر مالك بن نبي: تأملات ص: 182-183-192-193-194.

[6] انظر مالك بن نبي: تأملات ص: 191-192.

[7] انظر مهدي فضل الله: آراء نقدية في مشكلات الدين و الفلسفة و المنطق ص: 44-45.

[8] انظر علي محمد لاغا: الشورى و الديمقراطية. المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع – بيروت- لبنان- الطبعة الأولى لسنة 1982م ص: 85-87.

و لقد أكدت الظروف التي كان يعيش فيها الفرد المسلم للشيخ الإمام خاصة بعد ثورة عرابي أن تغيير ما بالأنفس – و هو مسألة جوهرية في المأساة الإسلامية[1]– لا يمكن إحداثه بتغيير الأنظمة الحاكمة و إصلاح القوانين و لا يمكن أن يتم في الجيل المعاصر له، لأنه « خبّر الناس في حوادث عرابي ورأى غدرهم، وقلة وفائهم، و تكالبهم على مصالحهم الشخصية[2] »، بل إن خبرته بالناس أثناء هذه الحوادث عززت لديه وجهة نظره التي كان يخفيها قبل الثورة العرابية في نفسه، فيما يتعلق بأسلوب الإصلاح و التغيير،

و لم يبدها أمام أحد، خاصة أمام أستاذه الأفغاني و لذلك فإنه بعد هذه الثورة « أشار على السيد جمال الدين أن يذهبا إلى مكان بعيد غير خاضع لسلطان دولة تعرقل سيرها، ثم ينشئان فيه مدرسة[3] للزعماء يختاران لها التلاميذ من نجباء الناشئين من الأقطار الإسلامية و يعدانهم للزعامة و الإصلاح »[4].

و ليست هذه الإشارة في اعتقادي إلا تعبيرا عن رأي الشيخ الإمام في المنهج الذي كان قد ارتضاه لنفسه في عملية التغيير و الإصلاح، و تحقيق نهضة شاملة في العالم العربي و الإسلامي، و مما يؤكد هذا الاعتقاد ما جاء في قوله: « إني وهبت نفسي لإصلاح العقيدة الإسلامية و تنقيتها مما علق بها من الخرافات و الأوهام »[5]، لأنه كان يرى « أن ضعف المسلمين سببه سوء العقيدة و الجهل بأصول الدين، و أن ذلك أضاع أخلاقهم و أفسدها، و أن العلاج الوحيد هو إصلاح التعليم الديني و قد رسم لذلك خططه»[6] منطلقا من إصلاح علم الكلام، و لكن هل يصلح في نظر مالك بن نبي هذا المنطلق لتغيير ما بالأنفس؟؟ أو بتعبير آخر هل كان هذا المنطلق الذي انطلق منه الإمام صالحا لتغيير الأنفس؟؟ و جوابه هو أن « علم الكلام لا يتصل في الواقع بمشكلة النفس إلا في ميدان العقيدة...و المسلم حتى مسلم ما بعد الموحدين، لم يتخل مطلقا عن

---

[1] انظر مالك بن نبي: في مهب المعركة، دار الفكر – الجزائر، دار الفكر – دمشق– سوريا الطبعة الأولى لسنة 1991 ص: 150، 151.

[2] أحمد أمين: زعماء الإصلاح ص: 81.

[3] نفس المرجع ص: 206–208.

[4] نفس المرجع ص: 81.

[5] المرجع السابق ص: 327.

[6] المرجع السابق ص: 309.

عقيدته، فلقد ظل مؤمنا... متدينا، و لكن عقيدته تجردت من فاعليتها؛ لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي فأصبحت حزبية فردية، و صار الإيمان إيمان فرد متحلل من صلاته بوسطه الاجتماعي[1] » و بالتالي فليس الإيمان بالله هو الذي كان يفتقر إليه الإنسان المسلم، و إنما كان يفتقر فن توظيف هذا الإيمان في الحياة الاجتماعية.

« و عليه فليست المشكلة [سواء في ذلك الوقت أو في هذا] أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها، و إنما المهم أن نردّ إلى هذه العقيدة فاعليتها و قوتها الإيجابية و تأثيرها الاجتماعي »[2].

و من هنا فإن مشكلة تغيير ما بالأنفس من أوهام و خرافات من ناحية و رد الفاعلية و القوة الإيجابية و التأثير الاجتماعي للعقيدة الإسلامية من ناحية أخرى لا يمكن تحقيقه عن طريق إصلاح علم الكلام، و لكن هل كان هذا المنطلق في نظر مالك بن نبي يصلح لتغيير ما بالأنفس؟؟ أو بتعبير آخر هل كان هذا المنهج الذي تبناه الإمام صالحا لتغيير ما بالأنفس؟؟ و جوابه عند مالك بن نبي هو أن « علم الكلام يمجد الجدل و تبادل الآراء و هو في الوقت ذاته يشوه المشكلة الإسلامية و يفسد طبيعتها، حين يغير المبدأ السلفي في عقول المصلحين أنفسهم »[3].

و إذا كانت الأفكار الإلحادية الغربية[4] التي أخذت تنتشر في العالم العربي و الإسلامي آنذاك هي أيضا من جملة الأسباب التي ألجأت الشيخ الإمام إلى تبني هذا المنهج، قصد مقاومتها به؛ فإنه كان بذلك قد وقع في مناقضة لاشعورية[5] حين وضع « في مكان المشكلة النفسية في النهضة مشكلة كلامية [لأن] علم الكلام لا يواجه مشكلة الوظيفة الاجتماعية للدين [و] لأن المؤمن لا يفيد شيئا من مدرسة تعلمه مسألة

---

[1] مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 48.

[2] نفس المصدر ص:48.

[3] نفس المصدر ص: 49.

[4] انظر أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث ص: 77-81.

[5] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 49.

وجود الله فحسب، دون أن تلقنه مبادئ الرجوع للسلف »[1] الصالح. هذا بالإضافة إلى أن « تغيير النفس معناه إقدارها على أن تتجاوز وضعها المألوف، و ليس هذا من شأن علم الكلام، بل هو من شأن منهاج ... علم ... يمكن أن نسميه تجديد الصلة بالله »[2] و هو ما استطاع الإمام المرشد حسن البنا[3] أن يحققه في مصر و لو لم يغتل و تجهض الحركة الإسلامية التي كان قد أسسها هناك على أساس مبدأ المؤاخاة في مهدها لكان للعالم العربي و الإسلامي وضعا مختلفا عن وضعه الراهن.

و مما يأسف له مالك بن نبي أن هذا الخطأ المنهجي الذي وقع فيه الشيخ الإمام لم يلتفت إليه من تزعم المدرسة الإصلاحية من بعده « و ربما لم تكن هذه الاعتبارات لتخفى عن أعين القائمين على المدرسة الإصلاحية، لو أنها استطاعت أن تقوم بتركيب أفكارها، و تجميع عناصرها، بحيث توحد ما بين الأفكار الأصول التي ذهب إليها الشيخ محمد عبده، و بين الآراء السياسية و الاجتماعية التي نادى بها جمال الدين، الأمر الذي كان يؤدي حتما إلى طريق أفضل من مجرد إصلاح مبادئ العقيدة. فموسى و عيسى و محمد – صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين– لم يكونوا علماء كلام، ينطقون أفكارا مجردة، و لكنهم في الحق كانوا مجمعين لتلك الطاقة الأخلاقية التي أوصلوها إلى نفوس فطرية[4]».

و لكن رغم هذه المآخذ التي أحصاها مالك بن نبي على الشيخ محمد عبده و مدرسته، فإنه يعترف بأن « جزءً كبيرا مما حققه العالم الإسلامي و مما قدره، راجع إلى مجهود الشيخ عبده و مدرسته... فإذا كان الأزهري... لم يحدد تماما المشكلة في الضمير المسلم، فلقد بسطها على الأقل في ... مجال العقل ... فللمرة الأولى منذ قرون تمخض عقل مسلم عن عمل فكري، و للمرة الأولى دار نقاش فمزق الصمت الذي خيم على الجامعات الإسلامية القديمة حتى... أن الأزهر... بدأ يتناغم في روحه مع ما دار من نقاش أثاره جمال الدين و محمد عبده ... و هكذا بدأ الفكر الإسلامي ينشط في الحقل الفسيح الذي مهدته له حركة الإصلاح. لكن هذا الحقل الذي ظل بورا قرونا

---

[1] نفس المصدر ص: 49.

[2] نفس المصدر ص: 48.

[3] مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 145-148.

[4] المصدر نفسه ص: 48-49.

طويلة، كان قد أعشب بالنباتات الطفيلية في المجال الفكري، إن لم يكن في المجال الروحي، و لذلك كان من اللازم إزالة الأنقاض قبل البدء في عملية البناء »[1].

2- مشكلة رجال الحركة الحديثة:

بداية ينبغي أن نعرف، ما المقصود بالحركة الحديثة و ما هو هدفها في نظر مالك بن نبي و هدف الإنسان الأوربي من توجهه إلى بلدان العالم العربي و الإسلامي؟؟!

و للإجابة نقول: يقصد مالك بن نبي من إطلاق هذا العنوان: -الحركة الحديثة- على ما قام به بعض الرجال الرواد، من مثل الطهطاوي رفاعة رافع، و أحمد فارس الشدياق، و قاسم أمين، و يعقوب صروف، و فارس نمر، و جرجي زيدان، و شبلي الشميل، و فرح أنطوان، و طه حسين[2]، من نشاط ثقافي و سياسي، الإشارة إلى أصل و مضمون الأفكار التي استند إليها هؤلاء الرجال في رؤيتهم إلى النهضة، و في دعوتهم إلى تحديث العالم العربي اجتماعيا و سياسيا و ذلك لأن هؤلاء الرجال الرواد في هذه الحركة، كانوا قد تتلمذوا على يد أساتذة المدرسة الغربية الاستعمارية التي أنشئت في بلدان العالم العربي قصد تغريب شعوبها، كما أن بعضهم كان قد انتقل إلى بعض عواصم الغرب الاستعماري: -كلندن و باريس- ليكمل دراسته العليا في جامعاتها.

و فيما كانت مدرسة تيار الإصلاح تسعى لأن « تنشر -بحكم مشربها- فكرة إسلامية فتية »[3]، كانت مدرسة تيار التحديث تحاول « أن تدخل إلى الحياة الإسلامية عناصر ثقافة جديدة»[4]. و لئن كانت الأولى قد « تمكنت... من قطع الصلة بماضي ما بعد الموحدين، فإن الثانية [كانت و إلى حد ما] قد أحدثت اتصالا معينا

---

[1] مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 49 و 50.

[2] انظر علي المحافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة... دار الأهلية للنشر و التوزيع، لبنان -بيروت، الطبعة الثالثة لعام 1980م ص: 177، 178، 186، 191، 236-238.

[3] نفس المصدر ص: 57.

[4] المصدر السابق ص: 57.

بالفكرالغربي»[1]. و قد أخذ ذلك النوع من الاتصال الذي أحدثه خريجو مدرسة تيار التحديث بالفكر الغربي، يظهر تدريجيا من خلال تلك الموضوعات الجديدة التي بدأوا يثيرونها على مستوى الساحة الفكرية في العالم العربي، إذ كانوا في الميدان الاجتماعي قد أثاروا مشكلة المرأة و دعوا إلى تحريرها و تعليمها، و في الميدان السياسي كانوا قد طرحوا مسألة الحكم و دعوا إلى تغيير النظم و القوانين و إقامة حياة نيابية، و في الميدان الاقتصادي، كانوا قد دعوا لقضية العدالة الاجتماعية، و لكنهم اختلفوا في الرؤية إلى كيفية تحقيقها، ففريق من تيار هذه المدرسة دعا البلدان العربية إلى تبني المذهب الاشتراكي في سائر ميادين حياتها، و فريق دعاها إلى تبني المذهب الليبرالي و تطبيق أفكاره.

و لما كان هؤلاء الرواد حين عادوا من الغرب إلى بلدانهم –و أخذوا يثيرون تلك القضايا الفكرية الجديدة عليها، و يدعون شعوبها إلى العمل على تحقيقها– لا يزالون متأثرين بأفكار أساتذتهم من جهة و بالحياة الغربية الملمعة من جهة أخرى؛ فإنهم كانوا قد نسوا أن يذكروا أن قضية الحرية أو العدالة أو المساواة أو الأخوة أو الديمقراطية، باعتبارها قيما حضارية لم يدرسوها في أصولهم التاريخية و الثقافية[2]، و لم يتعرفوا عليها من خلال العامل و الصانع و الفنان و الطالب و الإداري و الفلاح و أنهم لم يفهموا بعد العلاقة التي تربط بين ماضي هذه القيم و بين حاضرها، حتى يدركوا كيف نشأت، و كيف أخذت تتبدل و تتغير بتبدل و تغير الإنسان الغربي في أفكاره و عاداته و تقاليده أو في إرادته و اتجاهه و كيف صارت بذلك جزء لا يتجزأ من ثقافته اليومية[3].

و هو الأمر الذي جعلهم في نظر مالك بن نبي يخفقون في دعوتهم التحديثية؛ لأن مصدر ثقافتهم الغربية كان إما الكتب و المحاضرات و إما وجه الحياة الغربية الملمع.

و ليعرفوا من جهة أخرى أن الانتقال بالإنسان العربي من لا نظام إلى النظام

---

[1] نفس المصدر ص: 57.

[2] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 94-96.

[3] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة، موضوع: المبدأ الأخلاقي و الذوق الجمالي في بناء الحضارة صك 106 و ما بعدها.

و من المطالبة بالحق إلى القيام بالواجب، و من اللاثقافة إلى الثقافة لا يمكن أن تحدثه الخطب المنبرية سواء كانت سياسية أو كانت دينية.

و على فرض أن هذه القيم الحضارية التي كانوا يدعون إليها كانت كافية لإقلاع العالم العربي و تحريكه و تحديثه على النموذج الغربي؛ فإن هؤلاء الرواد لم يقوموا بأية محاولة حتى على مستوى التفكير المجرد في خطة عمل تصلح لتجسيد[1] تلك القيم الحضارية التي كانوا يدعون إليها، و إنما اكتفوا باعتلاء منابر الخطب السياسية. و ذلك لأن فكرة النهضة بالعالمين: العربي و الإسلامي كانت منعدمة لديهم، لأنهم لم يخالطوا حياة هذا العالم أو ذاك إلا في الميدان السياسي[2].

و إذا كان رواد حركة التحديث قد أخفقوا في النهوض بالعالم العربي و الإسلامي على أساس من قيم الحضارة الغربية التي كانوا منبهرين بها، فذلك، لا يعود و من وجهة نظر مالك بن نبي إلى قصور في تلك القيم مما يجعلها عاجزة عن أن تكون عامل دفع للإنسان، و وسيلة له في الإصلاح و التغيير اللذين كانت تتطلبهما بيئته العربية و الإسلامية[3]. و إنما يعود إلى أن هذه القيم الحضارية حين نقلت إلى البيئة العربية الإسلامية –و بذلك تكون قد انفصلت عن روحها التي كانت تمدها بالحيوية– لم تصادف فيها ذلك المناخ النفسي العقلي الذي كانت تحيا فيه، حتى تستطيع أن تحدث فيها ما أحدثته في بيئتها الغربية التي تخلقت فيها. و هو ما يعني أن نظرة هؤلاء الرواد[4] إلى التحديث لم تكن قد أخذت في حسابها لا العمر الزمني و لا العمر النفسي، اللذين يفصلان في هذه الناحية بين العالم الغربي و بين العالم العربي و الإسلامي. و لو أنها كانت قد أخذت في نظرتها إلى تحديث العالم العربي و الإسلامي العمر الزمني و العمر النفسي لكانت قد انتقلت به خلال مرحلة قد لا

---

[1] انظر عبد المجيد عمر النجار: عوامل الشهود الحضاري، المجلد الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت– الطبعة الأولى ص: 47-51.

[2] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 64.

[3] مالك بن نبي: تأملات، موضوع: خواطر عن نهضتنا العربية ص: 175 و ما بعدها.

[4] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 64.

تطول كما كان شأن اليابان مع الحضارة الغربية من التقليد إلى الإبداع و التركيب[1].

و في هذه النقطة التي تمس جوهر النهضة العربية الإسلامية يلتقي رجال الحركة الحديثة برجال الإصلاح الديني[2]، إذ إن كلا منهما لم يلتفت لا إلى دراسة العوامل النفسية التي كانت تعوق حركة النهضة و تؤثر في سيرها و لا إلى دراسة العوامل الفكرية التي كانت تتجه بالنهضة إلى التكديس بدل البناء. الأمر الذي جعلهما يخفقان.

و مع ذلك يمكن القول: إن رجال الإصلاح الديني في طرحهم لمشكلة الإنسان المسلم، كانوا أقرب إلى الواقعية من رجال الحركة الحديثة، إذ إن طرحهم لهذه المشكلة من الزاوية العقدية أو السياسية و إن لم يستوف شروطه الذاتية و الموضوعية، فإنه كان في آنه و مآله يطمح لأن يعود بالإنسان المسلم إلى أصول و قيم الحضارة الإسلامية في إطار العصر، أما طرح رجال الحركة الحديثة لنفس المشكلة فكان أبعد عن الواقعية؛ لأنه من ناحية لم يكن ينظر إليها إلا من زاوية السياسة و النظم القانونية، و من ناحية أخرى لم يكن يعير أدنى اهتمام لأصالة الإنسان المسلم و هويته، بل كان يسعى بكل الوسائل شأنه في ذلك شأن الاستعمار نفسه إلى اجتثاث الإنسان المسلم من شريعته أولا و من عقيدته ثانيا، و قد فعل فلم يبق للشريعة من دور في الحياة إلا دور تقسيم التركة و لم يبق للعقيدة من دور إلا دور الشهادة.

و لهذا كانت دعوتهم إلى التحديث في نظر أحد الكتاب « دعوة منطبعة في عمومها بطابع السطحية و التعجل، ناشئة عن الانفعال الانبهاري بحضارة الغرب، و ترقيه في ظواهر أوضاعه من علوم و صناعات و أنظمة سياسية و اجتماعية، و هو الانبهار الذي حجب الخلفيات العقدية و الثقافية التي تصدر عنها تلك الظواهر [كما كانت] دعوى يحركها الشعور بالضعف من جهة، و الافتتان بالرقي الذي عليه أوربا من جهة أخرى، و ذانك الانفعالان العاطفيان حجبا الفكر التحرري عن أن يتجه أولا إلى وضع خطة منهجية تكون على أساسها الإفادة من الغرب، و تتبنى على أساس من

---

[1] مالك بن نبي: فكرة كمنويلث إسلامي ص: 21-38.

[2] انظر المصدر السابق ص: 64-65.

دراسة عميقة للترقي الغربي في مظاهره و أسبابه أيضا »[1]. هذا بالإضافة إلى أنه لما كانت نظرتهم إلى الحضارة الغربية خاضعة للقيود النفسية التي صنعت بيئة ما بعد الموحدين[2]؛ فإنها لم تمكنهم حين التحقوا بالمدرسة الغربية، من اكتشاف ثقافة حضارة، و إنما توقفت بهم عند درس لغة أجنبية أو تعلم حرفة[3].

و لكن « لا ينبغي أن نعزو هذا الاتجاه إلى عدم اكتراث المسلم بحضارة الغرب فحسب، بل إن المدرسة الاستعمارية قد ساهمت في خلق هذا الوضع، إذ لم تكن تهتم بنشر عناصر الثقافة الأوربية بقدر ما [كانت] تحرص على توزيع نفاياتها التي تحيل المستعمر عبدا للاقتصاد الأوربي »[4]. و لكي يظل العالم العربي و الإسلامي على تخلفه، فإن القائمين على شؤون المستعمرات بما فيها المدرسة كانوا يوجهون التلميذ المسلم إلى الشعب الأدبية و لم يكن « هذا التوجيه ... من محض الصدف، بل من أثر التوجيه العام للتعليم "الأهلي" ؛ لأن هذا التعليم ليس موجها في مبدئه لتكوين أطر [فنية] في الوطن أو إنشاء قيادة صناعية فيه [ف] هو لا يستهدف خلق نخبة مثقفة و إنما تكوين نواة من البرجوازيين صغار يحملون الشهادات[5] ».

و قد أصبح هذا التوجيه المتعمد، حقيقة جسدتها تلك البعثات الطلابية التي التحقت بالجامعات الغربية، لمواصلة دراساتها العليا، فلم يكن يوجد فيها من كان يسعى إلى اكتساب ما يمكنه من إدراك العلاقة الحميمة بين المثال و الواقع أو بين النظرية و التطبيق. و إن كان فيها فقط أحد الطالبين: 1- الطالب المجتهد المنغمس « في الجانب التجريدي و النظري من الحضارة الغربية: منكبا على كتاب عاكفا هناك في مكتبة مرابطا من جهة أخرى في كلية، أي في كل مكان تتقطر فيه الحياة الغربية إلى خلاصتها العلمية مع عناصرها القاتلة أحيانا و المقتولة أحيانا أخرى»[6] 2- و الطالب

---

[1] عبد المجيد عمر النجار: تاريخ الإشهاد الحضاري، الجزء الثالث، دار الغرب الإسلامي- بيروت- الطبعة الأولى لسنة 1999م ص: 167-168.

[2] المصدر نفسه ص: 58- 59.

[3] مالك بن نبي: في مهب المعركة، دار الفكر الجزائر، دار الفكر دمشق، سوريا، الطبعة الأولى لسنة: 1991م ص: 43.

[2] نفس المصدر ص: 149.

[4] نفس المصدر ص: 149.

[5] نفس المصدر ص: 149.

« السائح المهتم... بالجانب التافه و التائه من الحياة الغربية: في مقهى أو في مرقص أي في كل مكان تتحلل فيه الحضارة و تنتهي فيه إلى مخلفاتها القتالة»[1] فلما عادت هذه البعثات إلى العالم العربي و الإسلامي عادت إليه بشهادات وراءها مضمون فكري و أخلاقي لا يمت إلى مبادئه و قيمه الأصلية بصلة[2].

و إنه لأمر طبيعي، أن يظل الإنسان الغربي عامة، و ذلك الذي أسندت إليه بلاده مهمة إدارة و تسيير شؤون مستعمراتها، خاصة، ساهرا على رعاية توجيه التعليم الأهلي لأبناء المستعمرات؛ لأن إرادته منذ أن عقد العزم على التوجه إلى البلاد "الأفرسيوية"، لم تكن تحركها –و لا تزال– فكرة توسع امبراطورية، هذه الفكرة جعلته يتخذ من توجيه التعليم وسيلة لإحكام سيطرته على شعوب هذا الجزء من العالم من جهة، و لنهب خيراتها و إبقائها على جمودها و تخلفها الأدبي و المادي من جهة أخرى[3].

و هو و إن كان منذ أن نزل ببلاد العالم الإسلامي، قد أخذ يحدث تغييرا جذريا –دون قصد– في عادات و تقاليد و أذواق شعوبها، حين ألجأها إلى العمل الشاق فيما كانت تتطلبه إقامته الطويلة في هذه البلدان: كاستصلاح الأراضي و الحرث و الغرس و إنشاء خطوط السكك الحديدية، و شق الطرق، و بناء السدود و المدن و القرى[4]، إلا أنه كان يحرص في تلك الأعمال الشاقة التي غيرت الإنسان و المنظر الطبيعي من حوله على ألا يمتد أثرها إلى النموذج الاجتماعي المحروم من كل الضمانات، إلا في امتداد أثرها إليه خطر عليه و على مستقبله في هذه البلاد[5].

و يفهم من ذلك أن الاستعمار –بتركيزه على التعليم الأهلي في البلاد المستعمرة، و على توجيهه توجيها يتفق و أهدافه الاستعمارية –كان يدرك، أن خوض معركته بسلاح الأفكار أنجع في التأثير على هذه الشعوب و أضمن لانتصاره عليها، من خوضها بسلاح البندقية، لذلك؛ فإنه اتخذ من المعلم و الأستاذ و الكتاب و المجلة

---

[1] المصدر نفسه ص: 149.

[2] انظر مالك بن نبي: بين الرشاد و التيه ص: 121، 122.

[3] انظر مالك بن نبي: المصدر نفسه، موضوع: العوامل الخارجية ص: 99–108.

[4] انظر أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث ص: 338.

[5] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، موضوع: فوضى العالم الغربي ص: 109–128.

و الصحيفة همزة وصل و تأثير على أبناء المستعمرات من ناحية و أداءه تلقين لما كان يرغب في نشره من أفكار بينها من ناحية أخرى[1].

و لم يكن في عملية التأثير و التلقين يعتمد على الأمثلة التي يستقيها من حياة بلاده المتطورة أدبيا و ماديا فحسب، بل كان يعمد إلى واقع البلاد الإسلامية المتخلف، فيتخذ منه مثالا و يشرع من خلاله و من خلال واقع بلاده في المقارنة بين فاعلية أفكار حضارته و بين أصالة الفكرة الإسلامية[2]، و ذلك قصد تشكيك الإنسان المسلم في صلاحية فكرته الإسلامية للنهوض به و مسايرة الحياة المتطورة[3].

و كان يخلص من هذه المقارنة بين مصطلح "الفاعلية" و بين مصطلح "الأصالة" -مع أنه يعرف أن لا مجال للمقارنة بين المصطلحين -إلى نتيجة تكون أحيانا بمثابة التوجيه المباشر للإنسان المسلم و تكون في معظم الأحيان بمثابة التوجيه غير المباشر؛ لأنه غالبا ما كان يأتي في صيغة نصيحة، هي أن على « الجماعة الإسلامية كي تتطور... أن تسير وفق المثل الغربية و تتفاعل معها في بيئتها الشرقية... إذ اتجاهات الغربيين في الفكر و في الحياة قامت على مجموعة من التجارب الإنسانية، استخدموا في تكوينها الطريقة العلمية، و هي الطريقة التي لا تتأثر بخرافة أو عقيدة خاصة، مستهدفة خير الإنسانية وحدها ... و إذا أراد المسلمون أخيرا أن يعيشوا في أوطانهم غير أذلاء فعليهم أن يطوروا دينهم و يغيروا فهمهم له... و طريق ذلك: أن يبعدوه عن الحكم و الدولة و السيادة العامة، و عن علاقة الأفراد بعضهم ببعض، و أن ينحوا عنه مظاهر القوة المادية و أسبابها كالجهاد... و أن ينحوا عنه مظهر العنصرية و الاستعلاء الذاتي المتمثل في عدم قبول ولاية غير المسلم على المسلم و في عدم زواج

---

[1] انظر مالك بن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، سوريا – دمشق، الفصل الثاني و الفصل الثالث.

[2] انظر مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص: 107-108.

[3] انظر المصدر السابق ص: 107، 129، 140، 141، 157، 158، و انظر القضايا الكبرى، موضوع: إنتاج المستشرقين و أثره في الفكر الإسلامي الحديث ص: 167 و ما بعدها. و انظر محمد محمد حسين: الإسلام و الحضارة الغربية، مؤسسة الرسالة -بيروت- الطبعة الخامسة لعام 1982م ص: 59.

المسلمة بغير المسلم، و أن ينحوا عنه... تأكيد الدفع إلى الحياة الحيوانية... المتمثل في إباحة تعدد الزوجات »[1].

و قد حدث الاستعمار عقول رجال الحركة الحديثة بهذه الأفكار و غيرها من الأفكار المعادية للدين الإسلامي في ظرف كان فيه« الضمير الإسلامي في أسوأ شروطه [إذا كانت أوربا ترجح] قيم الفعالية على قيم الأصالة في أسلوبها الاستعماري »[2].و لقد كان من السهل على الإنسان الغربي أن يستحوذ على عقول رجال الحركة الحديثة بهذه الأفكار أو بغيرها من الأفكار المعادية للإسلام و المسلمين، ففي ذلك الظرف التاريخي الذي كانت فيه أوربا ترجح قيم الفعالية على قيم الأصالة في أسلوبها الاستعماري كان الضمير الإسلامي في أسوأ شروطه. و حين نضع في عين الاعتبار المستوى النفسي الفكري الذي كان فيه العالم العربي و الإسلامي[3] و نقيسه بالمستوى النفسي الفكري الذي كان قد بلغه العالم الغربي آنذاك؛ ندرك لماذا انبهر رجال الحركة الحديثة بمظاهر الحياة في العواصم الغربية ؟ و لماذا لم يحاولوا القيام بملاحظات على ما يسود هذه الحياة من أسباب القوة و من أسباب الضعف ؟ و لماذا لم يتمكنوا من إجراء عملية تصفية و انتقاء للمظاهر التي كانوا يرونها و للأفكار التي كانوا يقرأونها في الكتب الغربية أو ينقلونها مباشرة من أساتذتهم عن الحضارة الغربية ؟

لأنه حينما ننظر إلى هذه القضية من ناحية المستوى النفسي الفكري الذي كان عليه الإنسان في العالم العربي و الإسلامي و نقيسه بالمستوى النفسي الفكري الذي كان قد بلغه الإنسان في العالم الغربي آنذاك ندرك لماذا انبهر رجال الحركة الحديثة بمظاهر الحياة في العواصم الغربية؟

و لماذا لم ينظروا إلى هذه الحياة في مظاهرها المختلفة بعين البصير ليدركوا ما كانت تنطوي عليه من أسباب القوة و ما كان يعتورها من عوامل الضعف؟

---

[1] محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث و صلته بالاستعمار الغربي، دار الفكر بيروت لبنان – الطبعة السادسة لعام 1973م ص: 219، 220.

[2] انظر مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص: 107.

[3] انظر مالك بن نبي: فكرة كمنويلث إسلامي موضوع: الفكرة في المجتمع الإسلامي، اللافعالية في المجتمع الإسلامي ص: 50-64 و انظر من أجل التغيير موضوع: الأسباب الصغرى و المسببات الكبرى ص: 106-114.

و بالتالي لماذا لم يتمكنوا من إجراء عملية تصفية و انتقاء للمظاهر التي كانوا يرونها و للأفكار التي كانوا يقرأونها في الكتب أو يتلقونها مباشرة من أساتذتهم عن الحضارة الغربية؟

و لذلك فإنهم أخذوا المظاهر على أنها هي الأسلوب الأمثل للحياة، و أخذوا الأفكار على أنها القول الفصل الذي لا يقبل الاستئناف أو النقض في التحديث على النموذج الغربي، ثم راحوا يروجون لها بواسطة الكتاب و المدرسة و الصحافة في العالم العربي و الإسلامي مستدلين على نجاعتها و صلاحيتها بالحياة الغربية.

و لهذا يمكن القول إن توجيه المدرسة الغربية لرجال الحركة الحديثة لم يصرفهم عن التفكير في الأفكار الغربية و عن دراسة واقعهم العربي و الإسلامي و مدى ملاءمة هذه الأفكار أو عدم ملاءمتها له؛ فحسب، بل رسخ « في أذهانهم صورة مثالية من الحياة هو الكفيل بإحداث التحضر و التقدم فيه، و هو نمط الحياة الغربية الذي يحدث بالفعل التحضر في بلاد الغرب و ينميه و يتقدم به. و قد تطورت هذه الصورة المثالية من فكرة معرفية إلى صفة منهجية في التفكير و السلوك و ذلك بأن [أصبحوا] يصدرون في كل نظر إلى الواقع الإسلامي بقصد تغييره و دفعه إلى النهوض عن تصورهم لمثالية الحياة الغربية، فإذا هم يصوغون صورا لإصلاح برامجه من تلك الحياة المثالية و يسعون إلى تنزيلها على واقع المسلمين لإنهاضه صرفا للنظر عن معوقات ذلك الواقع و عناصره المحكومة بخصائص ذاتية متأتية من خصوصيات ثقافية و اجتماعية »[1]، بل إنهم و تحت تأثير هذا التوجيه أصبحوا يرون في تلك الخصوصيات عائقا في طريق بلدانهم إلى التحديث، لذلك سارعوا إلى العمل على استبدالها أو على الأقل تمييعها ما دام طريق العالم العربي و الإسلامي إلى التحضر و الحضارة هو في « أن يقبل بكل شيء يفد إليه من الغرب و يرفض كل موروثه الثقافي و الاجتماعي و الحضاري »[2].

---

[1] عبد المجيد عمر النجار: عوامل الشهود الحضاري ص: 47.

[2] محمد محفوظ: الإسلام، الغرب و حوار المستقبل المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء– المغرب– الطبعة الأولى لعام 1998م ص: 18.

و لكن إذا كان الهدف الأساسي من مقولات التحديث، من وجهة نظر هؤلاء الرواد، هو إحداث تغيير شامل في مظاهر الحياة في البلاد العربية و الإسلامية على الطريقة الغربية، و لم يكن هدفهم هذا منذ شروعهم في تنفيذ مفرداته قد أخذ يتحقق في مبادئ الحياة؛ فإن السؤال الذي يفرض نفسه على كل من يثير هذه القضية أو يتناولها هو لماذا لم يراجع هؤلاء الرواد سائر مفردات مشروعهم النهضوي في ضوء رؤية تربط بينهما و بين نتائجها الميدانية، كما راجع قادة الاتحاد السوفييتي بعد ثورة 1917م سياسة الاستثمار المالي، و ألغوا سائر القروض الأجنبية[1]. و لماذا لم يجعلوا من مظاهر الحياة خاصة السلبية منطلقا للقيام بدراسة ميدانية معمقة[2]، ليس من أجل تحديد العوامل الخاصة التي تقف وراء المشاكل المحلية التي تخص كل بلد من البلدان العربية و الإسلامية و إنما من أجل تحديد العوامل الخاصة التي تقف وراء المشاكل المحلية التي تخص كل بلد من البلدان العربية و الإسلامية و إنما من أجل تحديد العوامل العامة التي تقف خلف المشكلة الإسلامية على طول محور طنجة-جاكرتا، و التي تحول بين بلدان هذا المحور و بين تمكنها من التوصل إلى إيجاد كيفيات تستطيع عند تطبيقها الإنقاص من مشاكل تخلفها الأدبي و المادي[3].

و هذا العمل الذي كان يجدر بأولئك الرواد أن يقوموا به، هو نفس العمل الذي كان ينبغي على من سار على نهجهم، أن يقوم به، لأن واقع شعوب بلدان العالم العربي و الإسلامي، الذي كان و لا يزال حقل تجارب مختلفة، ظل يؤكد أن طبيعة مشاكله الحضارية، لا تقبل اقتباس أو استنساخ حلولها الفنية من الحضارة الغربية[4]، ما لم تكيف هذه الحلول طبقا لمعادلة الإنسان المسلم الاجتماعية، لأنه إذا كانت الحلول الفنية التي ترغب في اقتباسها صالحة لمعالجة مشاكل بيئة حضارة نضجت فعلا و مضى

---

[1] انظر مالك بن نبي: بين الرشاد و التيه ص: 177، 193.

[2] انظر عبد المجيد عمر النجار: عوامل الشهود الحضاري ص: 47-57.

[3] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، الفصل الثالث: فوضى العالم الإسلامي الحديث، العوامل الداخلية و العوامل الخارجية ص: 69-108.

[4] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة موضوع: من البناء إلى التكوين ص: 44-51.

طور تكوينها[1] فلن تكون بالضرورة صالحة لمعالجة مشكلات بيئة لا تزال في عهد ما بعد الحضارة محاولة العودة إليها[2].

و مع أن مشكلة الشعوب العربية و الإسلامية لم تكن، في تلك الحقبة من تاريخها؛ مشكلة حركة مضطربة، كما كان الأمر بالنسبة للشعوب الغربية، و إنما كانت مشكلة جمود، جعلها تعجز عن التفكير في استخدام وسائلها الأولية، و عن العمل في تغيير أوضاعها الاجتماعية المختلفة[3]؛ إلا أن رجال الحركة الحديثة اعتقدوا أنهم باتخاذهم للحلول الفنية -التي تأكدت صلاحيتها في الغرب- وسيلة لإصلاح الأوضاع الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية في بلدانهم يستطيعون تغيير الإنسان و تحديث الأوضاع على الطريقة الغربية، و لكنهم عجزوا عن أن يجعلوا منها وسيلة لهم في ذلك. ليس لأن كل ما أنتجته الحضارة الغربية من أفكار و من أنماط تطبيقية و من أشياء، لم يكن صالحا، لأن يستغل و يستخدم في عملية كهذه مثلما استغلته و استخدمته اليابان ثم الصين، و إنما لأن هؤلاء الرواد لم يكونوا يمتلكون « نظرية محددة .. في أهدافها و.. وسائلها»[4] حتى يتمكنوا من إعداد برنامج لتحديث بلدانهم وفق ما يناسب أصالتها و أوضاعها من أفكار و أشياء الحضارة الغربية[5].

و لم يكن من الممكن لرجال التحديث السياسي و الاجتماعي أن يجعلوا من أفكار و أشياء الحضارة الغربية وسيلة للنهوض بشعوب بلدانهم، مع افتقار طرحهم لمشكلاتها الحضارية إلى شمولية النظرة و عمق التفكير، إذ كانت نظرتهم مختزلة في المشكلة الدينية السياسية، و كان تفكيرهم فيما أبدعته الحضارة الغربية من أفكار و أشياء

---

[1] انظر مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية... ص: 78-87.

[2] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد موضوع: المعادلة البيولوجية و المعادلة الاجتماعية للفرد في التجارب الحديثة ص: 90 و ما بعدها.

[3] انظر المصدر السابق موضوع: الأسس الحضارية لعالم الاقتصاد ص: 59-64. و انظر شروط النهضة ص: 81. و انظر وجهة العالم الإسلامي ص: 31.

[4] مالك بن نبي : وجهة العلم الإسلامي، ص:65.

[5] انظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى موضوع إنتاج المستشرقين و أثره في الفكر الإسلامي الحديث ص:170-175. وانظر عبد المجيد عمر النجار : مشاريع الإشهاد الحضاري ص:167.

قاصرا عن أن يمتد إلى كيفية نشأتها و تركيبها و كيفية تطورها عبر مراحل تاريخية حتى أصبحت كما هائلا من الإمكان الحضاري[1].

كما أنه لم يكن في استطاعة رجال الإصلاح الديني أن يجعلوا من الفكرة الإسلامية و من أجنتها الاجتماعية وسيلة لتركيب عالم الأشخاص مع افتقار طرحهم لمشكلات الإنسان الحضارية إلى توحيد الرؤية، و منطق العمل، و منهجية التوجيه[2]، إذ كان كل واحد منهم ينظر إليها من زاوية معينة، و يعمل جاهدا من أجل حلها و لكن دون تنسيق مع الآخرين، إضافة إلى أن العمل الإصلاحي بوجه عام كان يجهل الكيفيات التي تربط بينه و بين وسائله و مقاصده، و مع أن الفضل في يقظة الشعوب الإسلامية و نهضتها يعود إلى ذلك العمل الإصلاحي، إلا أن رواده لم يعرفوا كيف يوحدوا الجهود و يكتلوا الطاقات و يوجهوها نحو الحضارة[3].

---

[1] انظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى، موضوع: مشكلة الحضارة ص: 29-63.

[2] انظر مالك بن نبي: فكرة الإفريقية الآسيوية... موضوع: العالم الإسلامي و فكرة الأفرسيوية ص: 219-248.

[3] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة، موضوع: من التكديس إلى البناء ص: 44-57.

الفصل الثاني: مشكلة التراب الطبيعي و المحول، و شروط كيفية استغلاله في العملية الاجتماعية:

يعد الإقليم بتعبير رجال القانون و السياسة أو الخريطة الجغرافية بتعبير الرحالة المستكشفين في نظر مالك بن نبي ثاني عنصر أساسي من العناصر التي تتركب منها الحضارة، وقد أطلق عليه في كتابه "شروط النهضة "[1] متعمدا اسم التراب، إذ منه « كل شيء على الأرض و في باطنها. و معنى التراب هنا ليس هو المعنى المتبادر إلى الذهن* فقد تعمدت ألا أستخدم كلمة مادة لأسباب فقلت التراب، لأن التراب يتصل به الإنسان بصورتين: صورة الملكية أي من حيث تشريع الملكية في المجتمع الذي يحقق للفرد الضمانات الاجتماعية... و هو يتصل به في صورة أخرى من ناحية علم التراب و المعلومات التي تتصل به كالكيمياء و غيرها، فالتراب نعني به هذين الجانبين: جانب التشريع و جانب السيطرة الفنية و الاستخدام الفني، فالتراب بهذا المعنى يدخل في عناصر هذه الورقة »[2] و غيرها من منتجات الحضارة كالإبرة و الصاروخ.

و لقد بدأ اهتمام مالك بن نبي بعنصر التراب مبكرا، إذ وجد نفسه مهتما بهذا العنصر- باعتباره شرطا من شروط تحقيق نهضة، و أساسا من الأسس التي تنبني عليها الحضارة و تتركب- منذ أن بدأ يتخطى مرحلة التمييز التي تفصل ما بين الطفولة و الشباب، و هذا الاهتمام قاده إلى إجراء مقارنة بين حرص اليهود و الفرنسيين في كل من قسنطينة و سطيف و قالمة و عنابة على شراء الأراضي من مالكيها، و بين تخلي هؤلاء الجزائريين عن ملكيتها لليهودي أو الفرنسي نظير مقابل نقدي ينفقونه على الملذات الشخصية أو على حفلات الأعراس[3].

---

[1] يقول « حينما نتكلم عن التراب [فإننا] ... نتكلم عنه من حيث قيمته الاجتماعية، و هذه القيمة الاجتماعية للتراب مستمدة من قيمة مالكيه، فحيثما تكون قيمة الأمة مرتفعة و حضارتها متقدمة يكون التراب غالي القيمة و حيث تكون الأمة متخلفة... يكون التراب على قدرها من الانحطاط » ص: 139.

*لقد عبر محمد سعيد رمضان البوطي عن التراب بالكون و استبعد أن يكون مالك بن نبي قد قصد بالتراب الأرض وحدها. انظر منهج الحضارة الإنسانية. دار الفكر المعاصر بيروت-لبنان- الطبعة الثانية لعام 1998م ص: 20، 21.

[2] مالك بن نبي: تأملات ص: 170، 171.

[3] انظر مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن ص: 111، 112.

و لذلك و بعد أن اكتملت خبرته بالحياة السياسية و الاجتماعية باكتمال سن رشده عقد العزم على أن يبذر الخوف في نفوس أهل كل مكان يحل فيه، إذ قال[1] « كنت أشرح نظريتي للمضيف الذي يستقبلنا [في نواحي آفلو] و كانت تلك النظرية بسيطة: ينبغي أن تفلح أكبر قدر من المساحة حتى تنشئ حقك على الأرض ... حقك الاجتماعي، ذلك الحق الذي يخولك أن تكون المالك الشخصي لها. و إلا فالمستعمر سيأتي ليمثل الأرض التي بها خيمتك، و حينئذ أنت مضطر للرحيل من هنا؛ لأنك في نظر القانون لست مالكا للأرض ».

و هذا الاهتمام بعنصر التراب بعد الاهتمام بعنصر الإنسان الذي يلحظه القارئ في كتابات مالك بن نبي، قد أخذ يتزايد و يتطور عما كان عليه من قبل، و ذلك منذ أن رحل مالك بن نبي إلى فرنسا للدراسة، إذ أتاحت له إقامته هناك فرصة مخالطة الناس في المدينة و في الريف[2] بل « كانت الفرصة ثمينة جدا بالنسبة [له]؛ لأن من يعرف باريس فقط لا يعرف إلا فرنسا ذات الوجه الملمع المهيأ، الذي مر بكل عمليات التجميل... و هذه الحياة... المصطنعة لا تعطي صورة صحيحة عن الحضارة الفرنسية، و إنما توجد هذه الصورة بنماذجها الأصيلة و أصولها البعيدة في الريف في الطبيعة حيث تكونت صلة الإنسان بالتراب على مدى القرون »[3].

و المتصفح لكتابه "مذكرات شاهد القرن" يقف على نصوص كثيرة تدل دلالة قطعية على أن مالك بن نبي لم يرحل إلى فرنسا ابتغاء الحصول على شهادة علمية فحسب، و إنما رحل إليها من أجل أن يكتشف ثقافة حضارة، الأمر الذي جعله لا يكتفي بالمعلومات التي كانت مدونة عنها في الكتب و المحاضرات، و إنما اتخذ من حياة الإنسان الفرنسي في المدينة و الريف مصدر إلهام و استكشاف، فكان بذلك يعد من الطلاب القلائل الذين تتلمذوا على الحضارة الغربية في أصولها النظرية و التطبيقية معا.

---

[1] نفس المصدر ص: 183.

[2] انظر المصدر السابق ص: 269-272.

[3] المصدر السابق ص: 268.

و قد هاله أمر مستقبل العالم الإسلامي، حينما وجد اهتمام تلك البعثات الطلابية ي تعرف عليها في باريس، منحصرا إما في الجوانب التافهة من الحياة الغربية و إما ي الجوانب العلمية: النظرية أو التجريدية، و لم يجد فيها إلا القليل الذي كان يلتفت ى تلك الفضائل الدائمة التي كان يجسدها العامل و الفنان و العالم في واقع الحياة[1]؛ درك أن هذه البعثات، لن تستطيع حينما تعود إلى العالم الإسلامي و تتولى قيادة ؤونه السياسية و الفكرية، إحداث أي تغيير إيجابي في بلدانه، ما دامت، لا تلتفت إلى هذه الطاقات الخفية التي تجسد القيم الثقافية بكفاحها المتواصل ليل نهار، و أنها ستكون عاجزة -في غمرة هيمنة الثقافة الغربية على شؤون بلدانها- عن إحداث تفرقة جوهرية بين بناء حضارة إسلامية ابتداء من عناصرها الأساسية: الإنسان و التراب و الوقت، و بين تكديس منتجات حضارة[2].

كما أن إقامته في فرنسا مكنته من تسجيل ملاحظة قيمة ذات علاقة وطيدة بمشكلة التراب في البلدان العربية و الإسلامية، هذه الملاحظة هي أنه وجد الإنسان الأوربي عامة و الفرنسي خاصة يولي التراب اهتماما كبيرا، بينما لم يكن آنذاك الإنسان المسلم بوجه عام و الإنسان البدوي بوجه خاص يولي التراب أدنى اهتمام، فتبين له أن القيمة الاجتماعية للتراب لا يمكن أن تستمد إلا « من قيمة مالكيه، فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة و حضارتها متقدمة، يكون التراب غالي القيمة؛ و حيث تكون الأمة متخلفة... يكون التراب على قدرها من الانحطاط »[3]. و لما كان الإنسان المسلم ينتمي إلى خريطة العالم الإسلامي الذي كان قد خرج من الحضارة منذ سقوط الدولة الموحدية. و أخذ يتقهقر مرحلة بعد مرحلة إلى أن وصل إلى المرحلة الرعوية فإنه لم يكن بإمكانه أن يولي التراب أي اهتمام إذ إنه في غمرة قرون الانحطاط كان قد نسي تلك القيمة الاجتماعية التي كان أسلافه في بلاد العراق و الحجاز و مصر و الأندلس

---

[1] انظر مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص: 152 في مهب المعركة ص: 149-151 وجهة العالم الإسلامي ص: 61-63.

[2] انظر مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية ص: 78.

[3] مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 139.

يعطونها للتراب فلم يحاول معرفة الفنون التي لها صلة بسطحه أو بباطنه[1]. و لما كان الإنسان الأوربي ينتمي إلى خريطة عالم متحضر دفع به إلى غزو التراب الإسلامي و تقليب ظاهره و إخراج مكنونه، فإنه يمكن القول: إن موقع كل منهما من الحضارة هو الذي جعل أحدهما يجهل القيمة الاجتماعية للتراب و الآخر يعرفها.

و إذا كان الإنسان في الغرب أيا كان جنسه و مركزه الاجتماعي و مستواه التعليمي قد عرف منذ قرون القيمة الاجتماعية للتراب و أدرك أهميته الحيوية في ميادين الحياة بوجه عام و في ميدان الحياة الاقتصادية بوجه خاص[2]، فذلك لأن مفهومه خلال هذه القرون كان يتطور مع تطور الحياة الاقتصادية حتى صار عنصرا من عناصر الحضارة و جزء لا يتجزأ من ثقافة الإنسان العامة، شأنه في ذلك شأن مفهوم الزمن[3].

و لذلك و حتى يتمكن الإنسان المسلم تدريجيا من معرفة قيمة التراب في حياته الاجتماعية و في حياته الاقتصادية خاصة، و يدرك أهميته الحيوية فيما يطمح إليه كالسيادة الفعلية و الاستقلال الحقيقي فإنه يتعين على البلدان العربية و الإسلامية أن تسعى إلى إحداث ثورة ثقافية قصد تغيير كافة المفاهيم التي يتكون منها وسطها الثقافي الذي يعيش فيه مواطنوها كي تتغير معها العادات و التقاليد ذات الصلة بإرادته

و اتجاهه نحو التراب، إذ من شأن هذه الثورة إذا صاحبها توجيه سديد أن تقلب مفهوم التراب الذي هو الآن عند الإنسان المسلم مجرد مكان عادي يمكن إذا سنحت الفرصة استبداله بمكان آخر تتوافر فيه شروط الحياة إلى كونه مفهوما رمزيا لأصالته و انتمائه التاريخي و الحضاري[4].

و إذا كان الإسلام قد استطاع أن يغير الإنسان البدوي في إرادته و اتجاهه

---

[1] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 34-38.

[2] انظر مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن ص: 176، 183، 269، 270، 271، 272.

[3] انظر مالك بن نبي: فكرة الإفريقية الآسيوية، موضوع: مشكلة الرجل الأفرسيوي ص: 70-87. و انظر له مشكلة الثقافة ص: 36.

[4] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد ص: 59-64. و انظر له: بين الرشاد و التيه، الفصل الثاني ص: 37-69.

و يجعل منه « إنسانا متحضرا يشهد بحضارته ما خلف لنا من علم زراعي ناضج في إسبانيا و في جنوب فرنسا »[1]؛ فإن العلاقة العضوية التي كانت تربط بين إنسان الحضارة و بين الإسلام، و بينه و بين التراب، و العلوم التي لها صلة به، كانت قد انعدمت في وسط إنسان ما بعد الموحدين، الأمر الذي جعله يهمل التراب و يتركه على حالته الطبيعية طيلة قرون، حتى حل به الإنسان الغربي، و أخذ يقلب ظاهره و باطنه، فأحدث بذلك تغييرا جذريا في منظره.

و كان يتوقع من الإنسان المسلم أثناء العهد الاستعماري أن يعرف من خلال ارتباط الإنسان الغربي بالأرض طوال فصول السنة، قيمة التراب الاجتماعية و أهميته الحيوية، و يتعلم منه كل الفنون التي تمكنه من استغلال ظهره في الزراعة و التشجير، و من استخراج مذخوراته و تحويلها، و لكن يبدو أن ذلك لم يحدث، فالجزائر[2] على سبيل المثال، بعد أن نالت استقلالها، قامت بتأميم جميع ما على سطح ترابها و في باطنه و وضعت تحت تصرف مواطنيها جميع الإمكانات و الوسائل التي تساعدهم على إحداث نهضة زراعية و صناعية، و لكنها فشلت في تحقيق هذه الغاية، و ذلك لأن قيادتها لم تضع في حسابها مشكلة الإنسان، فهو لا يدخل مثل هذه العلمية الاجتماعية « بوصفه مادة خاما بل [يدخلها] في صورة معادلة شخصية صنعها التاريخ و أودع فيها خلاصة تجارب سابقة و عادات ثابتة تحدد موقف [ه] أمام المشكلات بما يكون هذا الموقف من القوة أو الوهن، من الاهتمام أو التهاون من الضبط أو عدم الضبط... »[3].

و فشل الدولة الجزائرية في عملية الثورة الزراعية و فيما أسمته من بعد بـــ « إعادة الهيكلة يؤكد صحة نظرية عالم الإحياء الاجتماعي للأخذ بها و التركيز عليها في بداية أي تجربة اجتماعية قبل الأخذ بنظرية المهندس الاجتماعي[4]، مما يعني أن مشروع إعادة الاعتبار للتراب بصفة عامة و للزراعة و التشجير بصفة خاصة بالمحافظة على ما هو صالح منه لها، و باستصلاح الأجزاء التي تغزوها رمال

---

[1] مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 37.

[2] في سنوات السبعينات من القرن المنصرم في عهد الرئيس الراحل هواري بومدين.

[3] مالك بن نبي: تأملات ص: 182.

[4] انظر مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية ... موضوع: مشكلة الحضارة ص: 123 و ما بعدها.

الصحراء و البحر بزحفها عليه و حماية البيئة، مما يهددها من ناحية الطبيعة و من ناحية الإنسان، كل ذلك يجب أن يعاد النظر فيه انطلاقا من العلاقة النسبية بين الإرادة الحضارية و الإمكان الحضاري[1].

و استنادا إلى هذه التجربة التي خاضتها الجزائر في ميدان الزراعة و الصناعة الضخمة و إلى غيرها من التجارب التي خاضتها بلدان عربية و إسلامية و فشلت فيها[2]، ينبغي أن تكون مشاريعنا النهضوية، مسبوقة بدراسة نفسية مسبوقة بدراسة نفسية اجتماعية للوسط الإنساني في العالم العربي و الإسلامي كي يتسنى لمن لهم سلطة اتخاذ القرار و للمخططين لها و للمشرفين على تنفيذها وضع هذه المشاريع في حدود إمكانيات البلد و في مستوى شروط التنفيذ.

ففي مرحلة الإقلاع الحضاري لا ينبغي في نظر مالك بن نبي[3] أن نبحث عن عوامله و شروطه خارج حدود دائرة ما نستطيع استغلاله و استثماره في هذه العملية بل ينبغي أن نبحث عنه في ثروتنا الطبيعية: الإنسان و التراب و الوقت[4]، لأن البحث عنها خارج ذلك، يجعلنا نزهد في وسائلنا و ستظل هذه الوسائل دون وسائل الغير الذي نعتمد عليه في تجهيزنا[5]، و بالتالي ستفوتنا هذه الحقيقة البديهية وهي: أن القيم الاقتصادية، مهما كانت درجة تعقدها، لا يمكن أن تنشأ و تتطور إلا من القيم الإنسانية[6]: اليد، العقل، العمل، عندما تحركها إرادة حضارية. فإذا فاتتنا هذه الحقيقة، كما فاتتنا من قبل، فسوف لن يكون طرحنا لأي مشكلة من مشكلات الحضارة طرحا عمليا قابلا للتنفيذ، ما دمنا نضع حلولها على مستوى أسسها منتجات حضارة، و ليس

---

[1] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد موضوع: الأسس الحضارية لعالم الاقتصاد ص: 59 و ما بعدها.

[2] انظر مالك بن نبي: بين الرشاد و التيه موضوع: شروط الإقلاع الاقتصادي، العمل و الاستثمار، اقتصاد القوت و التنمية نشتري أم نصنع ص: 169 و ما بعدها.

[3] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة موضوع: من التكديس إلى البناء ص: 44 و ما بعدها.

[4] إذ قال: « فقد صار من الضروري أن نضع أمامنا المشكلة بأكملها و أن نأخذ في اعتبارنا على الأخص عنصرها الأساس: الرجل و يلزمنا أولا أن نفهم كيف يؤثر الإنسان في تركيب التاريخ...» بعد أن نبعث فيه الإرادة و نوجهه. المصدر نفسه ص: 83.

[5] انظر مالك بن نبي: تأملات ص: 55.

[6] انظر مالك بن نبي: المصدر نفسه: جدول الموازنة بين القيم الاقتصادية و القيم الإنسانية ص: 56.

على مستوى أسسها و ضمن حدودها[1]، الأمر الذي سيمكن لظاهرة التكديس، و ما يترتب عليها من القابلية للتبعية الاقتصادية و السياسية من البقاء و الاستمرارية[2].

و لذلك فلكي يتسنى لنا تحقيق العوامل و الشروط التي يتطلبها الإقلاع الحضاري، يجدر بنا ألا نهمل تجربة نهضتنا الفاشلة، و تجربة نهضة غيرنا الناجحة، بل ينبغي علينا أن نلتفت إليها و نضع نتائجها المختلفة موضع تأمل و درس حتى نستطيع الوقوف على أهم العوامل و الشروط التي حالت بين نهضتنا و بين بلوغها الأهداف و الغايات التي بلغتها نهضة اليابان و روسيا و الصين و ألمانيا و إيطاليا و كوريا و إسبانيا[3]، فإذا كانت هذه البلدان قد حققت نصرا حاسما على مشاكل التخلف و نجاحا باهرا في شتى الميادين، فلا يمكن أن نقول إنها تصرفت في عدد كبير من الوسائل، لأنه قول مردود بالنظر إلى الوسائل التي وقعت في حيازة بلد مثل الجزائر و إندونيسيا و العراق، و إنما يمكن أن نقول: إن سياساتها النهضوية كانت تتصرف في أكبر كمية من الأفكار جعلتها تهتدي إلى تحديد كيفيات عملية أو أنماط تطبيقية مكنتها من التصرف فيما كان تحت يديها من رأس مال أولي: الإنسان و التراب و الوقت، بحكمة و فاعلية.

و جملة القول: إن سياسات هذه البلدان أدركت منذ البداية أنها لن تستطيع الانفلات من قبضة المتبوع إلا بالاعتماد على النفس، و استغلال ما يتفوق به عليها من أفكار و أشياء في مختلف العمليات الاجتماعية، فعمدت إلى وضع خطط محكمة نسقت فيها بين جميع الحركات؛ سواء تلك التي تتولى عملية التوجيه و الإشراف أو تلك التي تتولى عملية المتابعة و التنفيذ؛ و بينها و بين الوسائل، فنجحت حيث أخفقت البلدان العربية و الإسلامية[4].

و لما كانت مشكلة التراب في البلدان العربية و الإسلامية، ليست متأتية من العوامل الطبيعية فحسب، بل هي أيضا متأتية بالدرجة الأولى من الإنسان الذي يعيش عليه، و لذلك فإن أي مشروع يوضع بهدف مواجهة التحديات التي تطرحها العوامل

---

[1] انظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى ص: 49 و ما بعدها.

[2] انظر مالك بن نبي: من أجل التغيير، موضوع: مشكلة الثقافة ص: 57 و ما بعدها.

[3] انظر مالك بن نبي: تأملات، موضوع: خواطر عن نهضتنا العربية ص: 175-202.

[4] انظر مالك بن نبي: تأملات ص: 180-185 و انظر له: القضايا الكبرى، موضوع: مشكلة المفهومية ص: 91-112.

الطبيعية، كالجفاف و التعرية و التصحر، سيبقى دون مستوى هذه التحديات، ما لم يأخذ بعين الاعتبار مشكلة الإنسان و يسع في الوقت ذاته إلى معرفة الأسباب التي تقف خلفها و تحول بين الإنسان المسلم و بين الارتباط القوي بالتراب، و يعمل على إيجاد الحلول المناسبة لها[1].

و لكي يكتب النجاح لمشروع إعادة الاعتبار للتراب في البلدان العربية و الإسلامية، لا ينبغي الاكتفاء بتحريك الإرادة الفردية و الجماعية أو بتوعية الإنسان المسلم بالمخاطر التي تنتج عن تصرفاته اللامسؤولة اتجاه البيئة و التي تذهب معها كل سنة آلاف الأشجار أو بالمخاطر التي تنتج عن إهماله المتزايد للتراب و عدم إعطائه أي قيمة اجتماعية في حياته. بل ينبغي بالإضافة إلى ذلك أن يتضمن المشروع كافة الشروط المعنوية و المادية التي تجعل من صلة الإنسان المسلم بالتراب صلة قوية[2]، لأن عملية توسيع مساحات الأراضي الزراعية أو الغابات، و عملية البحث و التنقيب عن الثروات الباطنية، و عملية إقامة المجمعات السكانية و الإدارية و المصانع و المعامل، و عملية الحد من زحف الرمال الشاطئية و الصحراوية، كل هذه العمليات لا يمكن للمشروع أن ينجزها إذ عجز عن ربط الإنسان بالتراب[3].

و بما أن إدراك الإنسان للمخاطر المختلفة و معرفته لقيمة التراب في العمليات الاجتماعية باعتباره عنصرا من العناصر الأساسية التي تتركب منها الحضارة مرهونتان بإحداث تغيير جذري للوسط الذي يعيش فيه الإنسان في البلاد العربية و الإسلامية، فإن مسؤولية إحداث هذا التغيير و نشر الوعي و المعرفة، تقع أولا على عاتق من بيدهم سلطة القرار، و تقع ثانيا على عاتق رؤساء الأحزاب و الجمعيات و تقع ثالثا على عاتق المثقفين و المفكرين و المربين[4].

فإذا تحركت هذه الطبقات الفاعلة و سخرت المدرسة و التلفاز و المذياع

---

[1] انظر مالك بن نبي:

[2] شروط النهضة ص: 139 و ما بعدها.

[3] انظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى، موضوع: مشكلة المفهومية ص: 91-129.

[4] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 158، 159، فكرة الأفريقية الآسيوية ص: 158، 159، 244، 145، في مهب الريح ص: 146-152، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص: 76-84.

و المجلة و الجريدة و الملتقيات و الندوات لنشر الوعي و المعرفة حول كل ما يتعلق بهذا العنصر الأساسي في البناء الحضاري[1]، فإنها تستطيع أن تحرك معها جميع الفئات الاجتماعية، و تجعلها تسير في الاتجاه المعين الذي يضمن لها تنفيذ سائر مفردات مشروعها، خاصة إذا ربطت هذه الطبقات في خطة مشروعها بين الغايات أو الأهداف التي ترمي إليها و بين اهتمام الطبقات الاجتماعية المختلفة بما يجري على ترابها من مؤامرات[2]، فإنها ستجعل منها الوسيلة الأساسية التي يستعيد بها التراب قيمته الاجتماعية في تأمين الغذاء و تحقيق الاكتفاء الذاتي و أهميته الحيوية أو الاستراتيجية في تحقيق الأمن القومي لسائر البلدان العربية و الإسلامية[3].

و ليس من المستحيل على النخب في العالم الإسلامي أن تجعل الإنسان العادي يعمل بجد ليدرك هذه الأهداف إذا اقتنعت هي أولا أن قضية التنمية بوجه عام و التنمية الاقتصادية بوجه خاص « ليست قضية إمكان مالي، و لكنها قضية تعبئة الطاقات الاجتماعية –أي الإنسان و التراب و الوقت– في مشروع تحركها إرادة حضارية لا تحجم أمام الصعوبات »[4] لأن هذا الاقتناع هو الذي يجعلها لا تلتفت إلا إلى الإنسان و الوقت في تنفيذ مشروع إعادة الاعتبار للتراب في مختلف العمليات الاجتماعية في بلدانها، بدلا من التفاتها إلى المال أو إلى الوسائل التي لا تستطيع اقتناءها من الدول المتقدمة إلا بشروط تزيد من تبعيتها السياسية و الاقتصادية لهذه الدول، و بالتالي فإنه يدفعها إلى التمركز حول ذاتها، و تسخير جميع الوسائل التي من شأنها أن تشحذ إرادة ذاتيتها الفردية و الجماعية و تكتلها[5] و إلى التفكير الجاد الذي يمكنها من وضع الإجراءات العملية الكفيلة بتسهيل العمل عامة و العمل المشترك خاصة و توجيهه داخل كل بلد من بلدانها و التنسيق بينه و بين العمل في بقية البلدان الأخرى « في

---

[1] أي أن المشكلة نفسية فكرية فنية و ليست تجهيزية فهي في الإرادة و في الأفكار و المناهج التي تستخدم الإمكان الحضاري.

[2] مؤامرة امتلاك بعض الدول العربية و الإسلامية لأسلحة الدمار الشامل أو مؤامرة اضطهاد الأقليات أو مؤامرة حقوق الإنسان... الخ.

[3] انظر مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص: 116–117.

[4] انظر مالك بن نبي: نفس المصدر، موضوع: قيم إنسانية و قيم اقتصادية ص: 49–62، و انظر له: المسلم في عالم الاقتصاد، موضوع: المعادلة البيولوجية و المعادلة الاجتماعية للفرد في التجارب الحديثة ص: 90–96.

[5] انظر مالك بن نبي: تأملات ص: 180–185، و انظر له: القضايا الكبرى، موضوع: مشكلة المفهومية ص: 91–112.

نطاق مشروع شامل تتحد فيه الأيدي و العقول و الأموال في الرقعة العربية أو في أكبر جزء ممكن منها بقدر ما تكتمل فيه شروط الاقتصاد التكاملي »[1].

و هذا لأن أي بلد من البلدان العربية و الإسلامية لا يستطيع في الظروف الراهنة مواجهة الضغوط السياسية التي تمارس عليه من قبل الدول ذات النزعة الاستعمارية، ما لم يسع إلى التكامل الانتصاري مع بقية البلدان التي تتعرض لنفس الضغوط، لأنه إذا كانت هذه « الأوطان ... لا تستطيع مواجهة الظروف الاقتصادية العالمية بمفردها [فإنها] تستطيع الصمود لها و النمو، إذا تكاثفت عقولها و أيديها و أموالها في ورشة عمل مشترك من أجل اقتصاد متحرر لا يخضع لضغط خارجي »[2].

و على الرغم من أن الظروف التي جعلت مالك بن نبي يرى أن حل مشكلة التراب في البلدان العربية و الإسلامية يكمن في إرادتها السياسية و في تعاونها على التكامل الاقتصادي، تغيرت، لأن العالم الذي شكلته نتائج الحرب العالمية الثانية و جعلته مكونا من قطبين: قطب شيوعي يتزعمه الاتحاد السوفياتي، و قطب رأسمالي تتزعمه أمريكا لم يعد هو نفس العالم الذي شكلته نتائج الحرب الباردة[3]، إلا أنه مع كل هذا التغير الذي طرأ على العالم، في إمكان الدول العربية و الإسلامية أن نحل مشكلة التراب في بلدانها، بشرط أن تدرك أن قدرتها على مواجهة التحديات الداخلية و الخارجية متوقفة على إرادتها السياسية في التعاون و التكامل مع بقية البلدان التي تقاسمها نفس المصير[4]، الأمر الذي يحتم على قادتها و موجهيها أولا أخذ المبادرة لإعادة الروابط على أساس المصلحة المشتركة، ثانيا: المسارعة إلى وضع خطة شاملة للإصلاح نابعة من القضايا الجوهرية المتعلقة بمصير العالم الإسلامي ككل، ثالثا: التعجيل باتخاذ الإجراءات المختلفة التي يتطلبها تنفيذ الخطة على مدى الأمد القريب و البعيد[5].

---

[1] انظر مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية، موضوع: مشكلة الرجل الأفرسيوي ص: 70-87، في مهب المعركة، موضوع: من أجل إصلاح التراب الجزائري ص: 103-107.

[2] مالك بن نبي: المصدر السابق ص: 102.

[3] انظر موسى الزعبي: البداية و النهاية، نشوء القوى العظمى و انحطاطها، دار الشادي -سوريا- دمشق، الطبعة الأولى لعام 1991م، موضوع: أين مكان العالم العربي المستقبلي ص: 341 و ما بعدها.

[4] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد ص: 97-103.

[5] مالك بن نبي: فكرة الإفريقية الآسيوية، موضوع: العالم الإسلامي و فكرة الأفرسيوية ص: 219-248.

و ينبه مالك بن نبي إلى أن هذه القضية السياسية الاقتصادية « لا يمكن الفصل فيها بالارتجال و إنما بالدراسة على الخريطة. إن ليبيا على سبيل المثال، لها متسع من التراب، و مصر لديها فائض من العدة البشرية [و لدول الخليج] فائض من المال المعطل، فلو اجتمعت هذه العوامل الثلاثة في خطة تجريبية لأدرك العالم العربي كله أن شروط الإقلاع و الاكتفاء الذاتي هي تحت يده، عندما يريد النهوض الاقتصادي بتعميم التجربة الثلاثية التي أشرنا إليها حتى تصير هذه التجربة لبنة عربية في أساس الحضارة الإسلامية الجديدة»[1].

بل إن الأخذ بهذا الاقتراح يصبح أمرا ضروريا إذا كنا نعرف أن 90 % من الحبوب التي تستهلك سنويا في الجزائر، و ربما في كثير من البلدان العربية و الإسلامية ليست مما تنتجه من ترابها و إنما هي تستورده من عائدات النفط و الغاز من روسيا و كندا و أمريكا، و أن استهلاكها أصبح منذ حلول عام 2000م ثلاثة أضعاف قدرتها الإنتاجية[2] و هو ما يعني أن مشكلة التراب في هذه البلدان ليست في طريق الحل في الظروف الراهنة، لأن المبادئ و القيم التي تدفع الإنسان إلى التفكير و العمل لإيجاد حلول لها لم تعد هي نفس المبادئ و القيم التي دفعت الأجيال السابقة إلى تحرير التراب من الاستعمار[3].

لقد كانت وحدة الأمة الإسلامية و حريتها و استقلالها السياسي و الاقتصادي بالنسبة لبرنامج رجال النهضة ثوابت لا يمكن مساومتهم فيها و هم و إن كانوا قد أخفقوا في تحقيق كل شروطها، فإنهم على الأقل لم يضيعوا الهدف الجوهري من إثارتها على الساحة الفكرية و السياسية، و هو تعبئة الجماهير العربية و الإسلامية روحيا و نفسيا، الأمر الذي جعلها تنخرط في عمل مشترك، كانت إحدى نتائجه تحرير التراب من الاستعمار و رفع رايات الاستقلال فوقه. و لكن جيل الاستقلال لم يواصل العمل بنفس الحماس في معركة البناء الاقتصادي مع أن هذه المعركة كانت تفرض عليه توحيد مواده الأولية التي لم يكن يملك وسائل تحويلها لمواجهة تحديات الكتلة

---

[1] مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد ص: 102.

[2] انظر موسى الزعبي: البداية و النهاية ص: 342، 343.

[3] انظر مالك بن نبي: من أجل التغيير ص: 22-28.

النقدية التي تحدد أسعار هذه المواد في السوق العالمية، و توحيد بلدانه التي جزأها الاستعمار إلى جنسيات في كمنويلث إسلامي[1].

و على الرغم من أن جيل الاستقلال بوجه عام و قادته و موجهوه بوجه خاص كانوا يدركون ضرورة هذا العمل و أهمية مواصلته -في عصر أصبح منذ نهاية الحرب العالمية الثانية عصر تكتلات اقتصادية و أحلاف عسكرية- لضمان حرية المبادرة السياسية و الاقتصادية و التحكم في زمامها و توجيهها طبقا لما تقتضيه منهم مصلحة العالم العربي و الإسلامي المشتركة؛ إلا أنهم حين أخذوا سنة 1973م في حرب أكتوبر تلك المبادرة[2] السياسية المتمثلة في جعل البترول سلاح مقاطعة للدول المدعمة و المساندة لإسرائيل، فإنهم لم يواصلوا العمل لتحقيق الشروط النفسية من جهة و لإيجاد الصيغ الفنية التي تنتقل بها من المثالية إلى الواقعية من جهة أخرى[3]. أي أنهم لم يضعوا مبادرتهم تلك ضمن استراتيجية شاملة تأخذ بعين الاعتبار ظروف و إمكانيات كل دولة عربية حتى تستطيع كل دولة منتجة للبترول أو غير منتجة له الوفاء بالتزاماتها، كما تأخذ بعين الاعتبار التكتلات الاقتصادية في العالم لأنه كان من شأن هذه الاستراتيجية أن تجعل من اقتصاديات البلدان العربية اقتصادا متكاملا يستطيع مواجهة كل الظروف الاستثنائية[4] و ليس ظروف حرب تملي اتخاذ مواقف قد تنقلب على أصحابها « فعلى طريق يؤدي إلى هذا الاستقلال [السياسي الاقتصادي] ، ليست قضية البترول إلا مرحلة ضرورية، لأن مشكلة البترول و ما يعلق بها من اعتبارات ملتهبة في الظروف الراهنة كفيلة بتحريك الضمير في العالم العربي نحو وعي اقتصادي ينسجم مع التطور الراهن أكثر مما يحركه خطاب سياسي. ثم إن هذه الخطوة تستطيع تصفية (الذهان) المستولي على البلدان المنتجة للبترول خشية أن يفقد عائداته.

---

[1] انظر مالك بن نبي: فكرة الإفريقية الآسيوية، موضوع: مشكلة الرجل الأفرسيوية ص: 70 و ما بعدها، موضوع: مبادئ اقتصاد أفروسيوي فعال ص: 148 و ما بعدها، و انظر له: بين الرشاد و التيه ص: 156. و انظر مجلة العربي عدد 433 السنة 37 ديسمبر 1994م ص: 26-30.

[2] انظر محمد علي صبري: البترول العربي نعمة أم نقمة على العرب مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية العدد 42/ 43 لعام 1977م ص: 152-158. و انظر عبد الحميد ابراهيمي: إبعاد العالم العربي و احتمالات المستقبل ص: 387 فهو يرى أن أزمة الطاقة لعام 1973م أحدثتها الولايات المتحدة و ليس البلدان العربية.

[3] انظر مالك بن نبي: بين الرشاد و التيه موضوع: جولة البترول العربي ص: 161-168.

[4] انظر عبد الحميد إبراهيمي ص: 388-391.

و بذلك سوف تساعد هذه الخطوة على وضع الاقتصاد العربي على قواعد سليمة، أكثر ملاءمة مع الاستقلال الاقتصادي، لأن من يسعى لتحرير البترول في الخارج من ربقة الاستعمار عليه أن يتحرر هو من ربقة البترول في الداخل »[1].

و إذا كانت قضية البترول و محاولة الدول العربية التخلص من ربقة السلاسل الاحتكارية المتعلقة به، و هي قضية من قضايا التراب الإسلامي و مشكلة من مشكلاته لا تزال قائمة رغم المحاولات، فإن مشكلة التشجير و الزراعة ذات الصلة بالأمن الغذائي لا تزال هي الأخرى قائمة. ففي الجزائر على سبيل المثال و منذ الاستقلال (1962م) كانت مشكلة زحف الرمال الشاطئية و الصحراوية على الأراضي الصالحة للزراعة تستقطب اهتمام رجال الدولة الجزائرية[2].

و لكن يبدو أن هذا الاهتمام و إن كان قد تحول آنذاك إلى إرادة عمل في وضع خطة لحماية الأراضي الصالحة للزراعة من زحف الرمال الصحراوية و الشاطئية، تلك التي يشهد لها السد الأخضر في الجنوب الجزائري؛ فإنه، و بالاستناد إلى الأوضاع المزرية التي آلت إليها البيئة الجزائرية: زراعة و تشجيرا؛ يمكن القول إن تلك الخطة لم تكن تستند إلى دراسة علمية ميدانية شاملة تتناول المشكلة الجزائرية في راهنها و في مستقبلها، في شمالها و في جنوبها. لأنها لو كانت فعلا تستند إلى هذه الدراسة الشاملة، لما كانت البيئة بصفة عامة و البيئة الزراعية الشجرية في الجزائر تزداد في كل سنة تدهورا[3]، بل لكانت الجزائر قد تمكنت من المحافظة على ما كان منها صالحا للزراعة والتشجير من ناحية، ومن العمل على استصلاح ما هو منها قابل لذلك من ناحية أخرى.

ولتوضيح ما نرمي إليه من قولنا بالدراسة العلمية الشاملة لهذه المشكلة نقول إن الدولة الجزائرية آنذاك وإن كانت قد عمدت في إطار الثورة الزراعية إلى وضع مخططات وسعت إلى تنفيذ برامجها التنموية للريف الجزائري،قصد المحافظة على

---

[1] مالك بن نبي: بين الرشاد و التيه ص: 167.

[2] انظر عيون عبد الكريم : جغرافية الغذاء في الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر الطبعة الأولى لعام 1985م. موضوع: العوامل المؤثرة في إنتاج و استهلاك الغذاء. ص: 155-238.

[3] مما يدل على عدم علمية هذه الحلول أن كثيرا من المزارع و البساتين المختلفة الأشجار المثمرة خاصة تلك التي تحيط بالمدن الكبرى غزاها الإسمنت المسلح بل إن يد التخريب امتدت إليها بقطع المياه عنها قبل أن يصلها الإسمنت المسلح.

خريطة جغرافية التراب الصالح للزراعة والتشجير من ناحية، وحمايته من أخطار العوامل الطبيعية والبشرية من ناحية أخرى، فإن نقطة الإنطلاق في كل ذلك، يبدو أنها لم تكن قائمة فقه أولويات المحافظة على التراب الصالح وحمايته، خاصة عندما نأخذ في الاعتبار الإمكانيات والوسائل التي كانت بحوزتها آنذاك إذ كان من المفروض« أن تبدأ بزراعة الشواطئ القريبة من البحار و التي لا يزال فيها بقية من استعداد لأن تستصلح بغرس الأشجار و يكون ذلك بإنشاء مراكز فنية في مناطق معينة، ينطلق منها التشجير إلى داخل البلاد »[1]. و لكن الدولة الجزائرية بدلا من أن تبدأ من الشمال و تضع إمكانياتها و وسائلها المتاحة في المحافظة على ما تبقى منه صالحا و التوسع في حمايته باستصلاحه، فإنها انطلقت من الجنوب[2] في تنفيذ مشروع السد الأخضر و هو مشروع ضخم، و هذا السد و إن كان قد وضع حدا لزحف الرمال الصحراوية الآتية من الجنوب نحو الأراضي الزراعية بالشمال، فإن تنفيذه كان على حساب الأراضي الشمالية التي كانت فيها بقية من استعداد للاستصلاح.

و يضاف إلى هذا الخطأ الفني الذي ارتكبته الدولة الجزائرية في استصلاح التراب و استغلاله في العملية الاجتماعية، خطأ فني آخر يتمثل في القرار[3] السياسي الاقتصادي الذي اتخذته قيادتها إثر تجميد دول السوق الأوربية المشتركة[4] لعملية استيراد النبيذ الجزائري سنة 1970م. لقد كان يفترض في السلطة الجزائرية آنذاك أن تواجه هذه المشكلة المستجدة في حياتها الاقتصادية لا من منظور ما كانت تدره هذه العملية التوريدية، من دولارات أو فرنكات على الخزينة الجزائرية، و لكن من منظور ما كان السد الأخضر الذي أنشأه المعمرون أثناء فترة الاحتلال، يوفره للتراب الممتد على طول السواحل و لعمقه من رطوبة و من جذب للأمطار خلال فصل الخريف

---

[1] مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 144.

[2] انظر عيون عبد الكريم: جغرافية الغذاء في الجزائر ص: 233، 234.

[3] قررت الدولة الجزائرية آنذاك تقليص مساحة الأراضي المزروعة بالكرمة و ذلك باقتلاع كل أشجار الكروم التي كانت تغطي مساحات واسعة ممتدة على سواحل الغرب الجزائري. انظر مالك بن نبي: من أجل التغيير و تعليقه على الخطة الجزائرية بصفة عامة و القرار المتخذ بصفة خاصة ص: 29-35.

[4] انظر عصام الزعيم، موضوع: التفاقم المتواصل في اختلال التبادل بين الأقطار العربية و السوق الأوربية المشتركة، مجلة دراسات عربية، العدد 11 السنة 15 سبتمبر عام 1979م ص: 52، 53.

و الشتاء و الربيع، و ما كان أيضا يوفره للمساحات الزراعية الساحلية من حماية، إذ كان يقف أمام زحف الكثبان الرملية نحوها، هذا بالإضافة إلى ما كان يوفره لسكان الريف و القرى من مناصب شغل طوال فصول السنة و من استقرار نفسي جعلهم يرتبطون بالأرض[1].

و لو أن الدولة الجزائرية وازنت بين مساوئ الإبقاء على شجر الكروم و مساوئ إقلاعها قبل اتخاذ القرار لكانت قد رجحت مساوئ الإبقاء و هي أقل حدة و يمكن معالجتها على مساوئ الإقلاع، لأنها حينئذ كانت ستتوصل إلى إيجاد حل لمشكلة تسويق الخمور، كأن تحول ثمار الكروم إلى عصير خال من الكحول أو مربى عنب أو زبيب، ريثما تتوصل إلى حل لا يبقي إلاعلى محاسن هذا السد الأخضر.

و هذا القرار الذي كان في نظر مالك بن نبي[2] في غاية الحكمة؛ فإنه و بعد مرور ثلاثة عقود على اتخاذه، يبدو أنه لم يكن كذلك؛ لأنه باقتلاع أشجار الكروم أخذت الرمال الشاطئية تزحف على الأراضي الزراعية و تحولت كثير من المساحات الخضراء إلى أرض قاحلة، و أخذت الأمطار الموسمية خاصة في فصل الشتاء تقل من عام إلى آخر و بدأ الجفاف يعم كامل المنطقة الغربية القريبة من البحر و البعيدة عنه هذا من الناحية الطبيعية أما من الناحية الاجتماعية الاقتصادية، فإن مناصب الشغل التي كانت توفرها أشجار الكروم لآلاف العمال فقد انعدمت الأمر الذي اضطر هذه الآلاف إلى الهجرة من الريف نحو القرى و المدن الكبيرة و ما ترتب عليها من نتائج سلبية مضرة بالاقتصاد الجزائري بصفة عامة و الزراعة بصفة خاصة. و عليه « فالقرار بتقليص مساحة الأراضي المزروعة بالكرمة [و إن كان في نظر مالك بن نبي قرارا حكيما إلا أنه] لا يمكن أن يكون معيارا نقيس به جهازنا التخطيطي، لأنه جاء نوعا ما تحت ضغط ظروف خارجية [و هذا ما يجعل] التخطيط [في كل ميادين الحياة] يفقد كل معناه ابتداء من اللحظة التي تكون فيها فكرته الرائدة مستوحاة من الخارج ».

---

[1] خاصة إذا كان الإنسان المسلم منذ أن احتك بالإنسان الغربي قد أخذت صلته بالأرض تقوى بعد أن كانت واهية، و أن هذا النوع من الفلاحة الموروث عن الاستعمار جعله يرتبط بالأرض أكثر من ذي قبل. للمزيد من المعلومات في هذا الموضوع انظر عبد الله شريط: الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون ص: 450-453.

[2] انظر : من أجل التغيير ص: 33.

و مشكلة التراب ليست مشكلة تخص الجزائر أو بلدان العالم العربي و الإسلامي[1]، و إنما هي مشكلة عالمية[2]، بيد أن حدة هذه المشكلة في البلاد العربية و الإسلامية أكبر من حدتها في البلدان المتقدمة، لذلك فإن حلولها الجذرية لا تتأتى باتخاذ قرارات سياسية و اقتصادية فحسب بل تتأتى أيضا من وضع برامج تربوية تثقيفية كي يتسنى للإنسان في هذه البلدان أن يدرك المخاطر التي تهدد بقاءه إن هو تمادى في إهماله لهذه المشكلة و لم يتداركها قبل فوات الأوان[3].

و الوعي بالمخاطر الناجمة عن العوامل الطبيعية هو الذي جعل الإنسان الهولندي يواجهها بإرادة حضارية و يحول ثلث تراب بلده بعد أن كان عبارة عن مستنقعات إلى تراب صالح للزراعة و التشجير[4]، كما أن هذا الوعي هو الذي جعل الإنسان الفرنسي يواجه نفس المخاطر بإرادة لا تحجم أمام الصعاب، و قام « حوالي عام 1850م بغرس الأشجار في الناحية الجنوبية الغربية من البلاد، حيث كانت رمال الشاطئ الأطلنطي و المستنقعات الضارة تهدد أهلها و صحتهم »[5] و إدراكا من أهل تلك المنطقة لمدى تفاقم خطورة الوضع البيئي الذي كانوا يعيشون فيه آنذاك فإنهم « انطلقوا بهمة و صبر، يوقفون الرمال عند حدها، و تكبدوا في سبيل ذلك ما تكبدوا، و قضوا عشرين سنة يسدون الطريق على الرمال من مدينة " بوردو" إلى مدينة " بياريتز"[6]. بيد أن نتائج هذا الوعي و هذه الإرادة كانت أكبر مما كانوا يتصورون « فقد كانت تلك المنطقة أفقر المناطق و أخطرها على الصحة في فرنسا، فأصبحت بما تمتعت به من الأشجار الكثيرة – ذات حركة اقتصادية ممتازة إذ أصبحت أول منتج في العالم لزيت (التربينتين) المستخرج من تلك الأشجار، و أصبحت ملجأ صحيا للمرضى من جميع أنحاء العالم »[7].

---

[1] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 139-144.

[2] انظر نيجل هاي ... مشكلة الغذاء العالمي، ترجمة: فتحي محمد عبد التواب، الهيئة العامة للكتاب الطبعة الأولى للعام 1975م ص: 11-44.

[3] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 139-142.

[4] المصدر نفسه ص: 144.

[5] المصدر السابق ص: 143.

[6] المصدر نفسه ص: 143.

[7] المصدر السابق ص: 143.

هذه الأمثلة و غيرها من الأمثلة التي لا يتسع المجال لذكرها لا تجعلنا ندرك مدى قصور اهتمامنا بمشكلة التراب فحسب بل تجعلنا ندرك مدى سطحية تفكيرنا في الطرق و الوسائل التي تمكننا من معالجة هذه المشكلة[1]، خاصة عندما نقارن اهتمامنا بمشكلة التراب باهتمام العالم المتقدم بها و الطرق التي توصل إلى استحداثها لمعالجة هذه المشكلة منذ قرون. ففي الولايات المتحدة الأمريكية و في أوربا الغربية على سبيل المثال قام عدد من العلماء المهتمين بالبيئة و بمشكلاتها خاصة تلك المتعلقة بالغذاء، بأبحاث علمية و بتجارب ميدانية مكنتهم من التوصل إلى طرق حديثة[2] استخدمت في معالجة التربة غير الصالحة للزراعة و في زيادة إنتاجية التربة الصالحة للزراعة و التشجير.

بيد أن اهتمام هؤلاء العلماء بمشكلة التراب و الغذاء ما كان له أن يتحول إلى إرادة حضارية تخرجه من حيز القوة إلى حيز الوجود لو لم يكن المناخ العقلي[3] في تلك البلاد يشجع هؤلاء العلماء أدبيا و ماديا كي يواصلوا أبحاثهم و تجاربهم ذات الصلة بالتراب و الغذاء خاصة مناخ تلك الفئة التي تملك سلطة اتخاذ القرار و تنفيذه.

و حتى يصبح اهتمام الإنسان المسلم بالتراب و بالمشكلات المتصلة به، مثل اهتمام الإنسان به في الغرب و في أماكن أخرى من العالم المتحضر، و في مستوى واجباته الدينية و رسالته الإسلامية؛ فإنه ينبغي بالإضافة إلى عيد الشجرة و عيد العمال أن نفكر في إيجاد الوسائل و الصيغ التي تربط بين الإنسان و بين التراب طوال فصول السنة، و التي تجعل منه و ما عليه من أشجار و أنهار و دواب و طيور، و ما في باطنه من ثروات، رمزا لبقاء الإنسان و كرامته و سيادته، و وسيلة لتقدمه و رقيه، إذ بإعطاء التراب هذه القيمة الرمزية و التمكين لها من النفوس، ربما نستطيع خلق

---

[1] فعلى سبيل المثال قامت الدولة الجزائرية بعد الاستقلال بالتخطيط و التنفيذ لإنجاز الثورة الزراعية و الصناعية و لكن كمية المياه المتواجدة في السدود القليلة في الوطن لم تكن كافية لإنجاز هاتين الثورتين معا الأمر الذي اضطر قادة الدولة إلى تخصيص هذه الكمية للصناعة الأمر الذي جعل حقول الزراعة تموت.

[2] منها طريقة الري الصناعي أو نظام قنوات الري الصناعي. و طريقة التحليل الكيميائي و الطبيعي للمياه و التربة، و طريقة تحلية مياه البحر و طريقة الأمطار الصناعية و طريقة استخدام الأسمدة الكيميائية ثم استبدالها بالطريقة البيولوجية لمقاومة الحشرات...الخ انظر نيجل هاي... مشكلة الغذاء العالمي، ترجمة: فتحي محمد عبد التواب الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الأولى لعام 1975م ص: 48-110.

[3] انظر مالك بن نبي: في عالم الاقتصاد ص: 56.

الإرادة الحضارية في الإنسان الذي يفكر في وضع الخطط أو الذي يفكر في إيجاد طرق فنية لاستغلال ما فوق التراب و ما في باطنه أو الذي يقوم بتنفيذ ذلك، فهؤلاء هم الذين إن تحركوا ينجزون "الثورة الخضراء" التي بها يتم تعزيز الاستقلال السياسي، و تحقيق السيادة الفعلية على ظاهر و باطن التراب.

و متى تكونت هذه الإرادة الحضارية يمكن للدول العربية و الإسلامية مواجهة سائر المشكلات المتعلقة بالتراب و الغذاء لأن تكوين هذه الإرادة الحضارية هو الذي مكن الصين الشعبية من الخروج من محور دول الجنوب و الالتحاق بمحور دول الشمال و احتلال مقعد دائم إلى جانب الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن الدولي و ما كان للصين أن تلحق بمحور الشمال و تحتل مقعدا دائما في مجلس الأمن لو لم تطبق « منذ اللحظة الأولى في خطط تنميتها مبدأ الاتكال على الذات، أي بالتعبير الاقتصادي مبدأ الاستثمار الاجتماعي من الإنسان الصيني و التراب الصيني و الزمن المتوفر في كل أرض، كما طبقت من ناحية أخرى مبدأ الاستفادة حتى من التجارب الفاشلة مثل تجربة التعدين... الريفي، في نطاق ما أسموه (الوثبة إلى الأمام) ، فقد استفادت الصين من هذه الخطوة الخاطئة على الأقل مزيدا من المعلومات الفنية في تكنولوجية الحديد، كما استفادت من الناحية النفسية ما كون بين أهالي الريف و أهالي المدينة المصنعة، شبه قاسم مشترك في مجال التصنيع، فارتبطت المزرعة و المصنع في نشاط ينهض بالريف و المدينة على سواء »[1].

و يتضح من هذا المثال كما اتضح من الأمثلة السابقة أن الأمة التي يتكون لديها وعي بمشكلاتها و إرادة للعمل الفكري أو اليدوي لإيجاد حلول لها[2] بالاعتماد على ما تحت يديها من وسائل و إمكانات تستطيع حل كل مشكلاتها المادية و المعنوية، كما كان الشأن مع اليابان و ألمانيا و الصين مع مشكلاتها الحضارية؛ فهذه الدول لم تعلق سياسة حلول مشكلاتها على أي مساعدة أو إمداد خارجي، و إنما على ما تستطيع

---

[1] مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد ص: 76.

[2] انظر عبد المجيد عمر النجار: عوامل الشهود الحضاري الفصل الرابع: التغير الحضاري ص: 187-245. و هو ما يسميه مالك بن نبي بالإرادة الحضارية و له عوامل هي الوعي العام و هو ما يسميه مالك بن نبي: بالمناخ العقلي و الاهتمام الأسمى انظر المسلم في عالم الاقتصاد ص: 56-64. و مشكلة الثقافة ص: 48-49.

استثماره من الإنسان و التراب و الوقت. أي أن « القضية... بالنسبة للعالم الإسلامي ليست قضية إمكان مالي و لكنها قضية تعبئة الطاقات الاجتماعية، أي الإنسان و التراب و الوقت في مشروع، تحركها إرادة حضارية لا تحجم أمام الصعوبات، و لا يأخذها الغرور في شبه تعال على الوسائل البسيطة التي في حوزتنا منذ الآن، و لا ينتظر العمل بها حقنة من العملة الصعبة، و لا أي مشروع من نوع مارشال. إن الصين الحديثة صاحبة المعجزة الكبرى [في القرن العشرين]، خرجت من العدم فتحولت معالمها، كما حولت من أجل بناء سدودها و طرقها، المليارات من الأمتار المكعبة من التراب، لا بالآلات الحافرة و الناقلة، المفقودة في بلد ينشأ، و لكن بفضل سواعد أبنائها و على أكتافهم، تحدوهم الأسطورة المعبرة عن طاقة الإنسان عندما تحركه إرادة حضارية، فتذكروا أو ذكروا أن جدهم (يوكنج) حول الجبال »[1].

و يتضح مما سبق أن المشكلة التي يعاني منها العالم العربي و الإسلامي ليست في التراب، لأن التراب العربي و الإسلامي يعتبر من أغنى الأتربة في العالم ككل، كما أنها ليست في الوقت، لأنه ملك الجميع و لا أحد يستطيع أن يمنع الإنسان المسلم من استثماره فيما يعود عليه بالنفع، و إنما هي في الإنسان الذي تنقصه الإرادة[2] و التوجيه[3]. و إذا لم يلتفت المصلحون و قادة السياسة و الفكر في العالم العربي و الإسلامي عند أي محاولة لتجديد النهضة تجديدا أدبيا و ماديا إلى هاتين المسألتين

---

[1] مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد ص: 71.

[2] يقول عبد المجيد عمر النجار: « لو توفرت أمة من الأمم على فكرة صحيحة عن الكون و الحياة، و توفرت أيضا على منهج صحيح في صياغة تلك الفكرة و تطبيقها، و لكنها لم تتوفر على إرادة ذاتية قوية لتنفيذ الفكرة وفق ذلك المنهج، فإنها لا يتيسر لها أن تنهض بحضارة، و لا أن تأخذ طريقها إليها، ذلك لأن الإنجاز الحضاري يتوقف من بين ما يتوقف على إرادة قوية تدفع الأمة إلى تحويل الأفكار و الخطط و البرامج إلى واقع عيني ماديا و معنويا، فإذا تراخت الإرادة أو انهزمت لسبب أو لآخر ظلت تلك الأفكار و الخطط حبيسة الأذهان أو ظهرت إلى الواقع ظهورا فاترا ضعيفا لا يرمي إلى صنع حضارة ذات شأن ... و الأمة الإسلامية في واقعها الراهن تعاني من خلل في الإرادة الإنجازية للتحضر...» عوامل الشهود الحضاري ص: 71، 72، 73.

[3] يقول مالك بن نبي: « فقد صار من الضروري أن نضع أمامنا المشكلة بأكملها و أن نأخذ في اعتبارنا على الأخص عنصرها الأساسي: الرجل و يلزمنا أولا أن نفهم كيف يؤثر الإنسان في تركيب التاريخ... و من الملاحظ أنه في القرن العشرين يؤثر الفرد في المجتمع بثلاثة مؤثرات: أملا بفكره، ثانيا بعمله، ثالثا بماله، و حاصل البحث في قضية الفرد منوطة بتوجيهه في نواح ثلاث: أولا توجيه الثقافة ثانيا توجيه العمل ثالثا توجيه رأس المال » شروط النهضة ص: 83.

و تشخيص عواملهما و شروطهما تشخيصا واقعيا[1]، يتفق و سمو الغاية من هذا التجديد، فإن محاولاتهم ستبوء بالفشل كما باءت محاولات رجال الإصلاح الديني و رجال التحديث السياسي و الاجتماعي من قبل، لأن تلك المحاولات لم تكن منظمة في نطاق فقه محدد لمعنى الفاعلية من ناحية، و لأنها لم تكن تستند إلى نظرية محددة للأهداف و الوسائل و لا إلى تخطيط للمراحل[2] من ناحية أخرى. هذا بالإضافة إلى أن طموح أصحابها لم يكن متجها إلى الخلق و الإبداع أكثر مما كان متجها إلى التقليد و الاستنساخ[3].

و معالجة مشكلة التراب سواء تلك المتعلقة بظاهره كالفلاحة و التشجير و البناء أو المتعلقة بباطنه كالبحث و التنقيب و التحويل، لا يمكن التغلب عليها ما لم نأخذ بعين الاعتبار عواملها النفسية و الفكرية بالنسبة للفرد المسلم المزمع إقحامه في معركة البناء و التشييد[4]، إذ لا يمكن إحداث أي تغيير في المنظر الطبيعي دون إحداث تغيير نفسي و فكري على مستوى الفرد و الجماعة و المجتمع. و عليه فحل مشكلة التراب و الوقت يشترط حل مشكلة الإنسان الثقافية: تحقيقا لها و توجيها و ذلك على اعتبار أن هاته المشاكل « ذات علاقة وظيفية بنظام الأفكار المنتشرة في المجتمع؛ فإذا ما تغير هذا النظام بطريقة أو بأخرى فإن جميع الخصائص الاجتماعية الأخرى تتعدل في الاتجاه نفسه »[5] و بالتالي فإن نظرة الإنسان المسلم و موقفه السلبيين من التراب و الوقت يتعدلان كلما قويت علاقة ارتباطه بالتراب، و كلما خضعت الأنشطة التي يمارسها عليه للتنظيم و التوقيت.

---

[1] انظر محمد جابر الأنصاري: تجديد النهضة باكتشاف الذات و نقدها، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، الطبعة الثانية لعام 1998م موضوع: (نحو فكر اجتماعي يرى الأزمة في جذورها) ص: 105-110.

[2] مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية ص: 78.

[3] انظر نفس المصدر ص: 78، عبد المجيد عمر النجار: عوامل الشهود الحضاري موضوع: (خلل المنهج) ص: 39-53 و هو ما يسميه مالك بن نبي بالمناخ العقلي و الاهتمام الأسمى انظر : المسلم في عالم الاقتصاد ص: 56-64.

[4] انظر مالك بن نبي: تأملات، موضوع: (كيف نبني مجتمعا أفضل) ص: 153-202.

[5] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص: 13 و انظر عبد المجيد عمر النجار: عوامل الشهود الحضاري، ص: 191-250 و انظر مالك بن نبي: تأملات ص: 191-194.

و لهذا فإن علاج مشكلة الإنسان و التراب و الوقت في نظر مالك بن نبي ينبغي ربطه بالجذور التاريخية الثقافية التي استنبتت هذه المشكلات من ناحية[1]، و التثبت قبل الشروع فيه من أمر تعريف الحضارة من ناحية أخرى[2]. فبالنسبة للقضية الأولى هناك وراثة اجتماعية سلبية يتعين تصفيتها و بالنسبة للقضية الثانية هناك خلط ينبغي إزالته و هو أن الحضارة هي التي تصنع منتجاتها و ليست منتجاتها هي التي تصنعها، و ذلك لأن الحضارة من وجهة وظيفية ليست تكديسا للأشياء و الأفكار و الأشخاص و إنما هي بناء يتطلب توافر مجموعة من « الشروط الأخلاقية و المادية التي تنتج لمجتمع ما أن يتقدم بكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده ... المساعدة الضرورية له ... فالمدرسة و العمل و المستشفى و نظام شبكة المواصلات، و الأمن في جميع صوره... و إقدام شخصية الفرد، تمثل جميعا أشكالا مختلفة للمساعدة التي يريد و يقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه »[3].

و لكي نتأكد من هذا التعريف الوظيفي للحضارة علينا أن نلقي نظرة في تاريخ الشعوب المتحضرة، قصد تتبع نشأة هذه الشروط و أطرادها عبر الزمان و المكان[4]. لأن هذه النظرة سترفع كل لبس عما تعنيه كلمة بناء و كلمة تكديس في العملية الحضارية[5]، و بالتالي فإنها تؤكد لنا أسبقية الإرادة الحضارية على الإمكان الحضاري[6]؛ فالحضارة الإسلامية لم يبدأ بناؤها برصيد مالي و إنما برصيد روحي و أخلاقي[7]، و كذلك الأمر بالنسبة للحضارة الغربية، لأن جميع أحداثها التاريخية المسجلة على صفحة الوجود ابتداء من ظهور الإقطاع و انتهاء بتوحيد العملة، ما هي إلا تعبير مرئي محسوس عن تلك الإرادة الحضارية التي ما انفكت تقوى و تنتشر

---

[1] انظر مالك بن نبي: فكرة الإفريقية الآسيوية ص: 76-87.

[2] انظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى ص: 43-54.

[3] مالك بن نبي: القضايا الكبرى ص: 43.

[4] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 94-96. وجهة العالم الإسلامي ص: 61-63.

[5] انظر مالك بن نبي : فكرة الإفريقية الآسيوية موضوع: مشكلة الرجل الأفرسيوي ص: 70-87.

[6] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد موضوع: الأسس الحضارية لعالم الاقتصاد ص: 59-64.

[7] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 57، المسلم في عالم الاقتصاد ص: 61-62.

و توجه ضمن خريطة أوربا و عبر الزمان[1]. أي أن جميع الأحداث التاريخية المرسومة على الخريطة الأوربية ما هي في نهاية التحليل إلا نتائج للاستثمار الاجتماعي للإنسان و التراب و الوقت[2]، تلك النتائج التي تحولت بمرور الوقت إلى أسباب لتصحيح حركة المجتمع و ضبطها و توجيهها في إطار نشاط مشترك لعالم من الأشخاص و الأفكار و الأشياء. و بصفة عامة، كل ما ينتسب إلى (عالم أشياء) أوربا، و (عالم أفكارها) أو (عالم أشخاصها) إنما ينتسب بالضرورة إلى تكوين الظاهرة الأوربية، فهو ذاته ظاهرة أوربية ... و لو أننا أخذنا على سبيل المثال من (عالم أشياء) أوربا مثلا إلى جهاز [المذياع] و حاولنا أن نرسم على الخريطة العلاقات العقلية التي انتهت إليه، منذ التجارب المتواضعة التي قام بها جلفاني، حتى اختراع ماركوني... لأنشأ هؤلاء شبكة واحدة »[3] لتلك الإرادة التي خلقت الإمكان.

و يمكن للعقل المتريث المتتبع لنشأة تلك الأحداث التاريخية و استحالة نتائجها إلى أسباب و أسبابها إلى نتائج أن يستخلص منها نتيجة هي: أن العمل الحضاري بناء و أن هذا البناء يتطلب من الإنسان الإفريقي الآسيوي إرادة حضارية فردية و جماعية كما يقتضي منه بذل جهد في التحليل و التكييف [لما يستعيره] أي يقتضي منه في الواقع جهدا في الإبداع و التركيب [لأن] هضم تلك العناصر [المستعارة] و تمثلها يقتضي تمييزا دقيقا و فكرا ناقدا يقظا يحدد الشروط التي يلزم توافرها في الاستعارات الضرورية؛ أعني شروط توافقها و نفعها و لياقتها[4].

و بهذا التتبع لنشأة الحضارة الغربية أو الحضارة اليابانية أو الصينية المعاصرتين لنشأة نهضة العالم العربي و الإسلامي[5] يتضح للإنسان فيه بوجه عام و لقادته و موجهيه بوجه خاص أن البناء الحضاري المنشود مشروط ببعث الإنسان و بتوجيهه في النواحي التي يؤثر بها في تركيب التاريخ و هي الأفكار و الأعمال

---

[1] انظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع موضوع: شبكة العلاقات و الجغرافيا ص: 59-64.

[2] انظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى ص: 44-46، 54-57.

[3] انظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ص: 64.

[4] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 71.

[5] انظر مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، موضوع: الأفكار و ديناميكا المجتمع، ص: 111-118. تأملات ص: 184-188.

و رؤوس الأموال. فـ « مفتاح المشكلة يكمن في وضع برنامج لتوجيه الثقافة توجيها يتفق و سمو الغاية التي ننشدها »[1] من وراء البناء الحضاري؛ لأن هذا البناء لن يتحقق إذا أهملنا مشكلة الثقافة و العمل و رأس المال و تمادينا في تكديس أفكار و أشياء الحضارة الغربية.

و مشكلة التراب في البلدان العربية و الإسلامية مرتبطة بمشكلة الثقافة[2]، و طالما بقيت مشكلة الثقافة دون حل جذري لها؛ فإن مشكلة التراب ستبقى قائمة، و بالتالي فإن الإنسان سيبقى عاجزا عن تحقيق شروط اقتصاد التنمية مادام عاجزا عن استخدام وسائله الأولية لتحرير قوته من شروط الخارج[3]. و مادامت مشكلة التراب مرتبطة بمشكلة الثقافة فإن « حل هذه المشكلة، هو الذي سيعطي الإشارة الخضراء الحقيقية للإقلاع في العالم الثالث، و لن يتحقق ذلك إلا ضمن تغيير جذري في طيات النفوس »[4] و ذلك لأن التنمية عامة و التنمية الاقتصادية خاصة « لا تشترى من الخارج بعملة أجنبية غير موجودة في خزينتنا. فهناك قيم أخلاقية و اجتماعية و ثقافية لا تستورد، و على المجتمع الذي يحتاجها أن يلدها. و التنمية من تلك القيم، إنها لا تستورد بل تصنع في المكان »[5] الذي هو في حاجة إليها.

لقد وجدت اليابان ثم الصين الشعبية نفسها في بداية إقلاعها الاقتصادي أمام طريقين: طريق الاستثمار المالي[6] الذي لم يكن في حوزتها و طريق الاستثمار الاجتماعي فكان أن عمدت كل منهما إلى اختيار الطريق الثاني بعد أن فكرت في وسائل إنجازه تفكيرا علميان و خططت له تخطيطا فنيا، و ربطت بين ذلك و بين

---

[1] مالك بن نبي: المصدر السابق ص: 69. و حين يضع قادة و موجهو العالم العربي و الإسلامي هذا البرنامج الثقافي و يأخذون بعين الاعتبار مشكلة معادلة الإنسان الاجتماعية في عملية التنمية: الزراعية و الصناعية و التجارية فإنه حينئذ تتحقق تدريجيا « تلك الشروط التي تحول سائر العوامل الاقتصادية من حيز القوة و السكون إلى حيز العمل و الحركة، [لأن] العالم الثالث في حاجة، من أجل إقلاعه، إلى دفعة كفيلة بأن تخلصه من سائر أصناف الجمود » مالك بن نبي: بين الرشاد و التيه ص: 195.

[2] انظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى موضوع: مشكلة الثقافة ص: 67-89.

[3] انظر مالك بن نبي: بين الرشاد و التيه موضوع: اقتصاد القوت و التنمية، ص: 182-188.

[4] انظر مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 195.

[5] مالك بن نبي: المصدر السابق ص: 195.

[6] انظر مالك بن نبي: تأملات موضوع: قيم إنسانية و قيم اقتصادية ص: 51-62، المسلم في عالم الاقتصاد موضوع: الاستثمار المالي و الاستثمار الاجتماعي ص: 73-78.

برامج ثورتها الثقافية، لذلك فقد كان لهذه السياسة التي اتبعتها اليابان و الصين في التنمية الاقتصادية تأثيرا إيجابيا على الأوضاع النفسية عند الفرد و على ملامح الحياة من حوله؛ لأنها كانت منذ البداية تدرك أنها ما لم تتمكن من خلق جو اجتماعي تنمو و تتحرك فيه كافة الطاقات العقلية و العضلية في عمل مشترك فإنها لن تستطيع تحقيق شروط التنمية التي تتطلبها الحياة في بلدها[1].

و الثورة الثقافية التي حدثت في الاتحاد السوفييتي بعد عام 1917م[2] أو في اليابان بعد 1865م أو في الصين بعد 1948م[3]، أصبح إحداثها في البلدان العربية و الإسلامية في الظروف الراهنة أمرا ضروريا، لأنه إذا كانت الثورة الثقافية التي قامت في تلك البلدان، قد استطاعت أن تخلق قيما اجتماعية جديدة، غيرت الإنسان تغييرا جذريا؛ فإن هذه الثورة الثقافية متى أحدثتها بلدان العالم العربي و الإسلامي بإرادتها و ليس بإرادة أجنبية، فإنها تستطيع أن تغير الإنسان في هذه البلدان و تمكنه من التغلب على كافة مشكلاته الحضارية و بالتالي من تأمين شروط اقتصاد القوت و اقتصاد التنمية، و من تحقيق شروط اتخاذ القرارات المصيرية المتعلقة بسياسته الداخلية و الخارجية[4]، كما مكنت الإنسان الياباني و الروسي و الصيني و الألماني من

و لئن كانت الدولة اليابانية و الصينية قد تمكنت كل منهما من التغلب على جميع مشكلاتها الحضارية تدريجيا؛ فذلك يعود أساسا إلى أنهما كانتا منذ بداية إقلاعهما الحضاري على درجة كبيرة من الوعي بأهمية و حيوية سلاح الغذاء[5]، فعمدت الأولى إلى صنع المزارع العائمة نظرا لضيق المساحة الزراعية، و عمدت الثانية إلى إنشاء إمبراطورية زراعية بالتعاون مع الاتحاد السوفييتي في مقاطعة كازاخستان و سنكياج.

---

[1] انظر مالك بن نبي: تأملات موضوع: كيف نبني مجتمعا أفضل ص: 164-168، و انظر له المسلم في عالم الاقتصاد ص: 76، 77، 82.

[2] انظر مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 59، 60، 164، 165.

[3] انظر مالك بن نبي: بين الرشاد و التيه موضوع: شروط الإقلاع الاقتصادي ص: 172، 173.

[4] انظر مالك بن نبي: المصدر السابق ص: 177، 180، 186، 187.

[5] انظر مالك بن نبي: تأملات ص: 61، 62.

و كانت نتيجة سياسة الاستثمار الاجتماعي التي اتبعتها الصين الشعبية في إنجاز جميع مشاريعها التنموية أن « قدم القطاع الزراعي ... في العقد الذي تلا عام 1948م الوسائل التي أتاحت [لهذه الدولة] أن تواجه راشدة سائر مشكلات الوجود (القوت) و أن ترمي بنجاح القواعد التي تجعلها دولة قوية. إنها البلد الوحيد في العالم الثالث الذي استطاع أن يستثمر 20% من دخله السنوي العام في تجهيز صناعته و ذلك بفضل قطاعه الزراعي »[1].

بينما لم تستطع السياسات التنموية في بقية بلدان العالم الثالث التوصل خلال نصف قرن إلى إيجاد صيغ فنية تمكنها من معالجة مشكلات التراب و الغذاء؛ و ذلك لأن هذه السياسات كانت و لا تزال تهمل حين التخطيط للعمليات الاجتماعية، مشكلة معادلة الإنسان الاجتماعية من ناحية و مبدأ الاستثمار الاجتماعي من ناحية أخرى، و تركز فقط على مشكلة المال و التجهيز[2]، و لما كان فشل التجارب التنموية التي خاضتها البلدان العربية و الإسلامية قد أكد « أن مشكلة التجهيز مرتبطة بقضية الإنسان و الأفكار و أن المحصول الاجتماعي للآلات مرتبط بفعالية و سلوك الفرد الذي يستخدمها »[3]؛ فإن ذلك مما يوجب على السياسة الاقتصادية في هذه البلدان أن تواجه مشكلة التخلف انطلاقا من مبدأ الاتكال على الذات، و أن تعمد إلى إعادة تنظيم قطاعها الزراعي، حتى تستطيع توفير القوت لسائر الأفواه، و الشغل لجميع السواعد القادرة عليه[4]، و تعمدت في الوقت ذاته إلى إعادة تنظيم مواردها الطبيعية، كي تستطيع مستقبلا الانفلات من الشروط القاسية التي يفرضها عليها صندوق النقد الدولي، و البنك العالمي للتنمية، و منظمة التعاون الاقتصادي و التنمية و المنظمة العالمية للتجارة[5].

---

[1] مالك بن نبي: بين الرشاد و التيه ص: 187، 188.

[2] يبدو أنها أي الدول العربية بدأت تنظر إلى مشكلة التنمية الاقتصادية انطلاقا من مبدأ الاستثمار الاجتماعي أو من مبدأ تنمية الموارد البشرية منذ انخفاض أسعار النفط سنة 1982م. للمزيد من المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع انظر سمير رضوان: مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، السنة العاشرة العدد 109 مارس 1988م ص: 41-86.

[3] مالك بن نبي: القضايا الكبرى ص: 54.

[4] انظر مالك بن نبي: بين الرشاد و التيه ص: 186، 187.

[5] انظر رمزي زكي: العرب و الأزمة الاقتصادية العالمية... المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، الطبعة الأولى لعام 1986م ص: 74-78.

الفصل الثالث: مشكلة الوقت و كيفية بث معناه في نفسية الفرد و في روح المجتمع.

عندما ينام الإنسان نوما عميقا و يستيقظ فإنه يشعر بغربة المكان أحيانا و لكنه في معظم الأحيان يشعر بغربة الزمان من جراء هذا النوم الذي يفقده الإحساس بالوقت، و لا يستطيع الخروج من هذه الغربة إلا إذا استعان بشيء من الأشياء كالساعة أو المنبه لتحديد الوقت بالدقيقة و الساعة و اليوم و الشهر و السنة.

و قد كان الإنسان في البلاد العربية و الإسلامية طيلة عصر ما بعد الموحدين، يعاني من أمراض شتى جعلته يقعد عن السير في ركب الحضارة و يخلد إلى نوم عميق، و فجأة سمع وقع أقدام غريبة تقتحم عليه خلوته، و دوي أصوات لم يتعود سماعها من قبل، و شعر « بهزة انتفض بعدها مستيقظا، ليجد نفسه في إطار جديد لم تصنعه يداه، و أمام ضرورتين ملحتين: فهو ملزم –على الرغم من تأخره و انحطاطه بأن يحافظ على الحد الأدنى من كرامته... و هو ملزم أيضا بأن يضمن لنفسه الحد الأدنى من الحياة »[1] مع إنسان لم يأت لتمدينه و إنما لاستعماره و نهب ثرواته.

و لذلك، فإنه التفت إلى الاستعمار و مقاومته و أخذ خلال قرن من الزمان يبذل جهودا مضنية و تضحيات جسيمة، فنال حريته و استقلاله السياسي، و لكنه نسي بعد ذلك أن يلتفت إلى العوامل النفسية و الفكرية التي تكرس القابلية للتبعية، فعجز عن تحقيق استقلاله الاقتصادي الأمر الذي جعله إلى حد الساعة يعيش الغيبة الحضارية.

و مع أن عوامل هذه الغيبة في نظر بعض المهتمين[2] بشؤون البلدان العربية و الإسلامية خارجية و ليست خارجية، فإنها في نظر مالك بن نبي[3] داخلية، و هي لا تخرج عن عاملين أساسيين: هما التعامل النفسي المتمثل في عجز الإنسان و في وهنه عن استخدام وسائله الأولية استخداما فعالا يمكنه من التصرف في موارده البشرية

---

[1] مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 42.

[2] انظر عبد المجيد عمر النجار: عوامل الشهود الحضاري ص: 21. و انظر عماد الدين خليل: نظرة الغرب إلى حاضر الإسلام و مستقبله، المقدمة ص: 5–20. و انظر علي عزت بيجوفيتش: الإعلام الإسلامي، موضوع: تخلف الشعوب المسلمة ص: 49–61.

[3] انظر له: تأملات ص: 187 و ما بعدها.

و ثرواته الطبيعية. و العامل الفكري الذي يحول بين الإنسان و بين أن يعتبر الزمان و المكان عنصرين من عناصر الحضارة، فينهض لاستثمارها فيما يعود على حياته المادية و الأدبية بالنفع، كما أن أفكاره هي التي تقعد به عن أن يدرك الغاية من وجوده في الحياة، كي يرتفع إلى مستوى الإسلام من جهة أخرى و يؤدي دوره و رسالته في الوجود[1].

و قصور رؤية الإنسان في العالم الإسلامي عن الوصول به إلى إدراك الغاية من وجوده في هذا الكون من ناحية، و عدم ارتباطه بالتراب ارتباطا قويا من ناحية أخرى[2] يجعلانه لا يلتفت إلى الوقت، و لا يعطيه في أنشطته و أعماله القيمة التي يتطلبها البناء الحضاري؛ لأنه لا يزال بعيدا عن أن يعتبر الوقت عنصرا من عناصر الحضارة و عاملا من عوامل تحقيق الشهود الحضاري.

و لذلك فإذا كانت البلدان العربية و الإسلامية، لم تستطع طيلة الخمسين سنة المنصرمة حل مشكلة ترابها و اقتصادها رغم محاولاتها المتكررة؛ فذلك لأن واضعي مشاريعها و المشرفين على تنفيذها، لم يأخذوا بعين الاعتبار مشكلة الوقت عند الإنسان، كي يجدوا لها حلا بالوسائل التي تستطيع تثبيت معناه المادي في نفسية الفرد و في روح المجتمع[3].

و الوقت باعتباره عنصرا من عناصر الحضارة و عاملا من عوامل التطور و التقدم لم تثبت فكرته في نفسية الفرد الغربي و في روح مجتمعه، و لم يصبح للثانية و الدقيقة و الساعة قيمتها و وزنها في أي عمل، إلا بعد مراحل قطعها الإنسان الغربي في اكتشاف و تطوير وسائله، و في تقسيم العمل و تنظيمه في نطاق المدة[4]، بحيث أصبحت جميع ألوان النشاط و العمل في كل حقول الحياة تنمو في حدود الزمن المادي و تقوم بساعات العمل[5] خاصة منذ ظهور نظرية تايلور الذي جعل من « فكرة

---

[1] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، موضوع: العوامل الداخلية ص: 69-98.

[2] انظر عبد الله شريط: الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون ص: 450، 451.

[3] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد ص: 16-19.

[4] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 34، 35.

[5] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد ص: 16، 17.

الزمن... [فكرة] أساسية... في تنظيم العمل في العالم الحديث »[1] و « جعل منها قاعدة جوهرية في التنظيم الصناعي في القرن التاسع عشر »[2].

أما في العالم العربي و الإسلامي فإن فكرة الزمن لم تثبت بعد ناهيك عن أن تنمو في نفسية الفرد و في روح المجتمع؛ لأن الوعي الاقتصادي الذي يجعل من الوقت عاملا من عوامل التطور و التقدم، لم يرق بعد عند الإنسان في عالمنا إلى نفس المستوى الذي هو عليه عند الإنسان في العالم المتحضر. و على الرغم من أن الإنسان في بلداننا يمارس نشاطا منظما في نطاق المدة، إلا أنه لا يزال غير مدرك لأهمية الوقت في البناء الحضاري.

و نظرا لسيطرة القاعدة التيلورية على جميع نواحي النشاط الإنساني في المجتمعات الغربية، فإن فكرة الزمن لدى شعوبها أصبحت جزء لا يتجزأ من ثقافتها اليومية[3] يلاحظها المهتم في سلوك الإنسان الذاهب إلى العمل الزراعي أو الصناعي أو التجاري أو الإداري أو التربوي في الموعد المحدد له كما يلاحظها على المنكب على العمل بحب و إخلاص، كما أنه يلمسها في أسلوب حياة المجتمع في تخطيط المدن و المزارع و في شق الطرقات و الأنفاق الجوفية و في تنظيم الوقت الذي تدل عليه حركة الإنسان المنتظمة التي تحتل الشوارع و تغادرها في ساعات محددة[4].

و باختصار معبر نقول إنه يلاحظها كما يلمسها في سلوك كل فرد من أفراد تلك المجتمعات في أسلوب حياة كل مجتمع من تلك المجتمعات.

و عملية لفت نظر الإنسان في العالم الإسلامي إلى قضية الوقت فيما يسعى إليه في الحياة بوجه عام، و تثبيت فكرته، و تنمية الوعي بها لديه و لدى الهيئة الاجتماعية،

---

[1] مالك بن نبي: فكرة الإفريقية الآسيوية... ص: 150.

[2] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص: 23.

[3] انظر مالك بن نبي: المصدر السابق ص: 36-39 ففي نظره أن مشكلة الوقت في العالم العربي و الإسلامي هي في الوقت ذاته مشكلة ثقافة لم يسع العالم العربي و الإسلامي بعد إلى تحقيقها في سلوك أفراده في أسلوب حياته بصورة عملية ص: 36، 37، 38، 39، 41، 42، 43، 73، 74.

[4] انظر مالك بن نبي: فكرة الإفريقية الآسيوية، موضوع: مشكلة الرجل الأفرسيوي ص: 70-87. وجهة العالم الإسلامي، موضوعا: حركة الإصلاح، الحركة الحديثة ص: 41، 66.

تحتاج إلى تربية شاملة[1]، ينبغي أن تنطلق ممارستها من الأسرة، لأنها هي المدرسة الأم التي يتلقى فيها الإنسان الأفكار و القيم و المبادئ الأساسية التي تحدد معالم شخصيته، و تطبع سلوكه و أسلوب حياة مجتمعه بالحيوية و النشاط أو بالخمول و الكسل، بالاهتمام أو بعدم الاهتمام، بالتوتر و الحركة أو بالفتور و الجمود[2]. كما ينبغي أن تتولى ممارستها بقية الوسائل الأخرى كالتلفاز و المذياع و المجلة و الكتاب و المدرسة و مركز التكوين و الورشة و المصنع و المسجد، و جميع الأمكنة التي يتلقى عنها الإنسان تكوينا معينا أو يمارس فيها وظيفة أو حرفة أو نشاطا معينا. إذ بهذه التربية الشاملة التي تشترك فيها جميع المؤسسات الفاعلة تستطيع البلدان العربية و الإسلامية تغيير معادلة الإنسان الاجتماعية في نظرتها إلى مسألة الوقت و في تعاملها معه، ليس على مستوى المدة التي يكون فيها الإنسان ملزما بإنجاز عمل معين فحسب، بل و على مستوى المدة التي يكون فيها غير ملزما بالقيام بأي عمل[3].

و بهذه الكيفية، و بتوظيف بعض التجارب الاجتماعية خاصة للشعوب التي جعلت من الوقت عنصرا من عناصر بنائها الحضاري و وسيلة من وسائل معالجة مشكلاتها الأدبية و المادية، و تحت إشراف و توجيه إرادة هادفة، يستطيع العالم الإسلامي أن يبث معنى الوقت، و يثبّت فكرته في نفسية الفرد و في روح مجتمعاته[4]، و ستكون حصيلة ذلك عند الطفل و المرأة و الرجل المسلم مدهشة، ليس فقط فيما يفرضه عليه واجبه الديني والوطني من استغلال للوقت واستثمار لأجزائه المختلفة، وإنما أيضا فيما يدفع إليه هذا المعنى الجديد للوقت من كفاح و تضحية، فيعمد الإنسان المسلم رجلا كان أو امرأة، كبيرا كان أو صغيرا، رئيسا كان أو مرؤوسا، متعلما كان

---

[1] انظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، موضوع: الشروط الأولية للتربية الاجتماعية ص: 102-115. و انظر له: بين الرشاد و التيه، موضوع: تغيير الإنسان ص: 49-54، و موضوع: وزن الوقت ص: 67-69. و المسلم في عالم الاقتصاد، موضوع: الأسس الحضارية لعالم الاقتصاد ص: 54-64.

[2] انظر مالك بن نبي: تأملات، موضوع: قيم إنسانية و قيم اقتصادية ص: 49-62. خواطر عن نهضتنا العربية ص: 175-202.

[3] انظر مالك بن نبي: من أجل التغيير، موضوع: في البناء الثقافي ص: 49-58.

[4] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، موضوع: المعادلة البيولوجية و المعادلة الاجتماعية للفرد في التجارب الحديثة ص: 90-96.

أو أميا، إلى تنظيم وقته فيخصص نصف ساعة يوميا تطوعا منه لتنفيذ مهمة منتظمة و فعالة... لمصلحة الحياة الإسلامية في جميع أشكالها العقلية و الخلفية و الفنية و الاقتصادية و المنزلية، الأمر الذي سيرفع من كمية حصادنا العقلي و اليدوي و الروحي و هذه هي الحضارة[1]. بل هذه هي السبيل التي ينبغي أن نسلكها للعودة إلى الحضارة.

و إذا استطاعت البلاد العربية و الإسلامية أن تحل مشكلة الوقت من الناحية النفسية و الثقافية؛ فإن حلها من الناحية الفنية أو التخطيطية يصبح في متناولها؛ لأن فكرة التخطيط للمشاريع الزراعية و الصناعية و التجارية و الثقافية و التقنية هي أصلا عملية تحديد للوسائل و تشخيص صحيح للغايات المنشودة من وضع هذه المشاريع قبل تحقيقها، الأمر الذي يجعلها تزرع الأمل في النفوس الطموحة و تبث فيها روح التضحية و العمل[2]، و بذلك تصبح فكرة التخطيط بالإضافة إلى الوسائل الأخرى عامل تأثير في الأوضاع النفسية و الاجتماعية لبلدان العالم العربي و الإسلامي.

بيد أنه لكي تؤثر فكرة التخطيط في مختلف الأوضاع التي تعيشها بلادنا العربية و الإسلامية تأثيرا إيجابيا ينبغي في نظر مالك بن نبي[3] « أن نربط بين مشكلة اليد و مشكلة العقل، أو بين مشكلة العمل و مشكلة الوقت... [لأن] الربط بين هذه المشكلات ... ضرورة تفرضها طبيعة العمل نفسه »، كما تفرضها طبيعة مشاكل التخلف التي تعاني منها بلداننا، فهي في الأساس نفسية و ثقافية الامر الذي يحتم على واضعي المشاريع التنموية النظر إليها من هاتين الزاويتين، كي تكون مخططاتهم فعلا « عملية تفكير مسبق في عمل محدد من ناحية... [و عملية] توقيت هذا العمل في مدة معينة و توزيعه على عدد معين من السنوات »[4] من ناحية أخرى فهذه النظرة هي التي تجعلهم يلتفتون في مخططاتهم إلى « مشكلة الربط الضروري بين العمل و الفكر من ناحية، و العمل و الوقت من ناحية أخرى [و ذلك] حتى تسير الوسائل بأسرع ما يمكن

---

[1] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 147.

[2] انظر مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 180.

[3] مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 181.

[4] مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 181.

إلى أهدافها، و تنتج أكبر ما يمكن إنتاجه في وقت معين »[1]. بل إنه إذا كان الهدف من فكرة التخطيط للمشاريع التنموية في أي بلد من البلدان الأفروسيوية هو « تحريك كل طاقاته الاجتماعية و موارده البشرية و المادية [بما فيها عامل الوقت] تحريكا يؤدي إلى خلق ديناميكية اجتماعية »[2]، فإنه ينبغي ألا تكون هذه الفكرة مستوحاة أو مفروضة من الخارج، بل يتعين، لكي تستطيع تحقيق هذا الهدف الأساسي في التنمية، أن تكون نابعة من ظروف هذه البلدان و إلا فإنها ستفقد معناها التقني و بالتالي تأثيرها النفسي الاجتماعي في هذه البلدان كما سبق أن فقدته في تجربة أندونيسيا و الجزائر[3].

و لذلك فإن عملية تحويل فكرة الزمن من معناها الميتافيزيقي الذي تتم في حدوده الآن جميع ألوان النشاط و العمل في العالم الإسلامي إلى معناها المادي الذي تصبح معه كل ثانية من ثوانيه و كل دقيقة من دقائقه ذات قيمة في أي نشاط أو عمل يمارسه الإنسان في بلداننا[4]، متوقفة على مصدر فكرة التخطيط من جهة، و على مدى قدرة واضعي خطط المشاريع على الربط بين هذه العملية و بين الوسائل التي تساعدهم على تغيير نظرة الإنسان إلى الوقت.

هذا و إن مراعاة ذلك في التخطيط أمر ضروري من شأنه أن يساعد على تحويل فكرة الزمن لدى الإنسان[5] و تمكينه تدريجيا من استغلال إمكانياته البسيطة المتمثلة في الزراعة، و فيما لديه من مواد أولية في السوق، و ما في باطن الأرض، و فيما لديه من طاقات عضلية و عقول فنية في تحقيق اقتصاد الكفاف أولا ثم في تحقيق اقتصاد التنمية ثانيا[6]، و بهذه الكيفية تتخلص البرامج التنموية في البلدان العربية

---

[1] مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 181.

[2] مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 181.

[3] مالك بن نبي: من أجل التغيير، موضوع: التخطيط و التخطيط الدقيق ص: 29-35.

[4] أي أن الإنسان المسلم و هو يدرك جيدا أن الدنيا مزرعة الآخرة، لن يكون تقويمه للمنتجات التي ينتجها بجهده المادي و العضلي إلا تقويما فنيا بعيدا عن المنطق المادي الجاري به العمل الآن في البلدان الغنية في تعاملها مع الإنسانية و القائم على فكرة الربحو الخسارة و بالتالي فإن وفرة إنتاجه ستكون سببا في رخاء الإنسانية و في سعادتها و ليس في شقائها. انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، موضوع: فوضى العالم الغربي ص: 111-128.

[5] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، موضوع: صورة العلاقات الاقتصادية الراهنة في العالم ص: 15-34.

[6] انظر مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص: 116.

و الإسلامية من شروط المؤسسات المالية العالمية[1] من جهة، و يتحقق شرط الفاعلية[2] الذي ينقص الإنسان في العالم الإسلامي من جهة أخرى، و من ثم لا يكون الإنسان المسلم ملزما لإثبات صحة صلاحية فكرته الإسلامية للحياة المعاصرة، بالمنطق الفلسفي و الأخلاقي، و إنما يكون إثبات ذلك بالأفكار العملية التي تنهض بالسياسة و الاقتصاد ميدانيا[3]؛ لأن الفاعلية التي يتطاول بها الإنسان الغربي على الإنسان المسلم في ميادين الحياة السياسية و الاقتصادية و الفكرية و العسكرية، ليست ميزة خاصة بهذا الإنسان، و إنما هي نتيجة سيادة وسط ثقافي –« ينتج أقوى الدوافع و أقوم التوجيهات و أنشط الحركات »[4]– على مجتمع « يخضع فيه كل شيء إلى المقياس الدقيق للكم و الكيف، و يتسم فيه الفرد أول ما يتسم بمميزات الضبط و الملاحظة »[5]، هذا الوسط هو الذي يدفع الإنسان الأوربي بصفة عامة و الإنسان الفرنسي بصفة خاصة إلى استغلال أوقات فراغه، فهو « ما إن يخرج من مكتبه أو مصرفه حتى يصير في بيته نجارا و حدادا و كهربائيا و مصلح أقفال و مفاتيح، فتراه يدق أو يخرم ثقبا في حائط. فلعله بذلك يصنع شيئا يكلفه أكثر من ثمنه لو اشتراه جديدا، أو كلف به صاحب المهنة، و لكنه يبرهن بذلك على أنه رجل الحضارة التكنية التي تحلل.. الذرة و ترسل الصواريخ و لا ريب أن الأطفال ينشؤون في هذا الاتجاه منذ صغرهم »[6]، و لا يمكن لمن يولد أو يعيش في وسط مجتمع كهذا إلا أن يجعل من عنصر الوقت عملة تتدخل في تسيير كل شيء.

و من هنا يتضح أن مشكلة الوقت الضائع عند الإنسان الأفروسيوي؛ هي مشكلة ثقافة لم يتحدد بعد مفهومها في البلاد العربية و الإسلامية، نتيجة الخلط الشائع فيها بين مفهوم العلم و بين مفهومها، هذا بالإضافة إلى عدم إدراك الإنسان في هذه البلدان العلاقة التي تربط بين الثقافة و الحضارة[7]. فإن كان « كل واقع اجتماعي – [سواء ذلك

---

[1] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، موضوع: الاستثمار المالي و الاستثمار الاجتماعي. ص: 73–78.

[2] انظر مالك بن نبي: تأملات، موضوع: الفعالية ص: 125–138.

[3] انظر مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص: 111، 112، 113.

[4] مالك بن نبي: تاملات ص: 38.

[5] مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن ص: 219.

[6] مالك بن نبي: المصدر السابق ص: 221، 222.

[7] انظر: ميلاد مجتمع ص: 94–101.

الذي أشرنا إليه آنفا أو كالذي نتحدث عنه هو] – في جذوره ... قيمة ثقافية معينة محققة في واقع الإنسان، و في الإطار أو المنظر الإنساني الذي يحوطه... [فإن] أي تفكير في مشكلة الحضارة هو أساسا تفكير في مشكلة الثقافة »[1]، و لما كان الوقت مادة أولية لا يعرف الإنسان المسلم كيف يتصرف فيها بحكمة و فاعلية؛ فإنه لكي نلفت نظره إلى أهمية و ضرورة الوقت في معالجة مشكلاته الحضارية؛ فإنه ينبغي أن نسخر كل الوسائل التي تغير نظرته و موقفه السلبيين من الوقت « و من أجل تغيير الإنسان [المسلم] يجب أن نغير وسطه الثقافي، بإنشاء (محيط) جديد »[2]، يكتسب فيه تدريجيا قيما و أذواقا و أخلاقا جديدة تمكنه من التصرف في الوقت و في بقية الوسائل بحكمة و فاعلية.

و تغيير الوسط الثقافي في البلدان العربية و الإسلامية، هو الذي يجعل الإنسان يعرف قيمة الثروة الأولية التي وضعتها العناية الإلهية تحت تصرفه، و في الوقت ذاته يجعله يدرك أن ميزانية التاريخ التي ضاعت منه بعد أن تنكب لأسباب[3] داخلية و خارجية عن الطرق[4] المؤدية إلى تحصيلها أو التي يتطلع إلى تحقيقها في ظروفه الراهنة « ليست رصيدا من الكلام و من أعداد الكلمات بل هي كتل من النشاط المادي، و من الأفكار التي لها كثافة الواقع و وزنه و [أن] هذه الميزانيات المكونة من صنوف النشاط الإيجابي في الحقيقة ميزانيات من القيم الثقافية »[5] بل إنه مع هذا التغيير سيدع الحديث عن ... جانبا و يشرع في أداء واجبه اليومي، كي يستدرك ما فاته بالعمل لا بالكلام أو أحلام اليقظة، لأن العمل « هو الذي ... مصير الأشياء في الإطار الاجتماعي »[6]، و هو الذي يضيف كل ساعة و يوم رقما جديدا إلى ميزانيته الأدبية

---

[1] مالك بن نبي: فكرة الإفريقية الآسيوية ص: 135.

[2] مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 137.

[3] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، موضوع: فوضى العالم الإسلامي الحديث: الأسباب الداخلية و الخارجية ص: 69-108.

[4] و هي طريق تقديم الواجب، و طريق العمل الجماعي و طريق مواجهة المشكلات بنفوس مستبشرة، و طريق الرؤية الواضحة الشاملة لمشكلات الحضارة، و طريق التوجيه المنهجي للنهضة، و طريق الإرادة الحضارية في استثمار ما هو موجود لخلق ما يجب أن يكون، و طريق النظرية المحددة للأهداف و الوسائل.

[5] مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية... ص: 146.

[6] مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 114.

و المادية، و مع أن العمل في نظر مالك بن نبي[1] « ليس عنصرا أساسيا كالإنسان و التراب و الوقت [في البناء الحضاري] إلا أنه يتولد من هذه العناصر الثلاثة لا من الخطب الانتخابية أو الوعظية ».

و لقد كان الشعب الألماني يعرف قيمة الوقت في إعادة بناء كل ما دمره الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، و لذلك لم يشرع في الكلام و إنما شرع في العمل فأخذ يشيد من جديد مدنه و معامله و مصانعه، مستثمرا وقته و جهده و فكره في ذلك، فتم له ما أراد خلال عشر سنوات فقط من انتهاء الحرب العالمية الثانية « و لو أننا حللنا تلك المعجزة لوجدنا فيها عوامل شتى لا سبيل إلى إنكارها، من بينها الاقتصاد في الجهاز الإداري و في التكاليف الإدارية، فقد أصبح كثير من أعمال الحكومة يقوم بها أفراد الشعب كواجب عليهم، و لكن العامل المهم من هذه العوامل جميعها هو الزمن. فقد فرضت الحكومة عام 1948م على الشعب الألماني كله- نساء و أطفالا و رجالا- التطوع يوميا بساعتين، يؤديها كل فرد زيادة على عمله اليومي بالمجان من أجل الصالح العام فقط... فهذه المعجزة الاجتماعية التي أتت بها ألمانيا، قد كان للزمن في إخراجها حظ موفور، و يمكننا أن ندرك قيمة الوقت مباشرة في عودة الحياة الاجتماعية و الاقتصادية لشعب لم يبق لديه من الوسائل إثر الحرب الثانية إلا لعناصر الثلاثة: الإنسان، و التراب، و الوقت »[2] و إرادة هذا الشعب في استخدامها.

و حين يعي الإنسان المسلم قيمة الوقت، كما كان يعيها جيل الصحابة و التابعين و تابعي التابعين -رضي الله عنهم أجمعين-، أو كما برهنت على الوعي بقيمته و أهميته في العصر الحديث المعجزة الألمانية أو الصينية، و يحرص على استخدامه و استثماره في شبكة من العلاقات الاجتماعية تتكاثف و تتكاثف فيها جهوده العقلية و العضلية بغية إحداث نهضة شاملة تطال النواحي الأدبية و المادية؛ فإنه سيتمكن كما تمكن أسلافه أو كما تمكن الشعب الألماني و الصيني من حل سائر مشكلاته الحضارية؛ لأنه يحرصه على الوقت و استثمار أجزائه في العمل المتواصل على وجه

---

[1] المصدر نفسه ص: 114.

[2] مالك بن نبي: المصدر السابق ص: 148.

العموم و في العمل الجماعي[1] على وجه الخصوص، يستطيع تغيير أوضاعه النفسية، كما غيرتها الفكرة الإسلامية عند عمار بن ياسر و سلمان الفارسي[2] أو كما غيرتها الثورة الثقافية[3] عند الإنسان الروسي أو الصيني، و ســـ « يكون العمل المشترك أولا و قبل كل شيء المدرسة التي تكوّن المسلم الجديد، الذي يستطيع مواجهة كل الظروف الاستثنائية، مثل التخلف؛ لأن مدرسة العمل المشترك تعلمه أن الإرادة إذا حركت الإنسان تجعله يكتشف الإمكان. فالوطن أو المجتمع المسلم الذي يتحول إلى ورشة سرعان ما يكتشف أن الإمكان الذي ينتظره من في يد الآخرين لتغيير مصيره في يده منذ الآن. إن الإرادة تكتشف الإمكان »[4].

و بهذا و بتوجيه الثقافة و العمل و رأس المال « يكون الفرد [في البلاد العربية و الإسلامية] قد استكمل الشروط الضرورية لتشييد حضارة تطابق إطاره الخاص »[5]، بل إنه مع هذا و مع حرصه على إعادة الفاعلية أو الوظيفة الاجتماعية للفكرة الإسلامية، لن يكون قد تمكن من إحداث تغيير جذري في إرادته و اتجاهه، لاستغلال و استثمار كافة العوامل الأولية في الارتقاء بحياته المعنوية و المادية فحسب، و إنما يكون في الوقت ذاته قد تمكن من تغيير نظرة الإنسان الغربي إليه و إلى الإسلام[6]، كما تمكن من قبل سلفه الإنسان العربي البدوي من تغيير نظرة الإنسان الفارسي و الرومي إليه حين أسلم و أصبح صاحب دور في الحياة و حامل رسالة حضارية يبلغها إلى الإنسانية جمعاء[7].

---

[1] يقول مالك بن نبي: « ... و لم أكن أعلم إذ ذاك [حوالي عام 1931م] أن العمل الجماعي بما يفرض من تبعات، إنما هو من المقومات الأساسية التي فقدها المجتمع الإسلامي ثم لم يسترجعها بعد، خصوصا بين مثقفيه، و كنت أجهل أيضا فيما يخص شخص، صديقي – [حمودة بن الساعي] – أنه كان يعاني حالة عدم اتزان مشؤوم يجمع بين طموح جبار و إرادة واهية، فقد كان طموحه يعرقله عن العمل المشترك الخاضع للإرادتين، و ضعف إرادته يعطله عن العمل الفردي المتواصل » . مذكرات شاهد القرن ص: 235.

[2] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 60، 61.

[3] انظر المسلم في عالم الاقتصاد ص: 39، 77، وانظر: بين الرشاد و التيه ص: 41.

[4] مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد ص: 82.

[5] مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 122.

[6] انظر مالك بن نبي: دور المسلم و رسالته... ص: 36-62.

[7] انظر روجيه غارودي : الإسلام الحي، ترجمة: دلال بواب ضاهر، محمد كامل ضاهر، دار البيروني للطباعة و النشر بيروت لبنان الطبعة الأولي لعام 1995م، موضوعا: النظرة الإسلامية للنمو، الإسلام و مستقبل الإنسانية ص: 115-150.

و إذا كان الإنسان في البلدان العربية و الإسلامية لا يزال يجهل قيمة وسائله الأولية[1]: الوقت و التراب، كما أنه في الوقت نفسه لا يزال يجهل أهمية المبادئ و الأفكار التي توطد شبكة العلاقات الاجتماعية، داخل هذه البلدان و فيما بينها، و تؤمن بقاءها و تحفظ شخصيتها من الميوعة و الانهيار[2]، فإن هذه البلدان لا يمكنها أن تحقق سيادة فعلية على ترابها و ثرواتها الطبيعية، و استقلالا تاما في اتخاذ قراراتها المصيرية؛ لأن السيادة و الاستقلال مرتبطان بمدى وعي الإنسان بقيمة هذه الوسائل و إرادته في استخدامها من ناحية، و بمدى قدرة الفرد و الهيئة الاجتماعية على مراعاة المبادئ و القيم و الأفكار التي توثق الصلات بين كافة الطاقات الاجتماعية، و تكتل جهودها العقلية و العضلية و تدفع بها إلى استخدام و استثمار هذه الوسائل في عملية البناء الحضاري من ناحية أخرى[3].

و لذلك؛ فإنه لكي يعي الإنسان في عالمنا الإسلامي قيمة وسائله الأولية، و يلتفت إلى ظاهر التراب و باطنه، و إلى دقائق الوقت و ساعاته، و شهوره و أعوامه، و يستغلها فيما يتطلبه منه تجديد الحضارة الإسلامية؛ يتعين على القوى الفاعلة في هذه البلدان أن تستغل الظروف الراهنة، و تسخر كافة الوسائل المتاحة لإحداث نفير حضاري يجمع بين صحوة الضمير و يقظة العقل و بين التوجيه السديد لحركة الأفكار و الأعمال نحو الغايات المنشودة، في أسرع وقت و بأقل جهد و بما أمكن من وسائل[4].

و عندئذ لا يمكن للإنسان المسلم أن يشعر بعقدة النقص و الدونية إزاء إنسان

---

[1] انظر مالك بن نبي: بين الرشاد و التيه، موضوع: نشتري أم نصنع ص: 189-196.

[2] انظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، موضوعا: شبكة العلاقات الاجتماعية و الاستعمار ص: 82-93، دفاع عن شبكة العلاقات الاجتماعية ص: 94-101.

[3] انظر مالك بن نبي: تأملات، موضوع: كيف نبني مجتمعا أفضل ص: 153-183.

[4] انظر مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص: 67. و لتوضيح معنى النفير الحضاري الذي ينبغي أن يجمع بين صحوة الضمير و يقظة العقل و بين التوجيه السديد انظر مالك بن نبي: شروط النهضة، موضوعا: المعامل الاستعماري ص: 149-155. معامل القابلية للاستعمار ص: 156-160. و انظر له: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، سوريا- دمشق، الفصل الثالث ص: 61 و ما بعدها و الفصل السادس ص: 117 و ما بعدها. و انظر عبد المجيد عمر النجار: عوامل الشهود الحضاري، الفصل الرابع ص: 187-245. و انظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى، موضوع: مشكلة المفهومية ص: 91-129.

الشمال، بل سيشعر إزاءه كما شعر سلفه الصالح[1] إزاء الفارسي و الرومي باستعلاء أساسه الإيمان بالواحد الأحد ربا و بالإسلام دينا و بمحمد- صلى الله عليه و سلم- نبيا.

و إذا كان تثييب فكرة الزمن في العقل الإسلامي يستوجب في نظر مالك بن نبي أن نعلم الفرد المسلم تخصيص نصف ساعة يوميا لأداء واجب معين لمصلحة البلاد الإسلامية؛ فإنه بالإضافة إلى ذلك يجب أن يستغل المهتمون في العالم العربي و الإسلامي بعلاج مشكلات الإنسان الحضارية، حرص بعض فئاته على الوقت في الحضور للصلاة الجماعية في أوقاتها المعلومة أو في حرصها على اغتنام فرصة الأوقات التي لها فضل في الذكر و التسبيح أو في الصلاة و الصيام المتطوعين، مع تهاونها في الحرص عليه في العمليات الاجتماعية المنوطة بها، و ذلك ليرسخوا فكرته عند هذه الفئة الحريصة عليه في جانبه الروحي الأخروي من جهة، و ليبثوا فيها معناه الاجتماعي الذي ينقصها من جهة أخرى و لكي يتمكنوا من إقناع هذه الفئة بأهمية إنفاق الوقت في الزرع و الغرس و الصناعة و التجارة و التربة و التعليم للنهوض بالمجتمع و تحقيق استقلاله الاقتصادي لتدعيم استقلاله السياسي المهدد، فإنه يتعين عليهم إجراء موازنة بين ما يعود على المجتمع من نفع من الأوقات التي يقضونها في الذكر و التسبيح أو في الصلاة و الصيام[2]، و ما يعود عليه من الأوقات التي يقضونها في تعلم حرفة أو إصلاح قطعة أرض أو محرك أو بناء مسكن و تحضير درس أو تعليم

---

[1] انظر محمد الغزالي: كيف تتعامل مع القرآن، دار الانتفاضة للنشر و التوزيع الجزائر... ص: 148، 149.

[2] و إذا كان يخيل إلى هذه الفئة أنها بحرصها على إنفاق معظم أوقاتها في الذكر و التسبيح أو في التهجد و الصيام، تؤدي رسالتها الإسلامية فإنه مع إجلالنا لما تقوم به نقول إن فهمها لمعنى العبادة في الإسلام كما تقرره نصوص القرآن و السنة لا يزال قاصرا، و هي لذلك في حاجة إلى من يذكرها بالقول، بل بالفعل بهدي النبي – صلى الله عليه و سلم- : " أن من بات كالا من عمل يده بات مغفورا له"، و أن " اليد العليا خير من السفلى". و يذكرها بأن المتخلفين « حضاريا و اقتصاديا- حين يمدون أيديهم للأخذ- لا يجوز لهم أن ينتظروا إعجاب الآخرين بهم، أو دخولهم في دينهم... و أن الذين يفهمون الروحانية على أنها لون من الخدر النفسي، و الغيبوبة الفكرية، أناس لا يعرفون الإسلام، بل هم أعداء له أولى منهم بالله و كتابه ناس يغبر أيديهم و جباههم تراب الحقول أو دخان المصانع أو الركض في الأسواق... يجعلون حراكهم الدائم إعلاء لكلمته، و سياجا لشريعته، و ذخيرة يلقونه بها يوم الحساب... و لو أن السلف الصالح الأول وجد الآن ما تراه إلا جنا يركب البحار و يتربص داخل غواصة أو حاملة طائرات. كل ما يفرقه عن الآخرين الآن، أنه في عمله يسجد لمن تسبح الأمواج باسمه و يحل حلاله و يحرم حرامه و يرجو ثوابه و يخاف عقابه... تلك هي الروحانية التي يعرفها ديننا... » محمد الغزالي: المحاور الخمسة للقرآن الكريم، دار الهدى للطباعة و النشر، عين مليلة-الجزائر، ص: 86،87.

شخص. خاصة إذا كانت هذه الموازنة معززة بأمثلة من سيرة السلف الصالح الذي لم يكن ذكره و تسبيحه أو صلاته و صيامه ليصرفه عن استغلال وقته في ممارسة أي نشاط يحفظ عليه كرامته و يرفع مكانة أمته بين الأمم[1].

و ما كان للمسلمين في عهد التنزيل و بعده لو أنهم فهموا الإسلام كما تفهمه هذه الفئة أو كما تسعى إلى عزله عن الحياة فئة أخرى، أن يؤثروا في الوسط الجاهلي الذي كان يحوطهم و يضيق عليهم و يغيروه « لو أنهم بدلا من أن يدعوا إلى تحقيق مثلهم الأعلى بالطرق العملية، اكتفوا بصلاة داخل مسجد من أجل تحقيقه »[2]، و لكنهم لم يفهموا الإسلام على أنه دعوة إلى الانقطاع عن الدنيا و إنما فهموه على أنه دين يدعوا إلى حرث الدنيا و حرث الآخرة، لذلك كانوا ينهضون مبكرين لأداء صلاة الفجر و الصبح و هي من حرث الآخرة ثم ينطلقون إلى حرث الدنيا في بقية الأوقات التي تعقب كل صلاة مفروضة، فتمكنوا بذلك في ظرف ربع قرن من هزم الإمبراطوريتين: الفارسية و الرومية[3]. و من بناء و تشييد حضارة عمرت قرونا.

و يتضح مما كتبه مالك بن نبي أن حل مشكلة الوقت التائه في العالم الإسلامي مرتبط بحل مشكلة التراب السائب، فإذا ربطنا بين المشكلتين في خطة محكمة عامة للنهضة المأمولة، و جندنا لها الوسائل المتاحة؛ فإننا نستطيع بمرور الزمن حل مشكلة التراب السائب، و ذلك بإعادة توطيد الصلة بين الإنسان المسلم و بين الأرض، لأنها

---

[1] انظر عفت الشرقاوي: في فلسفة الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية للطباعة و النشر لبنان- بيروت- الطبعة الثالثة لعام 1951م موضوع: الإنسان في المجتمع الإسلامي ص: 306-311.

[2] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ص: 113.

[3] انظر محمد الغزالي: الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، دار الكتب الجزائر، موضوع: ميراث الأرض لمن؟ ص: 153-169. و في هذا الشأن يقول مالك بن نبي في " الظاهرة القرآنية" ص: 138، 139: « لم يصنع نفوسا مؤمنة تقية فحسب، و إنما صنع عقولا مستنيرة و طرق إرادات فولاذية، إنه ينمي الشعور بالمسؤولية، و يشجع المبادأة في كل إنسان، و يعظم الفضيلة في أبسط صورها و إن التأسي و المسارعة لهما رائد كل عضو في الجماعة، إذ يرى نفسه في سباق إلى الخير بحسب أمر القرآن. [إشارة إلى الآية رقم: 134 سورة آل عمران] و عندما قاد النبي – صلى الله عليه و سلم- أصحابه إلى (تبوك) كانت نيته تبدو أبعد كثيرا من هذا الهدف المتواضع، فهو يعبر الصحراء العربية في حمارة القيظ مضطرا رجاله العطاش، الذين أضناهم التعب، أن يستمروا في طريقهم دون أن يحطوا رحالهم عند (آبار مدين) [مكان قريب من معان] لم يكن هذا من الفن الحربي فحسب، و لكنه كان من التربية العالية، و إن هذا المسير الذي لم يسمع بمثله في منظره الهائل ليكشف – زيادة على ذلك- عن عملية تدريب مدني و نفسي في آن واحد لإعداد الجيش الإسلامي كيما يواجه عن قريب الأسفار و العقبات في جميع أرجاء العالم ».

الآن صلة واهية[1]، و من شأن هذه الصلة الموطدة بين الإنسان و الأرض أن تفرض عليه العمل المتواصل المنظم في الورشة و المنجم و في المزرعة و المصنع و في الإدارة و المخبر و في كل الحقول الاجتماعية، و بهذا العمل المنظم المتواصل تحل مشكلة الوقت[2]؛ لأنه عندئذ سيصبح في نظر الإنسان المسلم مادة أولية لا يجوز له التهاون أو التفريط فيها، خاصة في هذه الظروف الصعبة التي يمر بها العالم الإسلامي.

و ليس من الصعب أو المستحيل أن يحدث في الظروف الراهنة التي تعيشها البلدان العربية و الإسلامية نفير حضاري؛ لأن عوامله الداخلية و الخارجية أخذت تهيء الإنسان في هذه البلدان لأن يستنفر كما هيأت من قبل الإنسان المسلم و استنفرته حين وجد أمته الفتية أمام خطر زحف جيوش الأحزاب على المدينة المنورة – بتأليب من اليهود لكل القبائل العربية كما هو أمر المسلمين الآن مع السبئية الحديثة– و لم يكن لها من العدد و العتاد ما يمكنها من صد هذا الزحف إلا فكرها و جهدها، و لذلك و بعد أن أشار عليها سلمان الفارسي بحفر خندق حول المدينة، بادرت إلى العمل الفوري بوسائلها البسيطة، فأنجزته في أوجز مدة زمنية، إدراكا منها لما للوقت في مثل هذه الظروف الصعبة، و لما للعمل الجماعي من أهمية في إنقاذ المدينة؛ لأنه حين يكون الوقت « ضروريا للمحافظة على البقاء أو لتحقيق الخلود على الأخطار، يسمع الناس فجأة صوت الساعات الهاربة و يدركون قيمتها التي لا تعوض »[3]. و ما أحوج الإنسان المسلم الآن تلك الروح التي دفعت بأولئك الأبطال إلى ذلك العمل الشاق، و إلى ذلك الإدراك الذي جعلهم يعتبرون الوقت عاملا من عوامل حسم المعركة، فيندفع كما اندفعوا و يسارع كما سارعوا إلى اغتنام كل دقيقة في الفكر و العمل لحسم معركته لا مع الاستعمار بل مع القابلية للاستعمار[4].

---

[1] انظر عبد الله شريط: الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون ص: 450.

[2] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، موضوع: الاتصال الأول ص: 34–38. و انظر عبد المجيد عمر النجار، فقه التحضر ص: 20، 21.

[3] مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 146.

[4] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، موضوع: العوامل الداخلية ص: 69–98.

و مع كل ما للوقت من أهمية في البناء الحضاري إلا أنه يجب التنبيه إلى أن الدعوة إلى الالتفات إلى الوقت و اعتباره عنصرا من عناصر الحضارة، ليست دعوة مطلقة من كل قيد أو شرط بل هي دعوة مقيدة؛ لأنه « إذا كان ينبغي على البلاد الإسلامية أن تعرف كيف تقدر في ثقافتها الحاضرة ... الآثار السلبية للتفريط بقيمة الزمن في نشاطها، فإن عليها بالمقابل أن لا تغلو في الإفراط في تقديره، حيث نستطيع أن نرى سهولة نتائجه السلبية في البلاد الصناعية »[1] .

و ختاما للحديث عن الأسس المادية لفكر مالك بن نبي في مشكلات الحضارة أو ختاما للحديث عن العدة الدائمة[2] كما يسميها مالك بن نبي، لأي شعب يتأهب للانطلاق في بناء حضارة، و تمهيدا للحديث عن الأسس المعنوية لفكره في مشكلات الحضارة، فإنه يتعين علينا أن نعيد طرح السؤال الذي طرحه مالك بن نبي أكثر من مرة في بعض كتبه، و هذا السؤال هو: إذا كانت الحضارة، سواء حين نعمد إلى جمع كل منتجاتها جمعا أفقيا أو عموديا أو حين نحلل حاصل عملية الجمع ننتهي إلى تقرير الصيغة التالية: حضارة = إنسان + تراب + وقت؛ فإنه إذا كانت صيغة التقرير من الناحية النظرية صحيحة فلم لا يوجد هذا الناتج من تلقاء نفسه حيثما توافرت هذه العناصر الثلاثة[3] ؟! تلك هي الإشكالية.

و لذلك و قبل الإجابة على السؤال الذي يطرحه مالك بن نبي دائما كلما أراد الحديث عن مشكلة الحضارة و عن الفرق الجوهري بين عملية البناء و بين عملية التكديس، فإنه ينبهنا قائلا[4]: « إن المعادلة التي انتهينا إليها ليست صحيحة إلا بشروط بينها التاريخ؛ لأنه هو مختبر التجارب و العمليات الاجتماعية »، أي أن الحضارة و إن كانت من حيث التحليل تساوي إنسان + تراب + وقت؛ فإن هذه العناصر الثلاثة لا يمكن أن « تمارس مفعولها [و هي] ضمن حالة شتيتة، و لكن ضمن تركيب متآلف

---

[1] مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص: 23.

[2] انظر شروط النهضة ص: 67.

[3] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 49، 50. و انظر تأملات ص: 199-201.

[4] المصدر نفسه ص: 200.

يحقق بواسطتها جميعا إرادة و قدرة المجتمع المتحضر. و إذن مشكلة هذا التركيب المتآلف هي التي توضع أمامنا»[1].

و لتوضيح مشكلة التركيب المتآلف و في الوقت ذاته للإجابة على السؤال الآنف الذكر يلجأ مالك بن نبي إلى رجل الكيمياء ليقتبس منه طريقته في تحليل مادة الماء فيقول: « و إنه لعجب يزيله اقتباسنا للتحليل الكيمياوي: فالماء في الحقيقة نتاج للهيدروجين و الأكسجين و [لكن] على الرغم من هذا فهما لا يكونانه تلقائيا؛ فقد قالوا إن تركيب الماء يخضع لقانون معين يقتضي تدخل (مركب) ما، بدونه لا تتم عليه تكوّن الماء،

و بالمثل لنا الحق في أن نقول: إن هناك ما يطلق عليه (مركب الحضارة) أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض »[2].

و إذا كانت عينة الماء أو أي عينة من عينات منتجات الحضارة كالورقة أو السيارة عندما يجري عليها أهل الاختصاص عملية تحليل تنتهي إلى كمية من غاز الهيدروجين و كمية من غاز الأوكسجين أو إلى إنسان و تراب و وقت[3]؛ فإن عملية إعادة تركيب هذه أو تلك لا يمكن أن تتم كما دلت على ذلك التجارب العلمية

و الاجتماعية دون إخضاعها لقانون التركيب الذي يتدخل بالنسبة للعينة الأولى في صورة شرارة كهربائية أو عملية تبخر، و يتدخل بالنسبة للعينة الثانية في صورة وحي يهبط من السماء أو في صورة فكرة إيديولوجية من وحي الإنسان[4].

و لذلك و انطلاقا من تجربة النهضة العربية الإسلامية، و من تجربة النهضة في اليابان و في الصين الشعبية و في كوريا الشمالية و في المانيا بعد الحرب العالمية الثانية[5]، فإنه يجدر بالدول العربية و الإسلامية، أن تراجع أفكارها المتعلقة بالتنمية المادية و المعنوية حتى يتسنى لها في ضوء ذلك تقويم مسيرة قرن و نصف مرت من

---

[1] مالك بن نبي: القضايا الكبرى ص: 57.

[2] مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 50.

[3] انظر مالك بن نبي: المصدر السابق ص: 49، 50.

[4] انظر مالك بن نبي: تأملات ص: 198-201. و انظر شروط النهضة ص: 56، 57. إن مالك بن نبي يعتبر الشيوعية من الناحية التاريخية؛ أزمة للحضارة المسيحية و لكنه من الناحية النفسية الواقعية يعتبرها نشاط المؤمنين المدفوعين بالقوى الداخلية... التي دفعت غيرهم من المؤمنين في مختلف العصور. انظر نفس المصدر ص: 60.

[5] انظر مالك بن نبي: تأملات، موضوع: خواطر عن نهضتنا العربية ص: 175 و ما بعدها.

النشاط النهضوي دون طائل بغية حصر نقاط القوة و نقاط الضعف في الأمة الإسلامية[1]،و استغلال الأولى في المشروع النهضوي المأمول و العمل للتغلب على الثانية[2].

و في الوقت نفسه يجدر بها أن تعيد النظر في أفكار مشروع مالك بن نبي الحضاري، خاصة تلك المتعلقة بالأسس المعنوية: الدين، الثقافة، التوجيه، أو تلك المتعلقة بالأسس المادية: الإنسان، التراب، الوقت، و محاولة قراءتها في ضوء نتائج تجربة النهضة العربية الإسلامية على مدى قرن و نصف قرن من جهة، و في ضوء نتائج تجارب نهضة الأمم التي أشرنا إليها آنفا من جهة أخرى و ذلك لتتأكد من مدى صحتها أو عدم صحتها من ناحية و مدى إمكانية الاستفادة منها أو عدم إمكانية الاستفادة منها من ناحية أخرى.

و لا شك أن قراءتها لأفكار مالك بن نبي حول المشروع الحضاري المستقبلي في ضوء نتائج تجارب النهضات التي يشير إليها كلما أراد الحديث عن النهضة في العالم العربي و الإسلامي و عن العوامل النفسية و الفكرية التي أثرت في سيرها و اتجاهها، ستنتهي إلى نتيجتين:

1- إما إلى أن هذه الأفكار و إن كانت صادقة، فإنها أصبحت غير صالحة.

2- و إما إلى أن هذه الأفكار صادقة و في نفس الوقت صالحة. فإن انتهت من هذه القراءة إلى النتيجة الثانية؛ فإنه يصبح من الضروري عليها أن تأخذ بهذه الأفكار في عملية البناء الحضاري، و أن تعيد النظر خاصة في الفكرتين الجوهريتين اللتين تتمحور حولهما سائر أفكار مالك بن نبي.

1- فكرة الدين[3] الذي يعتبره مركب القيم الاجتماعية: الإنسان و التراب و الوقت، و التي على أساسها يرى أن لا حل للمشكلة الإسلامية إلا بإعادة الاعتبار له في

---

[1] انظر محمد عبد المنعم: عصر التنمية و التخطيط و تقويم المشروعات في الاقتصاد الإسلامي، دار الوفاء للطباعة و النشر و التوزيع، السعودية، الطبعة الأولى لعام: 1992م ص: 9-38.

[2] انظر مالك بن نبي: تأملات، موضوع: كيف نبني مجتمعا أفضل ؟ ص: 153-173.

[3] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 26-28، و انظر له: ميلاد مجتمع ص: 54-58، و انظر له: تأملات ص: 201.

سائر قضايا الأمة الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية و ذلك بإعادة الفاعلية لكافة أجنته الاجتماعية[1].

2- و فكرة الاعتماد على النفس لتطبيق مبدأ الاستثمار الاجتماعي[2] للإنسان و التراب و الوقت، فذلك هو ما نستطيعه، قبل الاعتماد على الغير و تطبيق مبدأ استثمار أمواله بشروطه. لأن القيم الاجتماعية هي الأصل في التنمية بوجه عام و في التنمية الاقتصادية بوجه خاص، و هي التي تخلق القيم الاقتصادية و تطورها، و لذلك ففي نظره؛ فإنه لكي نستطيع أن نحل سائر مشكلاتنا الحضارية بما فيها المشكلة الاقتصادية ينبغي ألا نبدأ بالوسائل التجهيزية بل ينبغي أن نبدأ بحل مشكلة الإرادة الحضارية و الوعي الاقتصادي[3] المفقودين عند الإنسان في بلداننا العربية و الإسلامية، فهما السبب و الاقتصاد نتيجة و لا يمكن في العقل و المنطق أن تسبق النتيجة السبب.

---

[1] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 65.

[2] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد ص: 73 و ما بعدها، و انظر له: تأملات، موضوع: قيم إنسانية و قيم اقتصادية ص: 49 و ما بعدها.

[3] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، موضوع: الأسس الحضارية لعالم الاقتصاد ص: 59 و ما بعدها.

الباب الثاني: الأسس المعنوية لفكر مالك بن نبي في مشكلات الحضارة: الدين، الثقافة، التوجيه.

الفصل الأول: الأفكار و الحضارة.

الفرع الأول: الفكرة الدينية و الحضارة.

الفرع الثاني: أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة.

الفرع الثالث: إعادة الفاعلية للفكرة شرط أساسي لحل المشكلة الإسلامية.

الفصل الثاني: الثقافة و الحضارة.

الفرع الأول: تحديد مفهوم الثقافة.

الفرع الثاني: كيف تحقق الثقافة بصورة عملية؟

الفصل الثالث: التوجيه الحضاري للإنسان: المعنوي و المادي.

الفرع الأول: التوجيه المعنوي.

الفرع الثاني: التوجيه المادي.

الباب الثاني: الأسس المعنوية لفكر مالك بن نبي في مشكلات الحضارة: الـدين – الثقـافة – التوجيه:

الفصل الأول: الأفـكـار و الحضـارة

الفرع الأول: الفكرة الدينية و الحضارة

انتهينا في الباب الأول من هذا البحث إلى أن الحضارة سواء كانت قديمة أو حديثة تتركب من الإنسان و التراب و الوقت بمركب الدين، كما تتركب أي مادة كيميائية عند أهل الاختصاص من عناصر بمركب ما.

بيد أنه لكي تكون هذه النتيجة أكثر إقناعا في نظر مالك بن نبي فإنه يتعين علينا أن نتناول الحضارة من حيث نشأتها و تطورها و انحلالها من الناحية التاريخية بغية الوقوف على السنن التاريخية المطردة في الاجتماع[1] لنستخرج منها « السر الكوني الذي يركب مركب هذه العناصر الثلاثة: الإنسان و التراب و الوقت، ليبعثها قوة فعالة في التاريخ [2]»، كما أنه يتعين علينا أن « نتناول واقعة الحضارة لا على أنها سلسلة من الأحداث يعطينا التاريخ قصتها، بل [على أنها] (ظاهرة) يرشدنا إلى (قانونها) أي إلى سنة الله فيها*، هذا المنهج هو القادر – فيما أعتقد- على أن يستجلي لنا بطريقة أوضح الدور الإيجابي الفعال للفكرة الدينية في تركيب تلك الواقعة، إذ يوضح لنا كيف تشرط هذه الفكرة سلوك الفرد، و كيف تنظم غرائزه تنظيما عضويا في علاقتها الوظيفية ببناء إحدى الحضارات »[3].

و حينما نتناول الحضارة من الناحية التاريخية أي من حيث كونها وقائع

---

[1] انظر سيد قطب: مقومات التصور الإسلامي، دار الشروق القاهرة – مصر – الطبعة الخامسة لعام 1997م، موضوع: حقيقة الألوهية ص: 257-260.

[2] مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 56.

* هذا القانون المطرد هو ما تلخصه الآيات القرآنية من رقم 14-60 من سورة العنكبوت.

[3] مالك بن نبي: المصدر السابق ص: 68، 69.

مشرقة في أفق هذا الشعب، ثم متحولة عنه إلى أفق شعب آخر ». بيد أن بزوغ فجر الحضارة على شعب من الشعوب « لا يحدث إلا في حالات معينة من تاريخ المجتمعات »[1] أو الجماعات، و هي الحالة التي يطلق عليها مالك بن نبي[2] الظرف الاستثنائي « اللازم لإحداث التركيب الذي يتفق مع ميلاد مجتمع معين، كما ينفق بصورة ما مع بداية عمله التاريخي »[3].

و إذا كانت مشكلة التركيب العضوي للعناصر الثلاثة في نظر المؤرخ مل ديورانت[4] – الذي تناول بالبحث و الدراسة قصة نشأة الحضارات– لا يمكن تفسيرها بعامل واحد (الظرف الاستثنائي) بل بأكثر من عامل، فإن « هذه العوامل [الجيولوجية و الجغرافية و الاقتصادية و الجنسية و النفسية] يمكن صياغتها بطريقة أخرى تبدو فيها أكثر عموما و تحديدا، بحيث تصدق على ظاهرة التحضر بصفة مطلقة [و بالتالي تنضوي تحت عامل الظرف الاستثنائي] ... و بيان ذلك أن كل ظاهرة تحضر إنساني مهما تكن درجتها القيمية لا تتأتى ظهورا و نموا و استمرارا إلا باجتماع عوامل أساسية ثلاثة هي: فكرة عن الوجود و الحياة*، و دافع يجعل تلك الفكرة فاعلة في

---

[1] مالك بن نبي: تأملات ص: 136.

[2] إن العمل التاريخي لأي مجتمع يبدأ إذا ما تم تركيب الإنسان و التراب و الوقت غير أن هذا التركيب الذي يتفق من الوجهة التاريخية مع ظهور حضارة معينة لا ينتج تلقائيا... و إنما يتم... على إثر حدوث (عارض غير عادي) أو معيارة أخرى (ظرف استثنائي) انظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ص: 54.

[3] مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 55.

[4] انظر قصة الحضارة... المجلد الأول و الثاني ترجمة: زكي نجيب محمود، موضوع: عوامل الحضارة ص: 3 و ما بعدها.

* يتساءل محمد سعيد رمضان البوطي في كتاب:" منهج الحضارة الإنسانية في القرآن" عن طبيعة هذه الفكرة و عن مصدرها فيقول: « ما هو سبيل التعرف على جهاز جديد وصل لتوه إلينا من المعمل الذي أنتجه و من الذي يمكن أن يبصرنا بكيفية استعماله و طرق صيانته على الوجه الصحيح، مما لا ريب فيه أن الذي يملك أن يعرفنا على هذا الجهاز و طريقة استعماله هو... الشركة التي استقلت بإبداعه و إنتاجه ... و لذا فإن من المنطقي و الضروري أن لا يصل إليك مثل هذا الجهاز إلا مصحوبا بالكتيب الذي يحوي تعريفا بسيطا لأجزائه و كيفية تركيبها، ثم كيفية استعماله و طرف صيانته، هل تجد من فرق في هذا المبدأ المتبع المعروف، بين هذا الجهاز و الأجهزة الثلاثة: [الكون و الإنسان و الحياة] التي تتحدث عنها، و التي لا تستقيم نشأة الحضارة الإنسانية إلا عليها ؟ إن الذي يملك أن يعرف الإنسان على هوية كل من: الإنسان، و الكون، و الحياة إنما هو ذاك استقل بإبداعه و صنعه، ثم وضع في كل منها قابلية و أقامه على مهمته و وظيفته ! فمن هو غير الفاطر الحكيم عز و جل، ذاك الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى و خلق كل شيء فقدره تقديرا ؟ » ص: 35، 36.

الواقع، و بيئة طبيعية تستجيب لإرادة التحضر »[1]، و هذه العوامل التي فصلها ديورانت و أعاد صياغتها عمر النجار اختصرها مالك بن نبي[2] في عامل الفكرة و الإنسان، فالفكرة في منعطفات التاريخ هي التي تخلق الإرادة الحضارية في الإنسان، و بهذه الإرادة يصبح الإنسان السند المحسوس لهذه الفكرة و بالتالي؛ فإن الإرادة الحضارية هي التي تغير معالم الحياة بعد أن يدرك الإنسان بالفكرة معنى جديدا لوجوده في الكون.

و بهذه الإرادة يصبح الإنسان السند المحسوس لهذه الفكرة و بالتالي فإن الإرادة الحضارية هي التي تغير معالم الحياة بعد أن يدرك الإنسان بالفكرة معنى جديدا لوجوده في الكون و الفكرة المنشئة للحضارة و الدافعة إليها كما يظهر ذلك من تاريخ الإنسانية « قد تكون فكرة دينية متأتية من بيان متعال عن الإنسان نازل من مصدر غيبي حقيقي أو موهوم، و قد تكون أيضا فكرة إنسانية متأتية من الخيال الأسطوري أو من التأمل الفلسفي. إلا أن الفكرة الدينية هي الفكرة الأقوى دفعا إلى إنشاء الحضارة، كما أنها الأدوم في الحفاظ عليها و تنميتها، و لذلك فإن أغلب الحضارات في تاريخ الإنسان، و خاصة منها الحضارات الكبرى هي حضارات ناشئة و متطورة بأفكار دينية »[3].

و بما أن التاريخ كما يلخصه المؤرخ المفكر توينبي في هذه العبارة « هو طريق الإنسانية إلى الله »[4]؛ فإن أول إنسان بعد الطوفان الذي عم الكون؛ خط هذا الطريق إلى الله و هو طريق التوحيد هو الخليل إبراهيم –عليه السلام–[5]، فقد كان منذ بلوغه بما آتاه الله من رشد[6] غير مقتنع بمعتقدات آبائه و أجداده في الكواكب، و لذلك

---

[1] عبد المجيد عمر النجار: فقه التحضر الإسلامي، المجلد الأول دار الغرب الإسلامي، لبنان – بيروت، الطبعة الأولى لعام 1999م ص: 26.

[2] شروط النهضة ص: 74.

[3] عبد المجيد عمر النجار: فقه التحضر ص: 27.

[4] نقلا عن عباس محمود العقاد: الإسلام و الحضارة الإنسانية، منشورات المكتبة العصرية لبنان– بيروت ص: 76.

[5] انظر عفيف عبد الفتاح طبارة: مع الأنبياء في القرآن قصص و دروس و عبر من حياتهم، دار العلم للملايين لبنان – بيروت الطبعة الثالثة ص: 105–120.

[6] قال تعالى في سورة الأنبياء الآية رقم 51: « و لقد آتينا إبراهيم رشده من قبل و كنا به عالمين » و قال في سورة البقرة الآية رقم 256 : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي... » و قال في سورة الأعراف الآية رقم 146: « ... و إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا و إن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا... ».

اتخذ من نظره و عقله وسيلة لإثبات أو نفي ما كان يخالج ضميره من شك فيما كان عليه قومه من اعتقاد في الكواكب « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون »[1] و كان بهذا القول أول من أعلن مبدأ التوحيد في تاريخ الإنسانية بعد حادثة الطوفان، و لعل هذا المبدأ هو الذي جعل توينبي يقرر « أن تواريخ الأمم و الحضارات و العقائد و الأخلاق لا معنى لها إن لم يكن معناها هداية النفس الإنسانية إلى حرية الضمير برعاية الإله »[2]، و هو نفس المبدأ الذي جعل عباس محمود العقاد يقول[3]: « كل أمة، و كل حضارة، و كل عقيدة؛ فإنها تأتي لترفع في الطريق مصباحا صغيرا أوكبيرا ينير الطريق و ينير ساحة الكون كله للعالم بحقائق الوجود، أو للعالم بحقيقة الحقائق و هي مصدر الخلق و التدبير في الوجود ».

و بما أن مبدأ التوحيد الذي جهر به النبي الخليل إبراهيم – عليه السلام- في قومه و دعاهم إلى اعتناقه بعد أن أقام الحجة عليهم[4]، هو نفس المبدأ الذي بعث به موسى

و عيسى في بني إسرائيل و محمد -صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين- في قريش[5]، و بما أن النبي إبراهيم -عليه السلام- هو الذي أطلق على معتنقي عقيدة أو ديانة التوحيد اسم المسلمين[6]؛ فإن ديانة الإسلام التي بشر بها محمد -صلى الله عليه و سلم- العالم، تعود من حيث جذورها التاريخية إلى العقيدة الحنيفية التي بشر بها إبراهيم – عليه السلام-، مما يعني أن اسم الإسلام يطلق على جميع المعتنقين لعقيدة التوحيد أي

---

[1] المصحف الكريم: سورة الأنعام الآية رقم: 76-78.

[2] نقلا عن عباس محمود العقاد: الإسلام و الحضارة الإنسانية ص: 76.

[3] المرجع نفسه ص: 76.

[4] انظر المصحف الشريف سورة الأنبياء الآية من رقم: 53 إلى رقم: 67.

[5] انظر صابر طعيمة: الإسلام يقينا لا تلقينا ص: 111-113..

[6] جاء في القرآن الكريم خطابا للمؤمنين من سورة الحج الآية 78 أن إبراهيم هو الذي سمى المؤمنين بالكتب المنزلة المسلمين.

على « جميع عقائد الدين الخالص النقي الصادق»[1] لأن أركان هذه العقائد و مبادئها التي تقوم عليها و تتحقق بها عمليا لا تختلف منذ إبراهيم إلى محمد –عليهما الصلاة و السلام– و إلا لما وصف الله أتباع إبراهيم و سحرة فرعون الذين آمنوا برب موسى و هارون و أتباع عيسى من الحواريين و القسيسين و الرهبان و أتباع محمد –صلى الله عليه و سلم– بالمسلمين[2]، و معنى ذلك أن جوهر هذه العقيدة التي نشأت بها حضارات و قامت ثم سقطت خالد في النفس الإنسانية[3].

و لقد ثبت هذا لكثير من الباحثين و الدارسين[4] للظاهرة الدينية في المجتمعات الإنسانية القديمة و الحديثة. و هؤلاء الباحثين و الدارسين و إن كانوا قد اختلفوا حول أصول الظاهرة الدينية أو حول مصدرها الأول، نظرا لاختلاف المدارس التي ينتمون إليها[5]؛ فإنهم يكادون يتفقون على أن الظاهرة الدينية فطرية في النفس الإنسانية، و لم تخل أي حضارة من الحضارات البائدة أو القائمة من هذه الظاهرة.

---

[1] صابر طعيمة : الإسلام يقينا لا تلقينا ص: 111.

[2] انظر المصحف الكريم الآية رقم 78 سورة الحج، و انظر الآية رقم 53 سورة آل عمران، و انظر الآية رقم 126 سورة الأعراف، و انظر الآية رقم 111 سورة المائدة.

[3] انظر نبيل محمد توفيق السمالوطي: الدين و البناء الاجتماعي الجزء الثاني دار الشروق للنشر و التوزيع و الطباعة بيروت، الطبعة الأولى لعام 1981م، موضوع: فطرية النزعة الدينية عند الإنسان ص: 33–41.

[4] مثل (هنري برجسون) الفيلسوف الفرنسي الذي يقول: « قد وجدت و توجد جماعات إنسانية ليس لها علوم أو فنون أو فلسفات، غير أنه لم توجد إطلاقا أية جماعة بدون دين » و مثل (بارتلمي سانت هلير) الذي يقول: « هذا اللغز العظيم الذي يستحث عقولنا: ما العالم؟ ما الإنسان؟ من أين جاءا؟ من صنعهما من يدبرهما ؟ ما هدفهما ؟ كيف بدءا ؟ كيف ينتهيان ؟ ما الحياة ؟ ما الحياة ؟ ما الموت؟ ما القانون الذي يجب أن يقود عقولنا أثناء عبورنا في هذه الحياة ؟ ... لا توجد أمة و لا شعب و لا مجتمع إلا و قد وضع لهذه الأسئلة إجابات معينة جيدة أو رديئة، مقبولة أو سخيفة ثابتة أو متحولة » و مثل (ماكس نورده) الذي يقول: « هذا الإحساس – [الإحساس الديني] – أصيل يجده الإنسان غير المتدين، كما يجده أعلى الناس تفكيرا و أعظمهم حدسا و ستبقى الديانات ما بقيت الإنسانية و مثل محمد فريد وجدي الذي يقول: « يستحيل أن تتلاشى فكرة التدين، لأنها أرقى ميول النفس و أكرم عواطفها، ... بل إن هذا الميل سيزداد... ففطرة التدين ستلاحق الإنسان ما دام ذا عقل يعقل به الجمال و القبح، و ستزداد فيه هذه الفطرة على نسبة علو مداركه و نمو معارفه » . نبيل محمد توفيق السمالوطي، الدين و البناء الاجتماعي الجزء الأول ص: 41–48.

[5] مثل المدرسة الطبيعية و المدرسة الإحيائية و المدرسة النفسية و مدرسة الوحي، فهذه المدارس « تشترك في القول بأن الإنسان توصل إلى الدين عن طريق عوامل بشرية كالنظر و التأمل في الطبيعة أو الأحلام أو نتيجة للضرورات الاجتماعية اللاواعية

أو نتيجة لغرائز معينة يتسم بها جنس معين [إلا أن مدرسة الوحي] تختلف عن هذه المدارس و تؤكد إلى جانب الميل الفطري في الإنسان إلى التدين ظاهرة الوحي التي لا بد للفطرة الإنسانية منها، إذ لو كانت الطبيعة الإنسانية أي الفطرة أو

و مع أن (ماكس ميلر) صاحب كتاب "علم الأساطير المقارنة" و (جيفونز) صاحب الدراسة المعنوية بـــ "مقدمة في تاريخ الأديان" يعدان من مجموعة الباحثين و الدارسين الغربيين المنتمين إلى المدرسة الطبيعية التي ترجع سبب نشأة الظاهرة الدينية إلى تأملات الإنسان البدائي في مظاهر الطبيعة[1]. كما يعد في الوقت نفسه العالم البريطاني (تاليور) صاحب كتاب "الحضارة البدائية" و العالم (هربرت سبنسر) صاحب المؤلف "مبادئ علم الاجتماع" من هذه المجموعة التي تنتمي إلى المدرسة الإحيائية التي ترى أن سبب نشأة الظاهرة الربيبية هو التجارب الواقعية التي عرفها الإنسان البدائي في حياته[2]. إلا أنه يوجد ضمن هؤلاء الباحثين الغربيين، من يذهب في تفسير نشأة الظاهرة الدينية تفسيرا مغايرا لتفسير رجال كلتا المدرستين. فالعالمان (لانج)، (شمدت)، المنتمين إلى مدرسة التوحيد البدائي. يؤكدان أن أن الظاهرة الدينية التي صاحبت كل الحضارات ارتبطت منذ بداية نشأتها بفكرة الإيمان بوجود قوي قادر خالق مسيطر على كل الظواهر الطبيعية، بل إنهمايؤكدان على أن فكرة الإيمان بآلهة متعددة هي من حيث نشأتها فكرة تالية لفكرة التوحيد المطلق، و على أنها لم تظهر و تنتشر إلا بسبب الفساد الاجتماعي و الانحراف الفكري و العقدي[3].

بيد أنه يجب التنبيه إلى أن أسبقية عقيدة التوحيد على عقيدة الشرك أو تعدد الآلهة من ذكرنا من الباحثين الغربيين فحسب، بل سبق أن أكدها الرسول[4] –صلى الله عليه و سلم– في أكثر من حديث، و القرآن الكريم[5] في أكثر من سورة من سوره، و ذلك؛ لأن الأمة التي بعث فيها محمد –صلى الله عليه و سلم– و نزل القرآن بلسانها، كانت أمة وثنية بلغ تعدد آلهتها في الكعبة المشرفة 360 إلها، الأمر الذي أثار حفيظة

العقل أو الكون كافية للوصول بالإنسان إلى عقيدة التوحيد الخالص لما كان هناك داع لبعثة الأنبياء و الرسل منذ آدم إلى محمد –صلى الله عليه و سلم– . للمزيد من المعلومات في هذه المسألة انظر المرجع نفسه ص: 98–102.

[1] انظر المرجع السابق ص: 64، 66.

[2] انظر المرجع السابق ص: 70–74.

[3] انظر المرجع نفسه ص: 94، 95.

[4] في قوله « كل مولود يولد على الفطرة ».

[5] في قوله تعالى: « و إذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم و أشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى! شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » سورة الأعراف الآية 172. و في قوله تعالى: « و ما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا » سورة يونس الآية 19. و في قوله تعالى: « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » سورة الروم الآية 30.

سادة و كبراء قريش على محمد -صلى الله عليه و سلم- و جعلهم يتعجبون من دعوته لهم إلى عبادة إله واحد فقالوا: « أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب »[1].

و من تلك اللحظة التي جهر فيها محمد -صلى الله عليه و سلم- بفكرة التوحيد أخذ نور فجر حضارة الإيمان[2] بالواحد الأحد يسطع على البشرية من جزيرة العرب و يبدد ظلمات الجاهلية من عالم الأنفس و الآفاق.

و مما يجب الالتفات إليه في هذا المقام، هو أنه قبل هذه اللحظة أو في هذا المنعطف التاريخي لم يكن للعرب في جزيرتهم أي دور في صنع الحدث التاريخي إلى جانب الأمة الفارسية و الرومية[3]، إذ لم تكن القبائل العربية « قبل نزول القرآن إلا [شعبا بدويا] يعيش في جزيرة مجدبة يذهب وقته هباء لا ينتفع به، لذلك فقد كانت العوامل الثلاثة: الإنسان و التراب و الوقت... مكدسة لا تؤدي دورا ما في التاريخ؛ حتى إذا ما تجلت الروح بغار حراء- كما تجلت من قبل بالوادي المقدس، أو بمياه الأردن، نشأت من بين هذه العناصر الثلاثة المكدسة حضارة جديدة، فكأنما ولدتها كلمة (اقرأ) التي أدهشت النبي الأمي و أثارت معه و عليه العالم. فمن تلك اللحظة وثبت القبائل العربية على مسرح التاريخ، حيث ظلت قرونا طوالا تحمل للعالم حضارة جديدة و تقوده إلى التمدن و الرقي »[4].

و على الرغم من أن رأي مالك بن نبي في الأوضاع المختلفة التي كانت عليها القبائل العربية حين بعثة محمد -صلى الله عليه و سلم- هو رأي كثير من المؤرخين

---

[1] انظر المصحف الشريف سورة ص الآية: 5.

[2] يقول توماس كارليل: « لقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور، و أحيا به منها أمة خاملة لا يسمع لها صوت، و لا تحس فيها حركة، حتى صار الخمول شهرة و الغموض نباهة و الضعة رفعة، و الضعف قوة و الشراسة حريقا، و ما إن ظهر الإسلام و شمل نوره الأنحاء و عم ضوؤه الأرجاء، فماهو إلا قرن بعد إعلان هذا الدين حتى أصبح للعرب (المسلمين) قدم في الهند و أخرى في الأندلس» نقلا عن فيصل العوامي، عن ثقافة النهضة: دراسة في قيم العقل و الروح و النهضة الاجتماعية، مؤسسة الانتشار العربي، لبنان- بيروت، الطبعة الأولى لعام 2001م ص: 31.

[3] كانت الأمة الفارسية و الأمة الرومية أو البيزنطية أمتي حضارة عمرت قرونا، و كانت العداوة بينهما بسبب تنازعهما على السيادة في العالم بعد ظهور الإسلام لا تزال قائمة و لكنهما رغم الإمكان المادي الذي كان يتوافر لكل منهما، فإنهما كانتا على الوشوك للخروج من الحضارة ... للمزيد انظر جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي المجلد الأول، منشورات دار مكتبة الحياة أو دار مكتبة الحياة لبنان بيروت ص: 41-48.

[4] مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 57.

و المفكرين و الفلاسفة[1]، إلا أن محمد أسعد طالس[2] يرى أن وضع القبائل العربية قبل ظهور الإسلام لم يكن على درجة كبيرة من التخلف، بل إن هذه القبائل كانت تعيش نهضة أدبية و دينية و سياسية و اقتصادية و اجتماعية.

و لكن رغم هذا الرأي الذي يعتبر من قبيل المدح و التعويض[3]؛ فإن الثابت تاريخيا هو أن الدين الإسلامي بالنسبة للعرب و الدين المسيحي بالنسبة للشعوب الغربية، هو العامل الأساسي في بعث الإنسان و في تركيب عناصر الحضارتين: الإسلامية و المسيحية و في إحداث نهضة أدبية و مادية في الجزيرة العربية و في القارة الأوربية.

و لو أن أهل مكة و الطائف و يثرب كانوا يتوافرون على أفكار صحيحة تدفع بهم إلى التحضر و الحضارة لما وصفهم القرآن بالأميين[4] أو الجاهليين[5] بل لما كان هناك دافع لافتتاح أول صفحة في دستور الحضارة الإسلامية (القرآن) بكلمة (اقرأ)، و هي و إن كانت باعتبارها قاعدة آمرة خاصة بمحمد –صلى الله عليه و سلم– فإن العبرة في النص القرآني بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[6]. و بما أن المقصود من الوحي الإلهي سواء بهذه الكلمة أو بغيرها من كلمات الله ليس محمدا فحسب بل الإنسان بصفة عامة، فإن الأمر بكلمة (اقرأ) ينسحب على كل أمي و جاهل في كل مكان و في كل زمان[7].

و لو لم يكن الجهل و الأمية، صفتين متفشيتين بين معظم أفراد القبائل العربية سواء أولئك الذين كانوا يسكنون مكة و الطائف و يثرب أو أولئك الذين كانوا يسكنون

---

[1] على سبيل المثال المؤرخ المفكر عبد الرحمن بن خلدون المجلد الأول، دار الكتاب اللبناني، لبنان بيروت، الفصل السابع و العشرون ص: 266–269 و المفكر هرمان دي كسرنج صاحب المؤلف " البحث التحليلي لأوربا" ، و المؤرخ المفكر أرنولد توينبي صاحب المؤلف "دراسة في التاريخ"، و شبنغلر صاحب المؤلف "تدهور الحضارة الغربية".

[2] انظر تاريخ العرب، المجلد الأول، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع، الطبعة الثالثة لعام 1983م، الفصل الأول: في البيئة العربية قبل البعثة النبوية ص: 172–182.

[3] انظر مالك بن نبي: فكرة الإفريقية الآسيوية... ص: 221–236 و انظر له: القضايا الكبرى ص: 172–182.

[4] في قوله تعالى في سورة الجمعة الآية 2.

[5] في قوله تعالى في سورة الأحزاب الآية 33، و في قوله تعالى في سورة الفتح الآية 26 و في قوله تعالى في سورة القصص الآية 55.

[6] انظر صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن ص: 158، 159.

[7] الأمي هو الذي لا يكتب و لا يقرأ المكتوب و منه أميون : أي الغبي الجلف الجاف القليل الكلام. انظر أحمد رضا: معجم اللغة، المجلد الأول، دار مكتبة الحياة لبنان بيروت ص: 206. الجاهل نقيض العالم، و يطلق الجهل على معنيين: بسيط و مركب، فالمركب هو اعتقاد جازم غير مطابق للواقع. و إنما سمي مركبا لأنه يعتقد الشيء على خلاف ما هو علم و هذا جهل آخر قد تركبا معا، و هو ضد العلم. انظر جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني.

بوادي صحراء الجزيرة العربية، فإن القرآن ما كان ليصفهم بقوله: « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم »[1]، و هو قول يفيد فيه لفظ "الأميين" العموم و الاستغراق[2].

و لما كانت الأمية و الجهل متفشيتين حين بعثة محمد –صلى الله عليه و سلم– في معظم أهل الجزيرة العربية كما أكدت ذلك كتب التاريخ، و إن كان محمد أسعد طالس قد حاول في كتابه "تاريخ العرب" نفي هذه الحقيقة[3]؛ فإن سورة العلق التي نزل بها جبريل على النبي محمد أول مرة كانت تعتبر بمثابة الدعوة التي وجهت إلى العرب من خلال الأمر الذي وجه إلى النبي محمد – صلى الله عليه و سلم– (اقرأ) كي يشرعوا في محو الأمية و الجهل عن أنفسهم، ليخرجوا مما هم فيه من تخلف عقلي و من فساد في الاعتقاد من ناحية و ليعيدوا النظر فيما لديهم من معارف عن الإله و الإنسان و الكون، بناء على ما يسمعون بعد هذه السورة من ذكر حكيم من ناحية أخرى[4].

و سواء كان العرب حين بعثة محمد –صلى الله عليه و سلم– أمة أمية جاهلة أو لم يكونوا، فالذي لا جدال فيه؛ هو أن الفكرة الإسلامية– و ما تفرع عنها من أفكار عن الله الواحد[5] و الكون المسخر[6] و الإنسان المكرم[7] و التاريخ العبرة[8] و ما تضمنته من مبادئ أو قواعد عامة و خاصة تضبط حركة الفرد و الجماعة في جميع مجالات الحياة

---

[1] انظر المصحف الكريم سورة الجمعة الآية رقم: 2.

[2] تحت عنوان: لا يكون الجهل مصدرا للعلم، يقول محمد عبد الله دراز في النبأ العظيم، ص: 67: « أما أن محمدا –صلى الله عليه و سلم–... لم يكن له معلم من قومه الأميين فذلك لا شبهة فيه لأحد، و لا نحسب أحدا في حاجة إلى الاستدلال عليه بأكثر من اسم (الأمية) الذي يشهد عليهم بأنهم كانوا خرجوا من بطون أمهاتهم لا يعلمون من أمر الدين شيئا، و كذلك اسم الجاهلية الذي كان أخص الألقاب بعصر العرب قبل الإسلام ».

[3] انظر تاريخ العرب المجلد الأول ص: 102–109.

[4] انظر زكي نجيب محمود: رؤية إسلامية، دار الشروق الطبعة الأولى لعام 1987م موضوع: اقرأ باسم ربك ص: 28–38.

[5] تلخصها سورة الإخلاص.

[6] ورد الحديث عن الكون في القرآن في أكثر من سورة و على سبيل المثال سورة يس الآية 71، 72. و سورة الملك الآية 15 و سورة الأعراف الآية 10 و انظر تفصيلا للحديث عن الكون: محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، موضوع: ما هو الكون في القرآن؟ ص: 81–119.

[7] انظر المصحف الشريف: سورة الإسراء الآية 70 و انظر محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، موضوع: من هو الإنسان في القرآن؟ ص: 41–56.

[8] إن الغرض من قصص الأنبياء مع الأقوام التي بعثوا فيها هو العبرة، انظر عفيف عبد الفتاح طبارة: مع الأنبياء في القرآن، موضوع: قصص الأنبياء و أهدافها ص: 24–28.

و توجهها نحو الإعمار و التعمير[1]-؛ هي العامل الأساسي الذي دفع بهم إلى الظهور إلى الحياة بين الأمم، و في المناخ الروحي و العقلي الذي كونه القرآن تركبت عناصر الحضارة الإسلامية[2].

الفرع الثاني: أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة

يرى مالك بن نبي[3] أنه لكي يتسنى لنا إبراز أثر الفكرة الدينية[4] في نشأة الحضارة و تركيب عناصرها الثلاثة، فإنه يتوجب علينا تتبع المراحل التي تقطعها الحضارة من لحظة ميلادها إلى لحظة أفولها؛ ففي ضوء هذا التتبع لدورة الحضارة -لا باعتبارها سلسلة من الأحداث بل باعتبارها ظاهرة إنسانية- نتمكن من إبراز تأثير الفكرة الدينية نفسيا في الإنسان الذي جسد هذه الظاهرة على مسرح الحياة[5] من جهة كما أنه يمكننا من إبراز تأثيرها الاجتماعي في علاقات الأفراد من جهة أخرى[6].

و بما أن أي حضارة تقع بين حدي: الميلاد و الأفول[7]؛ فإن تأثيرها في الإنسان

---

[1] انظر عبد المجيد عمر النجار: فقه التحضر الإسلامي، موضوع: الخلافية لله ص: 49-63، موضوع: خلافية الترقي المنهجي ص: 63-79.

[2] انظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، موضوع: طبيعة العلاقات الاجتماعية ص: 31-36.

[3] انظر شروط النهضة، موضوع: الدورة الخالدة- العدة الدائمة و أثر الفكرة الدينية ص: 31-36.

[4] و في هذا يرى العقاد أن « الدين لازمة من لوازم الجماعات البشرية، و لم يكن الدين لازمة من لوازم الجماعات البشرية لأنه مصلحة وطنية، أو حاجة نوعية؛ لأن الدين قد وجد قبل وجود الأوطان؛ و لأن الحاجة النوعية "البيولوجية" تحقق أغراضا في كل زمن و تتوافر أسبابها في كل حالة، و لا يزال الإنسان بعد تحقق أغراضها و توافر وسائلها في حاجة إلى الدين. و غرائز الإنسان النوعية واحدة في كل فرد من أفراد النوع و كل سلالة من سلالاته. و لكنه في الدين يختلف أكبر اختلاف، لأنه يتجه من الدين و تتوافر أسبابها في كل حالة، و لا يزال الإنسان بعد تحقق أغراضها و توافر وسائلها في حاجة إلى الدين. و غرائز الإنسان النوعية واحدة في كل فرد من أفراد النوع و كل سلالة من سلالاته. و لكنه في الدين يختلف أكبر اختلاف، لأنه يتجه من الدين إلى غاية لا تنحصر في النوع و لا تتوقف على غرائزه دون غيرها، و ليس الغرض منها حفظ النوع و كفى، بل تقرير مكانه في هذا الكون، أو في هذه الحياة. فالإنسان يتعلق من النوع بالحياة. و لكنه يتعلق من الدين بمعنى الحياة... [و هو ما تحققه] العقيدة الإسلامية...لحياة الجماعات البشرية. و... الجماعات التي تدين بها تستمد منها حاجتها من الدين الذي لا غنى عنه، ثم لا يفوتها منها حاجتها إلى العلم و الحضارة، و لا استعداد لمجاراة الزمن حيثما اتجه بها مجراه » الفلسفة القرآنية، منشورات المكتبة العصرية بيروت صيدا ص: 11، 13.

[5] انظر عبد المجيد عمر النجار: فقه التحضر ص: 32-35.

[6] انظر عبد المجيد عمر النجار: نفس المرجع، موضوع: نظرية الإنجاز ص: 75-79.

[7] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 73.

و التراب و الوقت يتجلى في المرحلة الأولى و هي مرحلة روحية أو مرحلة دينية بحتة تسودها الروح[1]، و هو ما يعبر عنه مالك بن نبي بقوله[2]: « الحضارة لا تنبعث -كما هو ملاحظ- إلا بالعقيدة الدينية [و لذلك] ينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها »، و بما أن الفكرة الدينية سواء الإسلامية أو المسيحية هي أصل نشأة الحضارتين، فإن المرحلة الأولى بالنسبة للحضارة الإسلامية؛ -و التي تمتد زمنيا من لحظة "اقرأ" إلى واقعة صفين- كانت مرحلة دينية بحتة نظرا لهيمنة روح الفكرة الدينية عليها.

و لم يكن الإنسان في هذه المرحلة التي بدأ ينزل فيها القرآن إلا ذلك الإنسان الطبيعي أو الفطري المذخور بطاقة حيوية غير مكيفة[3]، و لذلك أخذت الفكرة الدينية تخضع هذه الطاقة الحيوية إلى عملية شرطية[4] إذ « لم تكن الطاقة الحيوية [قبل نزول القرآن] قد تكيفت...، فقد كانت في طبيعتها الأولية التي لا تأتلف مع شروط الحياة الخاصة بحضارة »[5] و يجب التنبيه إلى « أن هذه العملية الشرطية ليس من شأنها [أن تقضي] على الغرائز [أو تكبتها] و لكنها [تتولى] تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية؛ فالحيوية الحيوانية التي تمثلها الغرائز بصورة محسوسة [في الإنسان]، لم تلغ و لكنها انضبطت بقواعد نظام معين »[6].

و من الأدلة على أن الفكرة الدينية سواء كانت إسلامية أو مسيحية، لم تأت للقضاء على ما يجعل الإنسان يسعى إلى تلبية مطالبه الجسدية و لا إلى إطلاق العنان لهذه الغرائز التي تدفعه إلى السعي و الابتغاء، ما ورد في الأثر[7]، من أن جماعة من الصحابة -رضي الله عنهم- اتفقوا على أن يجبوا أنفسهم و يعتزلوا النساء و لا يأكلوا من الطعام إلا قوتا زهيدا، و أن يسيحوا في الأرض كهيئة الرهبان، فأنزل الله هذه الآية: « يا أيها

---

[1] انظر مالك بن نبي: نفس المصدر ص: 58.

[2] انظر مالك بن نبي: نفس المصدر ص: 56.

[3] انظر مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص: 51، 52.

[4] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 75.

[5] مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص: 52.

[6] مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 75.

[7] انظر صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن ص: 61.

الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم و لا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »[1]، التي تعتبر قاعدة من القواعد القرآنية المنظمة و الموجهة للطاقة الحيوية عند هؤلاء الصحابة و عند غيرهم، كما تعتبر في الوقت نفسه تقويما لانحرافهم و انحراف غيرهم عن دواعي الفطرة[2].

و في مقابل هذا النموذج من الصحابة –رضي الله عنهم– الذي لم يتحمل البقاء بين الجماعة تحت تأثير حديث القرآن عن أهوال العالم الآخر، هناك نموذج آخر من الصحابة –رضي الله عنهم– كآل ياسر و بلال و الغامدية لم يفكر في اعتزال الحياة الاجتماعية، بل آثر البقاء فيها تحت تأثير الفكرة الدينية محتملا أشد أنواع التعذيب أو الرجم، في سبيل الوصول إلى نعيم العالم الآخر الذي وعد الله به عباده المؤمنين الصابرين.

و هذان النموذجان، المختلفين في السلوك و المتحدين في الهدف أو الغاية يعبران أبلغ تعبير عن أثر الفكرة الدينية في الإنسان حين تتمكن من الرسوخ في ضميره.

و هكذا ظلت طاقة الإنسان المسلم في هذه المرحلة تحت تأثير الفكرة الدينية تشرطها و تكيفها بقواعدها المختلفة في مجال العقيدة و العبادة و السلوك و المعاملة[3]، مراعية في هذه القواعد طبيعتها من ناحية و طبيعة المجتمع من ناحية أخرى؛ فإن كان المجتمع الذي كانت الفكرة الدينية تهيئ أرضية بنائه « مضطرا [لأن] يستعير من الطبيعة أعني من غرائز الفرد طاقته الحيوية اللازمة لأداء نشاطه المشترك في التاريخ [فإن تلك] الطاقة قد تهدم المجتمع ما لم يسبق تكييفها »[4]، و من أجل تحقيق هذه الغاية المتمثلة في التأليف بين عالم الأشخاص[5] و بناء مجتمع متراص ظل الوحي المحمدي خاصة في الفترة المكية « يعيد تنظيم هذه الطاقة و يعيد توجيهها [في كل المناسبات

---

[1] انظر المصحف الشريف سورة المائدة الآية 87.

[2] انظر على سبيل المثال لا الحصر المصحف الشريف سورة الحجرات. و انظر حسن رمضان فجلة: الأهداف العامة من سورة الحجرات، دار الهدى –عين مليلة –الجزائر الطبعة الأولى لعام 1990م المقدمة ص: 7–21.

[3] انظر عباس محمود العقاد: الفلسفة القرآنية ص: 655.

[4] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ص: 107.

[5] لأنه في نظر مالك بن نبي الشرط الأول لتحقيق مشروع ثقافة إذ إن أساس كل ثقافة هو بالضرورة (تركيب) و (تأليف) لعالم الأشخاص. انظر مشكلة الثقافة ص: 63.

فحولها بذلك] من طاقة ذات وظائف بيولوجية خالصة... حيث تشترك في حفظ النوع – إلى طاقة ذات وظائف اجتماعية يؤديها الإنسان، حين يسهم في النشاط المشترك »[1].

و بالتنظيم و التوجيه استطاعت الفكرة الإسلامية إخضاع « الطاقة الحيوية لدى البدوي العربي لنظامها الدقيق فجعلت منه إنسانا متحضرا و محضرا و الأمثلة [على ذلك كثيرة منها تقديم بعض الصحابة لرسول الله –صلى الله عليه و سلم–] عن طيب خاطر جزء من أموالهم [ف] هذا مثال [آخر] يرينا كيف أن الطاقة الحيوية في صورة غريزة التملك المطبوعة في الإنسان تتحول إلى طاقة محكومة منظمة موجهة نحو المهام الاجتماعية »[2].

و مع كل هذا، فإنه لا يمكن فهم أثر الفكرة الإسلامية، في الفرد و في الهيئة الاجتماعية في المرحلة الروحية التي انطلقت منها الحضارة الإسلامية أو في الطاقة الحيوية لشبه الجزيرة العربية سواء من حيث بعثها في شكل إرادة فردية و جماعية قوية أو من حيث إشراطها و إخضاعها للقواعد الصارمة أو من حيث توجيهها نحو الأغراض أو الغايات البعيدة، ما لم نضع في الحسبان ما كان سائدا بين القبائل العربية، قبل نزول القرآن من عادات و تقاليد و أعراف في المرحلة الأخيرة من العصر الجاهلي[3]، و نربط بين الظاهرة القرآنية و بين ذلك. و من حاصل هذا الربط يتبيّن لنا كيف كان العالم الثقافي لشبه الجزيرة العربية قبل الإسلام خاليا من مبادئ الإلزام و الالتزام الاجتماعي، إلاّ ما تعلق منها بالشرف أو بالواجب المفروض على الفرد نحو القبيلة أو نحو بعض المعتقدات[4]، و كيف كان خاليا من الأفكار الخلاّقة التي تدفع الإنسان و توجهه إلى سبيل التحضّر و الحضارة.

إن ذلك العالم الثقافي و إن حاول بعض الدارسين[5] وصفه بالغزارة العلمية

---

[1] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ص: 107.

[2] مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 107، 108.

[3] انظر شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول... دار العلم للملايين، بيروت الطبعة الرابعة لعام 1978م الباب الأول، الفصل الأول: التجمع العربي في أواخر عهد الجاهلية ص: 22–29. و انظر محمد أسعد طلس: تاريخ العرب المجلد الأول ص: 69–109.

[4] انظر مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص: 51.

[5] انظر محمد أسعد طلس: تاريخ العرب، المجلد الأول، موضوع: مستواهم العلمي و الأدبي ص: 102 و ما بعدها.

و الأدبية، فإنه، إذا ما كانت الثقافة بيئة فاعلة، لم يكن ينطوي على أي فكرة خلاّقة للإنسان و التراب و الوقت[1]، ثم كيف أخذ ذلك العالم الثقافي أو الوسط الجاهلي يتغيّر و يتبدّل منذ نزول السور الأول للقرآن، كسورتي: العلق و القلم، و ذلك بما انطوتا عليه من دعوة الإنسان إلى القراءة و من إشادة بالقلم و العلم[2]، و كيف بدأت مبادئ الإلزام النفسي الاجتماعي تحت تأثير أسلوب الخطاب القرآني، تظهر في شكل سلوك و أسلوب في الوسط أو في المحيط الثقافي الجديد الذي أخذ يعمّ مكّة و ما حولها. و قد كانت تظهر تلك المبادئ إما في صورة تنظيم لتلك الطاقة الحيوية و إما في صورة تنظيم لتلك الطاقة توجيه، انطلاقا من مبدأ التوحيد[3].

و هو ما يشير إليه مالك بن نبي في قوله[4]: « لم تكن الطاقة الحيوية [في المجتمع الجاهلي] قد تكيفت بشيء، فقد كانت في طبيعتها الأولية التي لا تأتلف مع شروط الحياة الخاصة بحضارة، و حينما حدث لهذا المجتمع تحوّل من المجتمع البدائي إلى المجتمع الحضاري لم يكن باستطاعة المؤرخ و عالم الاجتماع أن يلاحظ في هذه الحقبة من الزمن ظهور أي حادث جديد يفسّر هذا التغيير في العالم الثقافي الذي ظهر مع الفكرة القرآنية كان الحدث الوحيد. و العلاقة السببية بين الحدثين: القرآن و الحضارة بادية بشكل صارم عبر تلازمهما؛ فالفكرة الإسلامية هي التي طوعت الطاقة الحيوية للمجتمع الجاهلي لضرورات مجتمع متحضر، و يستحيل علينا أن نجد تفسيرا آخر يكشف لنا هذا التكيف الذي نظم القوى البيولوجية للحياة كيما يضعها في خدمة التاريخ ».

و مع أن هذه الإشارة تكاد تلقي ضوء على الحالة النفسية الاجتماعية أو على الموروث النفسي الاجتماعي الذي قدمته المرحلة السابقة على ظهور الإسلام، للمرحلة الجديدة التي افتتحت بكلمة "اقرأ"، إلا أن الربط بين المرحلتين يكاد يكون عند كثير من

---

[1] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 30.

[2] انظر المصحف الشريف الآية من 1-5 و الآية 1 و سورة الرحمن الآية 1-3.

[3] تكاد سورة الحجرات تجمع هذه الصور الثلاثة.

[4] مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص: 52.

المفسرين[1] للقرآن، و الدارسين[2] لعلومه غائبا، مع أنه أمر ضروري، للوصول إلى معرفة الكيفيات التي ظلت تستخدمها الظاهرة القرآنية للتأثير في النفس البدوية الفطرية و في وسطها الثقافي حتى تمكنت من تغييرهما تغييرا جذريا.

و على الرغم من أن هناك الفاتة من بعض المفسرين كعائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ و عبد الحليم محمود إلى هذا الربط الذي يوحي به قولها[3]: « من عجب أن تكون كلمة (اقرأ) أول ما استهل به الوحي على النبي الأمي المبعوث في الأميين رسولا منهم، و أن يكون "الكتاب" معجزة النبي... و العصر عصر بداوة، و البيئة وثنية جافية لا عهد لها بمظاهر الحضارة المادية و الفكرية التي ازدهرت في بيئات أخرى كوادي النيل و وادي الرافدين »، كما يوحي به قوله[4]: « لم يقل [الله لمحمد – صلى الله عليه و سلم–] : اقرأ باسم الله، لأنه أراد سبحانه، منذ البدء أن يشير إلى أن هذا الدستور الإلهي النازل من السماء إنما هو تربية، إنه ينزل باسم المربي، و ما دامت هذه التربية إلهية المصدر فهي إذن محكمة الإحكام كله، كاملة في جميع جوانبها... و التربية التامة، تشتمل على جانب العقيدة و جانب الأخلاق و جانب التشريع... و هي من أجل ذلك كله تربية خالدة، لا تختلف باختلاف الأزمنة و الأمكنة، لأن الإنسان هو الإنسان أينما وجد و أينما كان »؛ إلا أنها تظل قاصرة عن تبيان الكيفيات التي أثرت بها الظاهرة القرآنية آنذاك في الطاقة الحيوية أو في الصفات النوعية الخاصة بالفرد؛ باعتبارها وسائل تربوية، ظلت تستخدمها الظاهرة القرآنية طيلة ثلاث و عشرين سنة في خطابها العقدي و الخلقي و التشريعي[5]، حتى تمكنت من أن تشرط تلك الطاقة الحيوية و من أن تكيفها و توجهها نحو الحضارة، هذا من جهة.

---

[1] مثلا الزمخشري صاحب الكشاف، الفخر الرازي صاحب التفسير الكبير، السيوطي عبد الرحمن جلال الدين، صاحب الدر المنثور في التفسير المأثور.

[2] مثلا بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي صاحب البرهان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي صاحب الإتقان في علوم القرآن... للتوضيح انظر السيد أحمد خليل: دراسات في القرآن.

[3] انظر انظر التفسير البياني الجزء الثاني، دار المعارف الطبعة الرابعة ص: 15.

[4] انظر الرسول –صلى الله عليه و سلم– دار الكتاب اللبناني بيروت، الطبعة الثانية لعام 1985م ص: 69، 70.

[5] انظر مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية الموضوعات التالية: 1– التنجيم ص: 179 و ما بعدها، 2– الصورة الأدبية للقرآن ص: 189 و ما بعدها، 3– ما وراء الطبيعة ص: 200 و ما بعدها، 4– أخرويات ص: 203 و ما بعدها، 5– أخلاق ص: 207 و ما بعدها، 6– اجتماع ص: 209 و ما بعدها، 7– موضوعات و مواقف قرآنية ص: 269 و ما بعدها، 8– القيمة الاجتماعية لأفكار القرآن ص: 297 و ما بعدها.

و من جهة أخرى فإن المتصفح لبعض الدراسات القرآنية سواء القديمة منها و الحديثة[1]، و إن كان يجد فيها حديثا قد يطول و قد يقصر في هذه أو في تلك عن أهم ظاهرة في الوحي المحمدي، تلك التي استرعت انتباه الكفار، و هي ظاهرة نزول الآيات و السور القرآنية منجمة تبعا لكل حادثة و واقعة؛ إلا أنه حين ينتهي من متابعة حديثهم عن الظاهرة بصفة عامة، و عن أسرارها بصفة خاصة لا يستطيع أن يكوّن منه فكرة عامة عن أهم المقومات التربوية التي انفرد بها المنهج القرآني عما سبقه من الكتب السماوية، في التربية و التعليم و في الإصلاح و التغيير.

و لقد حاول صبحي الصالح أن يبين هذه المقومات التربوية التي انفرد بها منهج القرآن فقال[2]: « لقد شاءت الحكمة الإلهية أن يظل الوحي متجاوبا مع الرسول –صلى الله عليه و سلم– يعلمه كل يوم شيئا جديدا و يرشده و يهديه، و يثبته و يزيده اطمئنانا، و متجاوبا مع الصحابة يربيهم و يصلح عاداتهم و يجيب عن وقائعهم و لا يفاجئهم بتعاليمه و تشريعاته، فكان مظهر هذا التجاوب نزوله منجما « بحسب الحاجة: خمس آيات، و عشر آيات و أكثر و أقل ...، و على هذا المنوال ظل القرآن ينزل منجوما، ليقرأه النبي –صلى الله عليه و سلم– على مكث و يقرأه الصحابة شيئا بعد شيء، يتدرج مع الأحداث و الوقائع و المناسبات الفردية و الاجتماعية التي تعاقبت في حياة الرسول –صلى الله عليه و سلم– خلال ثلاثة و عشرين عاما ».

غير أن هذا التفسير لأسرار الظاهرة القرآنية بوجه عام و لأسرار ظاهرة التنجيم بوجه خاص، و إن كان يُبرِز أهم المقومات التربوية التي أثر بها الوحي المحمدي فيمن سبق له أن آمن بمحمد –صلى الله عليه و سلم– رسولا و بالقرآن وحيا، منذ البداية، و ظل يؤثر بها عليه، فإنه يبقى عاجزا عن الإحاطة بكل أسرارها؛ لأنه لم يستطع أن يبين لنا كيف كان القرآن بأساليب شتى يؤثر في الإنسان البدوي كي ينقله من الشرك إلى الإيمان، و لا كيف كان يتولى تحصين هذا الإنسان حتى لا يعود إلى

---

[1] انظر صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن ص: 156.

[2] انظر مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، لبنان –بيروت– الطبعة السابعة عشرة لعام 1990م، موضوع: تنجيم القرآن و أسراره ص: 49 و ما بعدها.

الكفر بعد الإيمان، تحت طائلة التعذيب و الحصار و الملاحقة، و لا كيف كان وقعه على نفوس من أصروا على البقاء في الشرك مغيضا ؟؟؟

و لهذا نرى أن هذا التفسير و إن كان ينسحب على من آمن منذ السنة الأولى للبعثة و قبل الهجرة، فإنه لا يمكن أن ينسحب على من بقي على وثنيته و تأخر عن الدخول في الإسلام إلى يوم الفتح؛ أن مضمون الحديث[1] الذي استند إليه صبحي الصالح و غيره من المهتمين بالظاهرة القرآنية على وجه العموم و بظاهرة التنجيم على وجه الخصوص، يستبعد أولئك الذين لم يسبق لهم أن آمنوا بمحمد –صلى الله عليه و سلم– طيلة مكوثه بينهم في مكة إلى أن عاد إليها فاتحا، قولها: « حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال و الحرام » ليس المقصود منه عامة الناس الذين استجابوا لدعوة محمد –صلى الله عليه و سلم– منذ بداية نزول الوحي عليه وكانوا قلة وذاقوا من أصناف التعذيب على أيدي المشركين ما هو أشد وطأة عليهم من تكاليف الدين، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الناس الذين آمنوا بمحمد–صلى الله عليه وسلم– منذ بداية نزول الوحي عليه، وكان الإسلام يتدرج بهم من الإيمان بالمبدأ إلى العمل بجميع أوامره ونواهيه، لم يكرهوا على الدخول فيه، ناهيك عن التمسك به عقيدة وشريعة رغم الإغراء أو رغم التعذيب.

ولو كان السر الذي أثر به القرآن في العرب هو أنه كان يراعي أحوالهم، ويأتيهم من جهة أهوائهم[2] لما كان يشد عن تأثيره والإيمان بصاحبه منذ بداية نزوله أحد منهم، خاصة وأن السور الملكية لم تكن تتحدث لا عن الحلال و الحرام ولا عن الحدود والقصاص، فكيف يؤمن به فريق ويكفر به فريق إذا كان الوحي يراعي أحوال العرب جميعا؟؟ وكيف يظل الداخلون في الإسلام –رغم أنهم كانوا يعرفون ما كان

---

[1] روى البخاري في صحيحه –المجلد السادس ص: 185– نقلا عن صبحي الصالح (مباحث في علوم القرآن ص: 56) عن السيدة عائشة أم المؤمنين –رضي الله عنها– أنها قالت: " إنما نزل أول ما نزل منه [أي القرآن] سورة من المفصل فيها ذكر الجنة و النار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال و الحرام و لو نزل أول شيء "لا تشربوا الخمر" لقالوا: "لا ندع الخمر أبدا"، و لو نزل "لا تزنوا"، لقالوا: "لا ندع الزنا أبدا".

[2] انظر مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، مكتبة رحاب الجزائر ص: 160. بل هناك في القرآن نص صريح يغني عن تتبع كل النصوص الأخرى في المصحف، يقضي بعدم مراعاة القرآن لأهواء الناس و هو الذي تتضمنه الآية 71 من سورة المؤمنون. بل إن من يقرأ القرآن يجده يعارض كل المعارضة أهواء النفس و إلا كيف كان يمكنه أن يطوّع تلك الطاقة البدوية العذراء، للمزيد انظر مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن... موضوع: حقيقة الإعجاز ص: 156–165.

يلاقيه السابقون إليه من اضطهاد- يزدادون عاما بعد عام، مع تحملهم لإضطهاد المشركين لهم، من جهة ولما كان يفرضه الإسلام عليه من عادات وأخلاق في مجال الاعتقاد؟؟! فهل كان الذين سبقوا إلى الدخول في الإسلام كبلال وآل ياسر أشد صبرا على البلاء وأثبت على ما فرضته عليهم عقيدة التوحيد من أولئك الذين لم يؤمنوا إلا يوم الفتح؟؟؟.

وإذا كان مراعاة الوحي لأحوالهم هي علة دخولهم في الإسلام، فبماذا نفسر تزايد عدد أولئك الذين كانوا يدخلون في الإسلام بعد أن أصبح الجهاد فرض عين على كل قادر عليه؟؟ بل وإلزامه بالثبات في المعركة لعشرة من المشركين[1] ؟؟؟ هذا بالإضافة إلى نهيه عن المبالغة في معاقبة المشرك عند التمكن منه وترغيبه في الصبر والإعراض عن المعاقبة بالمثل[2] .

ولو أن الوحي المحمدي ظل يراعي طيلة العهد المكي حال المخاطبين ترغيبا لهم في اعتناق عقيدة التوحيد دون ترهيب لهم من عواقب التمادي في الغي والضلال والصد والإعراض، والظلم والطغيان، وكان يخلو من الأوامر والنواهي والتكاليف والفروض المتعلقة بالعقيدة لكان لهذا الرأي ما يعضده من القرآن، ولكان للقول به ما يبرر اعتماده في تفسير أثر الظاهرة القرآنية في الطاقة الحيوية لإنسان شبه الجزيرة العربية بوجه عام وأثر التنجيم فيها بوجه خاص!.

وإذا كان الإسلام قد استطاع أن يؤثر في الفرد والمجتمع الجاهلي ويغيرها تغييرا جذريا، لأن دستوره أي القرآن كان يفرق[3] « بين الأعماق والسطحيات في أنفس الأفراد والمجتمعات، فكل قضية عميقة الجذور في نفس الفرد اتخذت شكل عادة شعورية وكل قضية عميقة الجذور في نفس المجتمع اتخذت شكل تقليد اجتماعي

---

[1] انظر المصحف الشريف: سورة الأنفال الآية 65 " يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال عن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين و إن يكن منكم مئة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون".

[2] في معركة أحد مثّل المشركون بجثة الشهيد حمزة -رضي الله عنه- فأقسم الرسول -صلى الله عليه و سلم- و المؤمنون على أن يمثّلوا بسبعين جثّة من جثث المشركين إذا مكنهم الله منهم فنهاهم الله عن ذلك بقوله -سورة النحل، الآية رقم: 126: " و إن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به و لئن صبرتم لهو خير للصابرين".

[3] توصّل علماء القرآن إلى استنباط هذه الفكرة من الآيات التي عالج القرآن بها مشكلة الخمر و مشكلة الربا و مشكلة الرق، و هي آيات تدرّجت أحكامها في معالجة هذه المشاكل.

أو عرف دولي، فللإسلام موقف المتمهل المتريث الذي يؤمن بأن البطء مع التنظيم خير من العجلة مع الفوضى! وكل قضية سطحية تنزلق إلى نفس الفرد أو إلى نفس الجماعة فتفسد عليها فطرتها الزكية النقية، فهي جريمة في الحياة الإنسانية لا يجوز السكوت عنها، فليقطع الإسلام فيها برأيه ولتكن حدوده فيها غير قابلة للنقاش... وفي ضوء هذه التفرقة... نظر الإسلام إلى القتل والسرقة والغضب وأكل أموال الناس بالباطل ومختلف ضروب الغش في المعاملات نظرته إلى الزنا فحرمها مرة واحدة تحريما قاطعا لا تساهل فيه »[1] إن كان هذا هو المنهج الذي سلكه القرآن في التربية والتعليم! فما هي الوسائل الفنية التي اعتمد عليها في اقتلاع تلك الآفات النفسية الاجتماعية العميقة الجذور؟؟ إذا كانت الإجابة على هذا السؤال تتمثل عند علماء القرآن بما فيهم صبحي الصالح في تدرج الأحكام! فإن هذه الإجابة تبقى خاصة أو مقصورة على الذين اعتنقوا مبدأ التوحيد وخضعوا لأحكامه المختلفة، ولا يمكن أن تعم كل الوسط الجاهلي الذي بقيت معظم قبائله وثنية إلى يوم الفتح[2] !إذ لا يمكن اعتبار التدرج في الأحكام وسيلة من الوسائل التربوية –التي عالج بها القرآن آفة الخمر والميسر، والربا، واقتلع جذورها من عالم الأنفس ومن الواقع الاجتماعي والاقتصادي – بالنسبة لتلك الأغلبية التي بقيت على وثنيتها، مصرة على إنكار عقيدة التوحيد، وهذا لسبب بسيط هو أن التدرج في الأحكام تشريع، والتشريع في الظاهرة القرآنية لم يسبق المبادئ العقدية والخلقية التي مكنت للإيمان بعقيدة الإسلام من النفوس وإن تلاها[3]. ولذلك فإن التدرج في الأحكام وإن كان يعتبر وسيلة تربوية بالنسبة لمن سبق لهم أن اعتنقوا الإسلام في المرحلة المكية؛ فإنه لا يمكن أن يكون كذلك لمن ظلوا على وثنيتهم إلى يوم الفتح أو كانوا يظهرون الإسلام ويبطنون الشرك[4].

و لهذا يجب البحث عن الوسيلة الأساسية التي استعملتها الفكرة الدينية في الظاهرة القرآنية للتأثير في كل القبائل العربية وعلى رأسها قبيلة قريش–خلال الملكية والمدنية– لأنها كانت أفصح لسانا وأشد عداوة للإسلام والمسلمين.

---

[1] صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن ص: 57، 58.

[2] انظر حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي و الديني و الثقافي و الاجتماعي، المجلد الأول ص: 137–140.

[3] انظر محمد قطب: دراسات قرآنية، دار الشروق، الطبعة الخامسة لعام 1988م ص: 18–20.

[4] انظر سورة التوبة، الأحزاب، المنافقون.

ولكي تكون هذه الوسيلة أو الأداة التي نحاول الوصول إليها صالحة للتأثير في كل القبائل العربية وعلى رأسها قبيلة قريش[1]، فإنه ينبغي أن نجدها فيما برع فيه بدو صحراء الجزيرة العربية واشتهروا به بين الأمم المجاورة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ينبغي أن تكون هذه الأداة متميزة عما برع فيه القوم آنذاك وإذا كان من الثابت تاريخيا وأدبيا أن العرب حين بعثة محمد-صلى الله عليه وسلم- كانوا قد برعوا في فن القول[2] وكان حرفتهم الوحيدة، فمعنى ذلك أن الظاهرة القرآنية لم تكن قد أثرت تأثيرا فعالا في كل القبائل العربية إلا بالكلمة ذات النظم الأخاذ.

وبذلك فإن محمد -صلى الله عليه وسلم- شأنه شأن جميع الأنبياء والرسل الذين سبقوه لم يبعث في الجزيرة العربية رسولا « إلا بلسان قومه ليبيّن لهم»[3] سبيل التحضر و الحضارة.

و لما لم يكن للقبائل العربية من حرفة عرفت بها بين الأمم المجاورة سوى حرفة الكلمة التي برعت في استخدامها في حياتها الأدبية، فإن الظاهرة القرآنية لم تستعمل في سبيل الوصول إلى وجدان الإنسان العربي آنذاك إلا الكلمة؛ لأن العرب « كانت هوايتهم في لغتهم، فلم يقتصروا على استخدامها في ضرورات الحياة اليومية، شأن الشعوب الأخرى و إنما كان [الواحد منهم] يتفنن في استخدام لغته، فينحت منها صورا بيانية لا تقل جمالا عما كان ينحته "فيدباس" في المرمر، و ما كانت ترسمه ريشة "ليوناردو دافنشي" في لوحاته المعلقة في متاحف العالم الكبرى »[4]. و لم يكن الإنسان العربي و هو يفنن في استخدام لغته في فن من فنون القول، قدر افتنانه فيها و هو يؤلف قصيدة أو ينشد شعرا.

---

[1] انظر مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، موضوع: التنجيم ص:179-181.

[2] لقد اشتهر بنو اسرائيل في عهد فرعون بالسحر، فلما جاءهم موسى بمعجزة العصا و اليد كان أول المؤمنين برسالته هم السحرة لأنه جاءهم بما برعوا فيه و تحدّاهم به كما اشتهر بنو إسرائيل في الوقت الذي بعث فيه عيسى -عليه السلام- بالطب، فلما أحيا عيسى بإذن الله الموتى و أبرأ بإذنه الأكمه و الأبرص و أنبأهم بما يأكلون و ما يدّخرون، آمنت به طائفة و كفرت به طائفة، و اشتهر العرب قبل بعثة محمد -صلى الله عليه و سلم- بالفصاحة و البيان... انظر مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ص: 60-68، انظر مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن ص: 157.

[3] المصحف الشريف: سورة إبراهيم الآية: 4.

[4] مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ص: 61.

و لما بدأ الوحي يتنزل على محمد –صلى الله عليه وسلم– كان الشعر بالنسبة للعرب" نورا يضيء ظلمات الجاهلية، ويعكف أهله لبيانه عكوف الوثني للصنم، ويسجدون لآياته سجدة خاشعة لم يسجدوا مثلها لأوثانهم قط. فقد كانوا عبدة البيان قبل أن يكونوا عبدة الأوثان! وقد سمعنا بمن استخف منهم بأوثانهم ولم نسمع بأحد منهم استخف ببيانهم"[1]، ولكن ما إن أخذ العرب يسمعون ترتيل[2] بعض الآيات القرآنية بصوت النبي –صلى الله عليه وسلم– أو بصوت مقرئ من عشيرته الأقربين
أو بصوت واحد ممن اتبعه من المؤمنين، حتى استبدت فصاحتها بهم، وصرفتهم عن شعرهم، وظلوا بأعناقهم لها خاضعين، وإن كانوا عن محتواها وعمن أوحي بها اليه معرضين.

وكلما كانوا يسمعون آية أو آيات تتلى من لدن مقرئ، كلما كان يبدو لهم شعرهم الذي كانوا قبل نزول القرآن يعظمونه، وبه يتفاخرون، و يفتخرون أمام عظمة سحر ما كانوا مرة تلو الأخرى يسمعون من نظم وبيان أصغر مما كانوا يظنون[3]. لأنه"أول شيء أحسنه تلك الأذن العربية في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيما منوعا يجدد نشاط السامع لسماعه، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنّة توزيعا بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النفس فيه آنا بعد آن إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحته العظمى »[4]. وما كان لنظم كهذا حين كان يعمد إليه أشعر شعرائهم وأحكم حكمائهم أن يطاوعه وينقاد له؛ لأنه نظم حكيم عليهم.

ولذلك لم يكن لسادة قريش وكبرائها، من حيلة، بعد أن جربوا كل وسائل الإكراه البدني والنفسي للحيلولة بين محمد –صلى الله عليه وسلم– وأتباعه، وبين عامة الناس، سوى أن يأمروا أتباعهم بعدم الاستماع إلى ما كان يتلى من قرآن[5]. وإن هذا الأمر

---

[1] انظر مقدمة المصدر نفسه محمد محمود شاكر ص:48.

[2] انظر محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم ص:127–136. وانظر أحمد الشرباصي: يسألونك في الدين والحياة، دار الجيل– لبنان– بيروت، الطبعة الرابعة لعام 1980م المجلد الأول ص: 317،318. وانظر لبيب السعيد: الجمع الصوتي الأول للقرآن...دار المعارف الطبعة الثانية الفصل الأول ص: 241 وما بعدها.

[3] انظر مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن ... ص:265–273.

[4] محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم ص:131.

[5] انظر المصحف الشريف سورة فصلت الآية:26.

ليدل على[مدى] الذعر الذي كان يضطرب في نفوسهم، من تأثير القرآن فيهم وفي أتباعهم، وهم يرون هؤلاء الأتباع يسحرون بين عشية وضحاها من تأثير الآية أو الآيتين والسورة والسورتين يتلوهما محمد أو أحد أتباعه السابقين، فتنقاد إليهم النفوس، وتهوى إليهم الأفئدة ويهرع إليهم المتقون »[1].

ولا يمكن القول إن« رؤساء قريش [قالوا] لأتباعهم وأشياعهم هذه المقالة، وهم في فجوة من سحر القرآن، فلولا أنهم أحسوا في أعماقهم هزة روعتهم، ما أمروا أتباعهم هذا الأمر، وما أشاعوا في قومهم بهذا التحذير، الذي هو أدل من كل قول على عمق التأثير»[2]، الذي أحدثه فيهم ما كان يتلى من قرآن.

وإذا كان القرآن قد نزل بلسانهم « ففهموه أصدق فهم، و وصل إلى قرارة نفوس المؤمنين فملأها روحا ويقينا، واستثار الدفائن من صدور المشركين، فأعلنوا ما في قلوبهم من غيظ وما في رؤوسهم من عناد »[3]، فإنه ما كان ليصل إلى قرارة أنفسهم سواء في ذلك من آمن، ومن لم يؤمن لو لم يسلك إليها سبيل النظم والبيان.

ومع أن القرآن في ذلك « لم يخرج عن معهود العرب في لغتهم العربية،من حيث ذوات المفردات والجمل وقوانينها العامة، بل جاء كتابا عربيا جاريا على مألوف العرب من هذه الناحية، فمن حروفه تألفت تراكيبه، وعلى قواعدهم العامة في صياغة هذه المفردات وتكوين التراكيب جاء تأليفه »[4]، إلا أنه أدهشهم بنظمه وبيانه،فغدوا على إثر ذلك في حيرة من أمرهم، ماذا يقولون وماذا يفعلون؟؟!.

وما كان لأسلوب القرآن أو الطريقة التي انتهجها في مخاطبتهم، أن تحدث فيهم، كل ذلك التأثير، لو لم تكن تختلف من أوجه عدة عما عرفته وعهدته تلك النفوس الفطرية من طرف التعبير الفني[5]. فقد أدركت تلك النفوس بفطرتها اللغوية[6] أن على الأسلوب القرآني مسحة لفظية تجلت لها من خلال نظامه الصوتي وجماله اللغوي:

---

[1] السيد قطب: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق بيروت، الطبعة السادسة لعام 1980م ص:14.

[2] سيد قطب المرجع السابق ص:15.

[3] زكي مبارك محمدعبد السلام النثر الفني في القرن الرابع الهجري الجزء الأول دار الجيل لبنان بيروت ص:45.

[4] محمد عبد العظيم الزرقاني مناهل العرفان في علوم القرآن الجزء الأول دار احياء التراث العربي لبنان بيروت الطبعة الثانية لعام 1998م ص:553.وانظر محمد عبد اله دراز النبأ العظيم ص:112-117.

[5] انظر المرجع السابق، موضوع: القرآن في قطعة قطعة منه ص:138-148.

[6] انظر مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ص:61.

فأما الأول فقد تجلى لها من خلال « اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته، و مدّاته و غناته، واتصالاته وسكتاته، اتساقا عجيبا وائتلافا رائقا يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور. وبيان ذلك أن من ألقى سمعه إلى مجموعة القرآن الصوتية وهي مرسلة على وجه السذاجة*... يشعر من نفسه ولو كان أعجميا لا يعرف العربية، بأنه أمام لحن غريب وتوقيع عجيب يفوق في حسنه وجماله كل ما عرف من توقيع الموسيقى وترنيم الشعر... وهذا الجمال الصوتي أو النظام التوقيعي، هو أول شيء أحسته الأذان العربية أمام القرآن... حتى خيل إلى هؤلاء العرب أن القرآن شعر؟ لأنهم أدركوا في إيقاعه وترجيعه لذة، وأخذتهم من لذة هذا الإيقاع والترجيع هزة، لم يعرفوا شيئا قريبا منها إلا في الشعر، ولكن سرعان ما عادوا على أنفسهم بالتخطئة فيما ظنوا »[1] لأنهم لم يجدوا في شعرهم لذلك الذي أدركوه في القرآن مثالا.

ولما رأى سادة وكبراء قريش أنفسهم وأتباعهم أن القرآن قد أخذهم و أتباعهم من حيث لا يشعرون، و استدرجهم من حيث لا يعلمون، و رأوا أنهم قد هُزموا، أصدروا أمرا إلى أتباعهم بألا يستمعوا لمحمد –صلى الله عليه و سلم– و أتباعه، وبأن يلغوا في كل مكان يُقرأ فيه القرآن، لعلهم بذلك يغلبون.

وأما الوجه الثاني من الأوجه التي أخذ به القرآن نفوس العرب، فهو وجه جماله اللغوي وقد تبينته، تلك النفوس بما ركب في فطرتها اللغوية من ذوق للبيان، من خلال « رصف حروفه، و ترتيب كلماته، ترتيبا دونه كل ترتيب ونظام تعاطاه الناس في كلامهم. وبيان ذلك أنك إذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة، تشعر بلذة جديدة في رصف هذه الحروف بعضها بجانب بعض في الكلمات والآيات، هذا ينقر وهذا يصفر، وهذا يخفى وذاك يظهر، وهذا يهمس وذاك يجهر... ومن هنا يتجلى لك جمال لغة القرآن حين خرج إلى الناس في هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة، الجامعة بين اللين والشدة، والخشونة والرقة، والجهر والخفية على وجه دقيق

---

* يقصد بكلمة السذاجة مجموعة الأصوات المرسلة في الهواء وهي مجردة من هيكل الحروف والكلمات حين سماعها من بعيد أو سماعها من طرف أعجمي.

[1] محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، الجزء الثاني ص: 558، 557.

محكم»[1]، وما كان للعرب أن تجد هذا الجمال لو أخذت تبحث عنه إلا في القرآن؛ وهو الأمر الذي دفع بأولئك[2] الذين أمروا أتباعهم بالنهار بألا يستمعوا لتلاوة القرآن، لأن يتسللوا فرادى مستخفين تحت جنح الظلام للاستماع إلى طائفة من المؤمنين وهي ترتل القرآن[3].

وأما الوجه الثالث من الأوجه التي أدهشت العرب وأذهلتها، فهو الوجه الذي يجمع فيه الخطاب القرآني، بين إرضاء العامة وإرضاء الخاصة، وما عهدت العرب ولا الإنسانية في منظومها و منثورها قبل ذلك وبعده مثل هذا، إذ لأول مرة وجدت العرب نفسها« بين يدي كلام ليس كمثله كلام، لا في إشراق ديباجته ولا في امتلائه وثروته، ولا كذلك كلام البشر، فإنه إن أرض الخاصة والأذكياء لجنوحه إلى التجوز والإغراب والإشادة لم يرض العامة، لأنهم لا يفهمونه، وإن أرضى العامة لجنوحه إلى التصريح والحقائق العارية المكشوفة لم يرض الخاصة لنزوله إلى مستوى ليس فيه متاع لأذواقهم ومشاربهم وعقولهم».

وبالإضافة إلى ما سبق هناك وجه جديد للأسلوب الخطابي القرآني لم تكن العرب تعرفه لا في منظومها و لا في منثورها، وهو الذي يسميه محمد...دراز "إقناع العقل و اتباع العاطفة"، وما يسميه الزرقاني "إرضاء العقل والعاطفة معا"، وهو وجه ينفرد به أسلوب الخطاب القرآني، فإذا كان العقل قوة تفكير وبيان، والعاطفة قوة وجدان أو انفعال و نزوع، فإن حاجة كل واحد منها غير حاجة الآخر، ومن المستحيل على أي كاتب سواء كان أديبا أو خطيبا أو مفكرا أو فيلسوفا أن يجمع أسلوب كتابته بين إقناع العقل وبين إرضاء العاطفة، ولكن القرآن يجمع بين هاتين الميزتين«انظر إليه مثلا وهو في معمعان الاستدلال العقلي على البعث والإعادة في مواجهة منكريهما، كيف يسوق استدلالا سوقا يهز القلوب هزا ويمتع العاطفة إمتاعا بما جاء في طي هذه

---

[1] المرجع السابق ص:559.

[2] و هم أبو جهل و أبو سفيان و الأخنس بن شريق كان كل واحد يأتي من ناحية فيستمع إلى قراءته –صلى الله عليه و سلم– من حيث لا يراه الآخرون، فإذا تلاقوا بعد الانصراف تلاوموا و تواعدوا ألاّ يعودوا لئلا يعلم بهم غيرهم فيقتدوا بهم... الخ انظر محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي ص: 157، 158.

[3] انظر لبيب سعيد الجمع الصوتي الأول للقرآن... الفصل الأول ص:241– 277 ففيه حديث طويل عن أثر ترتيل القرآن في السامع.

الأدلة المسكتة المقنعة». وهذا الذي تطويه الأدلة القرآنية في هذا المجال الاستدلالي، هو ما عبر عنه محمد عبد الله دراز بقوله: «البيان والإجمال»، وهو وجه يضاف إلى الأوجه الآنفة الذكر، ولا يمكن لمن يبحث عنه أن يعثر عليه إلا في أسلوب الخطاب القرآني. فالأدباء و الخطباء و المفكرون مع تفاوتهم في الإجمال أو البيان لا يمكنهم أن يأتوا بهاتين الميزتين مجتمعين فيما يلفظون أو يسيطرون « لأنهما [غايتان متقابلتان] لا تجتمعان في كلام واحد للناس ! بل كلامهم إما مجمل و إما مبيّن؛ لأن الكلمة إما واضحة المعنى لا تحتاج إلى بيان، و إما مخفية المعنى تحتاج إلى بيان، و لكن القرآن وحده هو الذي انخرقت له العادة، فتسمع الجملة منه، و إذا هي بينة مجملة في آن واحد، أما أنها بينة أو مبيّنة... فلأنها واضحة المغزى وضوحا يريح النفس من عناء التنقيب و البحث لأول وهلة، فإذا أمعنت النظر فيها، لاحت منها معان جديدة كلها صحيح أو محتمل لأن يكون صحيحا، و كلما أمعنت النظر زادتك من المعارف و الأسرار بقدر ما تصيب أنت من النظر و ما تحمل من الاستعداد »[1]، و ما ذلك سوى أن هذه الكلمات و الجمل من « كتاب أُحكمت آياته، ثم فُصلت من لدن حكيم خبير »[2].

و لو لم يكن القرآن في خطابه للعرب « قد ملك سر... الفصاحة. و جاءهم منها، بما لا قبل لهم برده و لا حيلة لهم معه.. فاستبد بإرادتهم، و غلب على طباعهم و حال بينهم و بين ما نزعوا إليه من خلافه، حتى انعقدت قلوبهم عليه و هم يجهدون في نقضها، و استقاموا لدعوته و هم يبالغون في رفضها... فكانوا يفرون منه في كل وجه ثم لا ينتهون إلا إليه، إذ يرونه أخذ عليهم بفصاحته و إحكام أساليبه جهات النفس العربية... لما كان له في أولئك العرب أمر البتة؛ لأنهم قوم أميون... و ما جاءهم القرآن بشيء لا يفهمونه... و لا كان... القرآن كتاب سياسة و لا نظام دولة و لو كان أمرا من ذلك ما

---

[1] محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن ص: 567، 568 و قد شبّه محمد عبد الله دراز هذا الوجه بالفص من الماس حين قال: « تقرأ القطعة من القرآن فتجد في ألفاظها من الشغوف و الملامسة و الإحكام، و تخلو من كل غريب عن الغرض، ما يتسابق به مغزاها إلى نفسك دون كد خاطر و لا استعادة حديث. كأنك لا تسمع كلاما و لغات بل ترى صورا و حقائق ماثلة... حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة وجوها عدة، كلها صحيح أو محتمل للصحة، كأنما هي فص من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعا فإن نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها، فلا تدري ماذا تأخذ عينك و ماذا تدع. و لعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك لرأى منها أكثر مما رأيت... » النبأ العظيم ص: 147، 148.

[2] انظر المصحف الشريف: سورة هود الآية: 1 و انظر النبأ العظيم ص: 147، 148.

حفلوا به؛ و لا استدعى ... منهم الإجابة؛ لأن لهم منزعا في الحرية لم تغلبهم عليه دولة من دول الأرض...» [1].

و خلاصة القول: إن منهج الخطاب القرآني لو كان يخلو من أسلوب النظم و البيان و يتوافر فقط على الوسائل التالية: 1- التنجيم و التقسيط للآيات و السور، 2- التفرقة بين ما هو في النفس البشرية من عادات و تقاليد و أعراف سطحي الجذور و ما هو عميق فيها، 3- التدرج في بعض الأحكام المتعلقة بالحلال و الحرام و تأخير بيان حكم بعضها الآخر لوقت الحاجة، 4- الترغيب و الترهيب -مع أن هذه الوسائل و إن كانت في المنهج التربوي للقرآن مما يقتضيه الإصلاح و التغيير-؛ فإنه ما كان ليحدث أي تأثير يذكرنا ناهيك عن أن يكون فعّالا في تلك الطاقة المنطلقة على سجيتها في صحراء الجزيرة العربية لو لم يلبس تلك الوسائل التي اعتمدها في التغيير و الإصلاح ثوب النظم و البيان.

هذا خاصة و أن خطاب هذا المنهج، منذ أول آية نزلت على الرسول -صلى الله عليه وسلم- في غار حراء حتى آخر آية نزلت في حجة الوداع، لم يكن و هو يدعوهم إلى اعتناق الإسلام «... يداخلهم بالنفاق [أو] يتألفهم على باطلهم [أو] ينزل في العقيدة على حكمهم

[أو] يقرّهم على طباعهم و عاداتهم و يستدرجهم من حيث لا يعلمون [أو] يمد لهم في الغي مدا من أمر ما أعجبهم و من شأن ما استخفهم كما يصنع دهاة السياسة و قادة الأمم »[2]، بل لم يكن طيلة ثلاثة و عشرين سنة إلا « الراغب عن سنتهم و المسفه لأحلامهم، و الطاعن عليهم و على آبائهم و المفارق لشرائعهم و عاداتهم »[3]؛ فهل كان للقرآن مع كل هذا أن يغالب تلك النفوس الأبية و يطوع طاقاتها الحيوية لقواعد نظامه الصارم، لو لم يصغ قواعده في قالب النظم و البيان ؟؟

---

[1] مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن و البلاغة النبوية ص: 159، 160. و انظر محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان ص: 156، 211، 212، 427، 574.

[2] مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن و البلاغة النبوية ص: 163، 164.

[3] المرجع السابق ص: 164.

الفرع الثالث: إعادة الفاعلية للفكرة الإسلامية شرط أساسي لحل المشكلة الإسلامية

لم يكن مالك بن نبي حين تناول المشكلة الإسلامية بالدرس و التحليل و الاستقراء، في راهنها و في ماضيها ينظر إلى الوقائع و الأحداث التي تكونت منها المشكلة الإسلامية « على أنها سلسلة من الأحداث يعطينا التاريخ قصتها »[1] و إنما كان ينظر إليها على أنها ظاهرة دورية حتمت، انتقال الحضارة الإسلامية من دورة صغرى إلى أخرى إلى أن استكملت دورتها الكبرى في العالم الإسلامي، ثم انتقلت منه لتبدأ دورتها في العالم الغربي[2].

و لذلك ففي نظره أن النتيجة التي أسفرت عنها واقعة صفين عام 38 للهجرة تعتبر بمثابة نقطة الانكسار في المنحنى البياني الذي رسمته الفكرة الإسلامية للإنسان المسلم للسير عليه، و الحد الفاصل بين المرحلة الروحية التي عاشها الإنسان المسلم خلال عصر التنزيل و عصر الخلفاء الراشدين، و بين المرحلة العقلية و الغريزية للحضارة[3] لأن ما حدث مباشرة بعد هذه الواقعة من انفصال بين السلطة الروحية و بين السلطة الزمنية، كان أول عامل من عوامل بداية التقهقر و الانحطاط في العالم العربي و الإسلامي[4] إذ منذ تلك اللحظة.. لم يعد... الفرد المسلم يتصرف في كل طاقاته الحيوية، و هو يباشر وظيفته الاجتماعية، أعني إن كان جانبا من غرائزه لم يعد تحت رقابة نظام أفعاله المنعكسة »[5] المكتسب من الفكرة الدينية.

هذه الحادثة غيرت اتجاه العالم الإسلامي و جعلته يفقد ذلك التوازن الذي كان يعرفه بين الجانب الروحي و بين الجانب المادي، في حياة أفراده و جماعاته و هو و إن كان –رغم ذلك– قد واصل حركته و إنتاجه للعلوم و الفلسفة و الأدب

---

[1] مالك بن نبي: روط النهضة ص: 68.

[2] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 21-28.

[3] انظر مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 30، 31.

[4] انظر مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 31-33.

[5] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ص: 77.

و العمران؛ فإنه « لم يقو على البقاء إبان تلك الأزمة الأولى في تاريخه و بعدها، إلا بفضل ما تبقى فيه من دفعة قرآنية حية قوية، و كان سر تماسكه رجال من أمثال عقبة بن نافع، و عمر بن عبد العزيز، و الإمام مالك... لأن فضائل الإسلام الفطرية العظيمة قد تجسدت فيهم بصورة أو بأخرى »[1].

و على الرغم من أن العالم العربي و الإسلامي، عرف حضارة، و قدم للإنسانية إبان عصور ازدهاره منتجات حضارية، تمثلت فيما أبدعه أولئك الرجال الذين كرسوا حياتهم للعلم و الفلسفة و الفقه و الأدب و الفنون، إلا أن تلك « الحضارة ليست –من الناحية العضوية التاريخية التي تهمنا– سوى صورة مشوهة عن البناء الأصلي الذي شاده القرآن، و الذي قام على أساس من التوازن بين العقل و الروح أي على الأساس المزدوج، الروحي المادي، اللازم لكل بناء اجتماعي أهل للخلود »[2].

و لو لم يقم معاوية ثم من جاء بعده من الخلفاء الأمويين، باستثناء عمر بن عبد العزيز بالفصل بين السلطة الروحية، و بين السلطة الزمنية، و إحلال الملكية محل الخلافة، التي كانت قائمة على مبدأ الشورى و ليس على مبدأ التعيين، لظل المشروع الحضاري الذي حدد الإسلام مبادئه و قواعده الأساسية[3]، و التي عمل النبي – صلى الله عليه و سلم– بسنته القولية و الفعلية و التقريرية و خلفاؤه الراشدون: أبو بكر

و عمر و عثمان و علي –رضي الله عنهم– أجمعين، على التمكين لها من النفوس، و من التحقيق لها في جميع مبادئ الحياة، حيث بدأت آثارها تحسن و تلمس في سلوك الأفراد و في أسلوب المجتمع الإسلامي، إذ لولا ذلك الحدث لظل ذلك المشروع ينمو و يزدهر، و لظلت "الخيرية" التي خص الله بها أمة محمد – صلى الله عليه و سلم– تنمو و تزدهر في واقع الإنسانية جمعاء.

و لكن ما قام به خلفاء بني أمية، من انقلاب على أهم المبادئ و القواعد الأساسية التي قام عليها مشروع الحضارة الإسلامية جعل الوحدة الروحية التي عرفتها الأمة الإسلامية قبل ذلك تتصدع، و الوحدة في الصف تتفرق إلى شيع و أحزاب

---

[1] مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 36.

[2] مالك بن نبي: المصدر السابق ص: 25.

[3] لا يمكن حصر هذه المبادئ و القواعد لذلك نكتفي بذكر بعض منا و نحيل القارئ إلى القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة أو على عبد الغني بيوفي عبد الله: نظرية الدولة في الإسلام، الدار الجامعية لبنان– بيروت– الطبعة الأولى لعام 1986م.

و حركات يأكل بعضها بعضا إلى أن أتى على شعوب العالم العربي و الإسلامي حين من الدهر لم تعد فيه قادرة على مواصلة حركتها الحضارية. و ذلك لأن شبكة العلاقات التي أتاحت للأمة الإسلامية مزاولة نشاطها المشترك و مواجهة كل الصعوبات التي عرفتها في بداية نشأتها و مكنت لها من البقاء و من الاستمرارية في الحركة الحضارية، كانت قد تمزقت نهائيا[1]، بعد أن فقدت الفكرة الإسلامية على مستوى الفرد إشعاعها الروحي و على مستوى الأمة وظيفتها الاجتماعية. فالحضارة تبدأ حينما تدخل التاريخ فكرة دينية معينة أو عندما يدخل التاريخ مبدأ أخلاقي معين ... على حد قول "كسرلنج" كما أنها تنتهي حينما تفقد الروح نهائيا الهيمنة التي كانت لها على الغرائز المكبوتة أو المكبوحة ... (و) في نهاية الدورة ... يكون [الإنسان] قد تفسخ حضاريا و سلبت منه الحضارة تماما، فيدخل في عهد ما بعد الحضارة »[2].

و الإنسان المسلم منذ أن نهض رجال الإصلاح الديني و التحديث الاجتماعي و السياسي في نهاية القرن التاسع عشر، و هو يحاول جاهدا إصلاح أوضاعه الأدبية و المادية و إيجاد حلول جذرية لمأساته الإسلامية المزمنة و إحداث تركيب أصيل لعناصر الحضارة، و لكنه رغم الوقت الذي أنفقه و الجهود التي بذلها و الوسائل التي استهلكها فإن النتائج التي حققها على جميع المستويات في حياته إذا ما تورثت بالنتائج التي حققتها اليابان أو الصين الشعبية أو حتى تلك البلدان التي نهضت مؤخرا مثل إسبانيا و إيطاليا و كوريا الشمالية، لا تكاد تذكر[3].

و ذلك لأن الإنسان في هذه البلدان عمد منذ بداية نهضته إلى وضع جميع مشكلاته ضمن حدود حضارة و على مستوى أسسها و إرادتها و قدرتها، بينما الإنسان في البلدان العربية و الإسلامية لم يضع مشكلاته ضمن حدود حضارة و على مستوى أسسها و إرادتها و قدرتها، و إنما وضعها على مستوى منتجات حضارة، فعجز عن تحقيق الشروط الأخلاقية و المادية لاستكمال سيادته الاقتصادية و الديبلوماسية في حين تمكن الإنسان في تلك البلدان من تحقيق هذه الشروط التي تقتضيها السيادة الاقتصادية

---

[1] انظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع موضوع: المرض الاجتماعي ص: 42-47.

[2] مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 78.

[3] انظر مالك بن نبي: تأملات، موضوع: خواطر عن نهضتنا العربية ص: 175-202.

و الديبلوماسية[1].

و ليس المقصود من ذكر الاقتصاد و الديبلوماسية هو أن العالم العربي و الإسلامي أخفق في هاتين الناحيتين و نجح في نواح أخرى و إنما المقصود من نكرها هو أن أي بلد لا يمكنه أن يتخذ قراراته المصيرية ما لم يكن يمتلك قوة اقتصادية[2].

و لما كان الاقتصاد كذلك؛ فإنه يعتبر بالنسبة للبلدان العربية و الإسلامية التي لا تزال تعاني من التبعية للبلدان الغربية الصورة المحسة التي تخفي وراءها عدم قدرة هذه البلدان على إحداث تغيير جوهري في المعادلة الاجتماعية عند الإنسان[3] فيها، كما يعتبر في الوقت ذاته الميدان الذي يتجلى فيه سوء فهم هذه البلدان للمقياس العام الذي يحكم عملية البناء الحضاري[4] بوجه عام، و هذا المقياس كما حدده مالك بن نبي[5] هو أنه « ليس من الواجب لكي ننشئ حضارة أن نشتري كل منتجات [حضارة أخرى]؛ فإن هذا يعكس القضية... و هو يقود في النهاية إلى عملية مستحيلة كما و كيفا. فمن ناحية الكيف: تنتج الاستحالة من أن أي حضارة لا يمكن أن تبيع جملة واحدة الأشياء التي تنتجها ...[كما] لا يمكن [و هذا هو المهم] أن تبيعنا روحها و أفكارها و ثرواتها الذاتية و أذواقها ...ومن ناحية الكم: لن تكون الاستحالة أقل، فليس من الممكن أن نتخيل العديد الهائل من الأشياء التي نشتريها و لا أن نجد رأس المال الذي ندفعه فيها »[6].

و بناء على هذه النتيجة النظرية التي يتوصل إليها أي عقل يفكر في كيف ينشئ حضارة ؟ فإن الطرق العملية التي تمكن تدريجيا من الوصول إلى حل نهائي للمشكلة الإسلامية تقتضي أولا إعادة تركيب عناصر الحضارة طبقا للمقياس العام الذي يحكم

---

[1] انظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى ص: 46-54.

[2] انظر جيكينس فولكوف كلوتشكوفسكي: اقتصاد البلدان الغنية و الفقيرة، دار التقدم موسكو، الطبعة الأولى لعام 1990م الفصل الخامس عشر، مشكلة التخلف و الفقر الشاملة ص: 364-383.

[3] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، موضوع: المعادلة البيولوجية و المعادلة الاجتماعية للفرد في التجارب الحديثة ص: 90 و ما بعدها.

[4] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة، موضوع: من التكديس إلى البناء ص: 47 و ما بعدها.

[5] انظر المصدر نفسه ص: 47، 48.

[6] مالك بن نبي: المصدر السابق ص: 47، 48.

هذه العملية كما تقتضي ثانيا عدم تجاهل دور العامل الديني الذي يغير الإنسان في إرادته و اتجاهه، و يمزج بينه و بين التراب و الوقت، كما سبق له أن غير الإنسان العربي البدوي و ركب عناصر الحضارة الإسلامية[1].

و نظرة مالك بن نبي إلى ضرورة العامل الديني و أهميته في عملية إعادة تركيب عناصر الحضارة في البلاد العربية و الإسلامية من جديد، ليست نابعة من الكتب التاريخية و الفلسفية و الاجتماعية، التي تتفق على أن العناصر الأساسية للحضارة الإسلامية و المسيحية تركبت في مهد فكرة دينية[2]، و إنما هي نابعة من إيمانه القوي بأن « قوة التركيب لعناصر الحضارة خالدة في جوهر الدين، و ليست ميزة خاصة بوقت ظهوره في التاريخ، فجوهر الدين –حسب العبارة الشائعة– مؤثر صالح في كل زمان و مكان »[3].

و ليس تاريخ الأمة الإسلامية إلا تأكيدا لهذه النظرة، فقد كان الدين الإسلامي العامل الأساسي الذي استعمل في استنفار أفراد و جماعات الأمة الإسلامية و في تعبئة طاقاتها و قدراتها و في توحيد صفوفها و تحريكها لمواجهة حركة الارتداد التي ظهرت في عهد أبي بكر –رضي الله عنه–، و لصد غزو التتار و المغول للعالم الإسلامي في العهد العباسي، و للوقوف في وجه الحملة الصليبية التي قادها ملك انجلترا لتحرير بيت المقدس في العصر الأيوبي، و لتحرير العالم الغربي و الإسلامي من الاستعمار الصليبي الحديث.

و لكن ما إن كادت مبادئ الإسلام و قواعده الأساسية في الشوط الأول من المعركة التي خاضتها شعوب العالم الإسلامي ضد الاستعمار؛ تستعيد سيطرتها على النفوس و وظيفتها الاجتماعية في الحياة الخاصة و العامة، حتى بدأت هذه المبادئ و القواعد، تفقد في الشوط الثاني من المعركة سيطرتها على النفوس و وظيفتها الاجتماعية في الحياة، التي مكنها الإسلام في المعركة العسكرية من إحراز نصر على

---

[1] انظر مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 65، و انظر له: ميلاد مجتمع، موضوع: فكرة التربية الاجتماعية ص: 75–81.

[2] انظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، موضوع: الدين و العلاقات الاجتماعية ص: 54–58.

[3] مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 65.

الاستعمار، أرادت أو أريد لها ألا تواصل معركتها ضد الجهل و الأمية و التخلف بالإسلام، و إنما بإحدى الأيديولوجيتين الاشتراكية أو الليبرالية[1].

غير أنه كما كانت هاته الأيديولوجية أو تلك تعتبر بالنسبة للبلدان العربية و الإسلامية في هذا الشوط من معركتها، بمثابة روح انتزعت من جسمها[2]، فإنها رغم ما أجري عليها من توفيق أو تلفيق بينها و بين الإسلام، لم تستطع أن تكون الروح البديل عن روح الإسلام[3]، الذي أمدها بالطاقة التي ساعدتها على التحرر من الاستعمار، و الذي بإمكانه أن يمدها بنفس الطاقة التي تساعدها على التحرر من التبعية الاقتصادية و السياسية، بل إن هاتين الإيديولوجيتين ساهمتا في الحد من حركة النهضة الاجتماعية و الاقتصادية و في زيغ البلدان العربية و الإسلامية عن الطريق الذي سلكته إلى التحرر السياسي[4].

و لذلك، و لما كان المشروع العلماني، هو المشروع الوحيد الذي ظل مهيمنا طيلة نصف قرن على كافة مجالات الحياة في البلاد العربية و الإسلامية، و رغم ذلك لم يتمكن من تكتيل الطاقات و الجهود و الإمكانات المتوافرة في هذه البلاد، و من إعادة تركيب عناصر الحضارة، و من إحداث نهضة أدبية و مادية[5]، و بالتالي من تحرير العالم العربي و الإسلامي من التبعية الفكرية و السياسية و الاقتصادية للبلدان الغربية[6]؛ فإنه لم يبق أمام عالمنا الإسلامي من فكرة، تبعث فيه الإرادة الفردية و الجماعية و تدفعه إلى إعادة تركيب عناصر الحضارة، تركيبا أصيلا، تتحقق معه سائر الشروط المعنوية و المادية، التي تجعله قادرا على حل كافة مشكلاته الحضارية، و التحرر من تبعيته للبلدان ذات النزعة الاستعمارية، سوى الفكرة الإسلامية.

---

[1] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، موضوع: حدود الاختيار الإسلامي بين المناهج الموجودة ص: 42-46. و انظر عبد المجيد عمر النجار: عوامل الشهود الحضاري ص: 68، 69، 87.

[2] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد ص: 45.

[3] انظر عماد الدين خليل: نظرة الغرب إلى حاضر الإسلام و مستقبله، دار النفائس، الطبعة الأولى لعام: 1999م، موضوع: الاتبعاث و صياغة المستقبل ص: 105 و ما بعدها.

[4] انظر مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، موضوعا: أصالة الأفكار و فعاليتها ص: 102-110، الأفكار و ديناميكا المجتمع ص: 111-118.

[5] انظر علي عزت بيجوفيتش: الإعلان الإسلامي، موضوع: لا مبالاة الجماهير المسلمة ص: 59-61.

[6] انظر عبد المجيد عمر النجار: عوامل الشهود الحضاري ص: 47-51.

و إذا كان بإمكان البلاد العربية و الإسلامية حل مشكلة معادلتها الاجتماعية من خلال العمل على توجيه الإنسان في فكره و عمله و رأس ماله؛ فإنه ليس بإمكانها الوصول إلى إحداث تركيب أصيل للإنسان و التراب و الوقت إذا ما تمادت في تهميش الفكرة الإسلامية، و ذلك لسبب بسيط هو؛ أنه إذا كانت المشروعات الخيرية أو العلمية أو الاقتصادية حتى في الأمم المتقدمة تحتاج من أجل تجسيدها إلى الفكرة الجامعة لطاقات و جهود هذه الأمم[1]، فإن تجسيدها في البلاد العربية و الإسلامية، ناهيك عن تجسيد المشروع الحضاري العام في الظروف الراهنة، إن لم تكن الفكرة الإسلامية، هي الفكرة الدافعة للإنسان في اتجاه هذه المشاريع، و هي المحركة و المجمعة لطاقاته و جهوده و إمكانياته و المكتلة في عمل مشترك؛ يصعب أو يستحيل[2].

و على الرغم مما جرى في العقدين الأخيرين في كثير من البلدان العربية و الإسلامية، و صورة المسلمين بوجه عام؛ فإن هذه الفكرة الإسلامية تبقى، الفكرة الوحيدة التي تستطيع تعبئة كافة طاقات الأمة و قدراتها و إمكانياتها، بشرط أن تعيد الأمة تسجيلها في نفوس أبنائها؛ و ذلك بأن تربط بين المبادئ و القواعد و القيم العقدية و الخلقية و التشريعية و بين أنظمة الحياة الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية؛ لأن من شأن هذا الربط أن يمكن الإنسان المسلم من تجديد صلته بخالقه[3]، كما يمكنه في الوقت ذاته من تقوية الروابط الروحية و الاجتماعية بينه و بين أخيه المؤمن و بالتالي فإنه يمكن الأمة الإسلامية من التغلب على كل العوامل النفسية و الفكرية التي تساهم في إضعاف طاقاتها و قدراتها و إمكانياتها و في الإطالة في مرحلة وهنها[4].

و ليس من المعقول أن تظل الأمة الإسلامية في حالة ضعف و وهن، لو أن رجال النهضة الدينية عرفوا كيف يجددون صلة الإنسان المسلم بفكرته الإسلامية و بمصدريها الأصليين: الكتاب و السنة، فهؤلاء الرجال منذ السيد جمال الدين الأفغاني إلى يوم الناي هذا، و إن كانوا قد سعوا إلى تغيير ما بنفس الإنسان المسلم إلا أنهم لم

---

[1] انظر مالك بن نبي: تأملات، موضوع: الثقافة ص: 141 و ما بعدها.

[2] انظر علي عزت بيجوفيتش: الإعلان الإسلامي، موضوع: المشكلات الراهنة للنظام الإسلامي ص: 85 و ما بعدها.

[3] انظر محمد الغزالي: كفاح و دين، دار نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، موضوع: إضعاف الوازع الديني ص: 121 و ما بعدها. و انظر مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، موضوع: وحدة و توازن و انسجام ص: 72-82.

[4] انظر عبد المجيد عمر النجار: عوامل الشهود الحضاري، موضوع: أهمية التغير الحضاري ص: 191-195.

يستطيعوا أن يأتوا النفس المسلمة هزة القلب، كيما يرتفعوا بها فوق ركود ما بعد الموحدين[1] و السبب في ذلك، هو أن جهدهم الإصلاحي، كان و لا يزال –رغم تمكنه من تحطيم التعادل الخامد الذي استقر عليه عصر ما بعد الموحدين –متجها إلى المرحلة الفكرية من الحضارة، و لم يتجه بعد إلى المرحلة الأولى منها، و هي المرحلة الروحية التي تؤدي إلى تغيير الفرد، إلى جانب أنها تؤدي إلى أول تغيير يمكن أن تتعرض له القيم الاجتماعية[2].

و هذا الخطأ المنهجي الذي وقعت فيه جميع الحركات الإسلامية على امتداد قرن و نصف، لم تسلم من الوقوع فيه إلا حركة الإخوان التي يرشدها روحيا الإمام حسن البنا إلى الإحياء الإيماني أو تجديد صلة الإنسان المسلم بخالقه[3].

و من الثابت أنه لم يكن للمرشد حسن البنا، في دعوته أي وسيلة « سوى الآية القرآنية، و لكنه كان يستخدمها في نفس الظروف النفسية التي كان يستخدمها فيها النبي –صلى الله عليه و سلم– و صحابته من بعده، و هذا هو السر كله: أن تستخدم آية كأنه فكرة موحاة*، لا فكرة محررة مكتوبة »[4]، و تفسير هذا السر الذي خص الله به الإمام حسن البنا من الناحية المنهجية، هو أنه عرف كيف يعيد تسجيل الفكرة الإسلامية في النفس المسلمة، فاستعادت في زمنه تأثيرها، الذي كان لها في الحياة إبان عصر التنزيل و عصر الخلفاء الراشدين، على النفس في الوسط الذي كان يسعى جاهدا إلى تغييره، « و إذا كان قد أتيح... [له] أن يؤثر تأثيرا عميقا في سامعيه، فما ذلك إلا لأنه لم يكن يفسر القرآن، بل كان يوحيه إلى الضمائر... [فـ] يزلزل كيانها، فالقرآن لم يكن على

---

[1] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 76.

[2] انظر المصدر نفسه ص: 145.

[3] انظر عبد المجيد عمر النجار: مشاريع الإشهاد الحضاري، موضوع: مشروع الإحياء الإيماني ص: 179–264.

* يشير مالك بن نبي بهذه الفكرة إلى سر تربوي ينطوي عليه نزول القرآن منجما، و قد وفق في نظر مالك بن نبي المرشد الروحي حسن البنا إلى الوقوف على هذا السر، الأمر الذي جعله لا يفسر القرآن لمستمعيه و إن كان يوحيه إليهم من خلال الأحداث التي كانت تمر بها الأمة الإسلامية، و كأنه ينزل عليهم في تلك اللحظة التي كان يتحدث فيها لهم عن مشكلاتهم الحضارية. انظر الظاهرة القرآنية، موضوع: التنجيم ص: و ما بعدها.

[4] مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 147، 148.

شفتيه وثيقة باردة، أو قانونا محررا، بل كان يتفجر كلاما حيا، و ضوءً آخذا يتنزل من السماء، فيضيئ و يهدي، و منبعا للطاقة يكهرب إرادة الجموع »[1].

هذا بالإضافة إلى أن الإمام حسن البنا « لم يكن ... يتحدث عن ذات الله، كما صورها علم الكلام، أي عن "الله" العقلي، بل كان يتحدث عن "الله" الفعال لما يريد، المتجلي على عباده بالرحمة و القهر، تماما كما كان المسلمون الأولون يستشعرون حضوره فيما بينهم، و نفحته المادية في بدر و حنين »[2].

و لو لم تتآمر قوى داخلية و خارجية على إجهاض ذلك الجنين[3] الإصلاحي الذي نشأ في رحم المجتمع المصري، لكانت الفكرة الإسلامية قد استعادت إشعاعها الروحي و فاعليتها الاجتماعية في كافة أنحاء العالم العربي و الإسلامي[4]، و بالتالي لكانت عناصر الحضارة قد تركبت فيه منذ زمان؛ لأنه إذا كان المرشد الروحي لحركة الإخوان قد استطاع في ظرف وجيز أن يجعل الشباب المصري يدرك: أن الطريق إلى الحضارة يبدأ من مرحلة التطهير النفسي، و من الانتصار على العجز و الكسل للقيام بالواجب، فإن تأثير تلك الحركة كان حتما سيمتد إلى جميع أرجاء العالم العربي و الإسلامي.

و ذلك لأن ثقافة حركة الإخوان الإصلاحية و التغييرية، كانت ثقافة تنظيرية عملية[5]، الأمر الذي جعل هذه الحركة لا تكتفي بالحديث بالفكرة الإسلامية أو الحديث عنها، بل إنها شرعت من فورها في إنشاء جهاز من الجموع المسلمة الملتفة حولها « و دار الجهاز الضخم يحرك بدوره وجوه الحياة في البلاد، فينشئ المصارف لتوجيه الثقافة، و الصناعة الناهضة لخلق العمل و توجيهه، و جمع الجهاز الضخم أموالا

---

[1] المصدر نفسه ص: 148.

[2] مالك بن نبي: المصدر السابق ص: 148.

[3] انظر مالك بن نبي: فكرة الإفريقية الآسيوية... تعليقه على منهج مدرسة الإصلاح الديني الذي أغفل الجانب الاجتماعي من النظرية القرآنية.

[4] انظر عبد المجيد عمر النجار: مشاريع الإشهاد الحضاري، موضوع: خلاصة تعقيبية عامة ص: 271 و ما بعدها.

[5] انظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، موضوع: دفاع عن شبكة العلاقات الاجتماعية ص: 94-101 و انظر له مشكلة الثقافة، موضوع: المنطق العملي ص: 85-88.

طائلة استثمرت لتأسيس القاعدتين الضروريتين لحياة الفرد: قاعدة الروح و قاعدة المادة »[1].

و مع أنه كان من الواضح أن إنشاء القاعدة المادية الضرورية لحياة الفرد في أي بلد من البلدان العربية و الإسلامية لا يمكن أن يتحقق ما لم يكن مسبوقا أو مصحوبا بإنشاء القاعدة الروحية الضرورية لتركيب عالم الأشخاص، ولإنشاء شبكة العلاقات الاجتماعية التي تساعد على تجانس عمل الأشخاص والأفكار والأشياء[2]، إلا أن معظم الدول العربية والإسلامية لم تول مسألة القاعدة الروحية في برامجها التنموية كثيرا من الاهتمام والتفكير. حيث أن جميع البرامج التنموية التي وضعتها هذه الدول لحل مشكلاتها الحضارية منذ أكثر من خمسة عقود، لم تكن تركز فيها إلا على الجوانب المادية في هذه المشكلات. ومع هذا الإفراط من ناحية، والتفريط من ناحية أخرى، تحرم الدول العربية والإسلامية شعوب بلدانها من إمكانية إحداث نهضة شاملة يتحقق معها إنشاء القاعدتين: الروحية والمادية إنشاء مكينا قويا[3].

وذلك لأن الأصل في مشكلات الدول العربية والإسلامية ليس في نظر مالك بن نبي[4] ماديا أو اقتصاديا فحسب، بل هو نفسي وثقافي، وليس من المعقول إذا كان الأصل فيها ليس ماديا، أن يظل اهتمام وتفكير معظم قادة البلدان العربية والإسلامية منصبا على النواحي المادية وأن تظل برامجهم التنموية، وبالتالي قدرات وإمكانيات بلدانهم موجهة إلى القاعدة المادية فقط. خاصة إذا كان النموذج الاجتماعي والمنظر الإنساني، اللذين ظلت برامج البلدان العربية والإسلامية، تسعى إلى تغييرهما هما في حقيقتهما انعكاسا لقيم إنسانية وثقافية سائدة، في هذه البلدان[5]، فإن سعيها سيبقى غير فاعل فيهما إن لم يتناولهما في الأصول التي أوجدتهما،وذلك لأن تغيير هذه الأصول أو العوامل النفسية والفكرية هو أساس كل تغيير حضاري[6] هذا من جهة.

---

[1] مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 149.

[2] مالك بن نبي ميلاد مجتمع، موضوع: الثروة الاجتماعية ص 37-41.

[3] انظر حسن صعب الإسلام وتحديات العصر، دار العلم للملايين، لبنان بيروت الطبعة الثالثة، موضوع: الإسلام انسانية روحية متجددة ص : 133-271 .

[4] انظر مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه ص :192.

[5] انظر مالك بن نبي ، فكرة الأفريقية الآسيوية...موضوع: نظرات عامة في الثقافة الأفرسيوية ص: 134-147.

[6] انظر مالك بن نبي ، من أجل التغيير ، موضوع: في البناء الثقافي ص: 49-58.

ومن جهة أخرى فإن التغيير الحضاري الذي يطال القيم والأذواق والعادات والأخلاق، وبالتالي النموذج الاجتماعي والمنظر الإنساني السائدين في البلاد العربية والإسلامية، لا يمكن في نظر مالك بن نبي[1] وفي نظر غيره من المفكرين[2] ؛أن يبدأ من ثورة سياسية اقتصادية، وأين يبدأ من ثورة دينية.

ولهذا فإن مالك بن نبي، حين تناول في كتابة وجهة العالم الإسلامي، العوامل الداخلية والخارجية التي اكتنفت حركتي: الإصلاح الديني،و التحديث الاجتماعي والسياسي في البلاد العربية والإسلامية، والتي لا تزال تكتنفها، وجه نقدا إلى نظرة السيد جمال الدين الأفغاني السياسية للمشكلة الإسلامية، تلك النظرة التي جعلته في خطابه الدعوي ينصرف عن العوامل الداخلية التي أدت إلى تلك الأوضاع التي ثار عليها، ويكرس جهده ووقته في الدعوة إلى الثورة على تلك الأنظمة والقوانين التي كانت سائدة في زمنه في البلدان العربية والإسلامية[3].

و من نفس المنظور إلى عوامل المشكلة الإسلامية وإلى نوع الإصلاح والتغيير الذي تقتضيه رأى « أن العلماء الجزائريين كانوا أقرب إلى الصواب من السياسيين، حين دعوا إلى الإصلاح على دفع النفس الإنسانية إلى حظيرة الإيمان من جديد، ولكن هؤلاء العلماء –لسوء الحظ– قد انحرفوا هم أنفسهم عن الطريق القويم متبعين رجال السامية »[4] ، كما هو شأن رجال الدين وقادة الحركات الإسلامية في الظروف الراهنة.

ومن الغريب أن تكون الزاوية نظر منها مالك بن نبي إلى معنى الإصلاح أو التغيير المطلوب لحل المشكلة الإسلامية هي نفس الزاوية التي نظر منها المفكر القانوني مارسيل بوازار إلى هذا المعنى المقصود من الإصلاح أو التغيير .

ففي نظر هذا المفكر « أن التغيير السياسي الاجتماعي اللازم للتكيف مع العالم العصري، يظل مشروطا، بشكل واسع، بقيام "نهضة" دينية؛ لأن الإسلام الراشد يرفض

---

[1] انظر على سبيل المثال علي عزت بيجو نيتش ، الإعلان الإسلامي، موضوع: المشكلات الراهنة للنظام الإسلامي ص:85وما بعدها. مارسيل بوازار، إنسانية الإسلام ص:78. محمد الغزالي،كفاح دين ص: 121.

[2] انظر المصدر المشار إليه آنفا ص:41–108.

[3] انظر المصدر المشار إليه آنفا ص: 41–108.

[4] مالك بن نبي: شروط النهضة ص:65–66.

فصل الروحي عن الزمني »[1].

لكن الملاحظ على المنهج الذي ظلت تنتهجه السياسات التشريعية في البلدان العربية والإسلامية طوال نصف قرن تجاه هذه القضية الجوهرية في المشكلة الإسلامية، هو أنها بدلا من تحاول تضييق الهوة التي ظلت تتصل الروحي عن الزمني قرونا، بما تصدره من مراسيم ولوائح قانونية أو بما تجريه من حين إلى آخر من تعديلات على دساتيرها أو على بعض المواد الأساسية فيها، فإنها ظلت تزيد بذلك تزيد من توسيعها.

ومع أن مشكلات بلدان العالم العربي والإسلامي لا تكمن أساسا في النظام والتنظيم معناهما القانوني الضيق، إلا أن بلدان هذا العالم حصرتها في الناحية السياسية والقانونية، الأمر الذي جعل سياساتها وتشريعاتها، لا تعجز عن تنظيم حياة الفرد والمجتمع فحسب، بل تعجز عما هو أولى في ترتيب المشكلات من ذلك، وهو تركيب عناصر الحضارة[2].

وهو ما يوحي بأن عملية إعادة صياغة الإنسان والمجتمع المسلم ،صياغة تمكن بلدان العالم الإسلامي من إحداث نهضة شاملة،ومن تركيب أصيل لعناصر الحضارة، حتى إذا كانت تقتضي تشريعات، فإنه ينبغي أن يكون القرآن والسنة النبوية الصحيحة مصدريها الأصليين[3].

---

[1] إنسانية الإسلام ص:78.

[2] انظر مالك بن نبي وجهة العالم الإسلامي ص:31، 69-98.وفي نظر المفكر علي عزت بيجوفيتش "أن كثرة القوانين في مجتمع ما وتشعبها والتعقيدات التشريعية علامة مؤكدة على وجود شيء فاسد في هذا المجتمع وفي هذا دعوة للتوقف عن إصدار مزيد من القوانين والبدءفي تعليم الناس وتربيتهم ،فعندما يتجاوز في بيئة ما حدا معينا يصبح القانون عقيما ، ليسقط في يد فئة فاسدة من

[3] انظر مالك بن نبي وجهة العالم الإسلامي ص:56. وانظر علي عزت بيجوفيتش الإعلان الإسلامي، موضوع: الدين والقانون، ليس الإسلام مجرد دين، إشكاليات النظام الإسلامي في الوقت الراهن ص: 63-68.

تعتبر مشكلة الثقافة، من أهم المشكلات الحضارية التي أثارها مالك بن نبي في سائر مؤلفاته.

ونظرا لخطورة تأثير الثقافة، تأثيرا سلبيا على عالم الأشخاص والأفكار والأشياء في العالم الإسلامي، وأهمية وظيفتها في الحياة بوجه عام؛ فإن مالك بن نبي يثرها في هذا الكتاب أو ذاك، بل إنه خصص لها ثلاث مؤلفات هي"مشكلة الثقافة"و"مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي" و"القضايا الكبرى" وذلك حتى يبين خطورة تأثيرها وأهمية وظيفتها من ناحية ويعطيها ما تستحق من دروس وتحليل من ناحية أخرى.

ولم ينظر مالك بن نبي إلى المشكلة الثقافية في البلاد العربية والإسلامية من الناحية المادية والتجهيزية، إذ ليست هذه المشكلة في نظره نابعة من نقص في المؤسسات التربوية والتعليمية ولا من نقص في المدرسين والمكونين أو المؤطرين والموجهين ولا من نقص في الوسائل التجهيزية.

وذلك لأن جميع البلدان العربية والإسلامية أولت مسألة بناء المدارس والمعاهد والجامعات والمساجد ومراكز التكوين ومسألة تجهيزها اهتماما كبيرا.

كما أن بعض البلدان العربية والإسلامية مثل مصر وسوريا والعراق وباكستان سارعت إلى إعانة البلدان العربية والإسلامية، التي كانت تشكو بعد حصولها على استقلالها السياسي من نقص في المدرسين والمؤطرين وأمدتها بما كانت في أمس الحاجة إليه.

لم ينظر مالك بن نبي إلى المشكلة الثقافية في البلدان العربية والإسلامية من هذه الزاوية وإما نظر إليها من الزاوية الوظيفية والعملية[1].

---

[1] انظر له مشكلة الثقافة موضوع: معنى الثقافة في التاريخ،ومعنى الثقافة في التربية ص:76-77. وانظر القضايا الكبرى ص:79-89، وانظر له ميلاد مجتمع ص:100، وذلك لأن "كل حقيقة لاتؤثر على الثالوث الاجتماعي: الأشخاص، والأفكار، والأشياء، هي حقيقة ميتة،وكل كلمة لا تحمل جنين نشاط معين، هي كلمة فارغة، كلمة ميتة مدفونة في نوع من المقابر نسميه :القاموس".

ولم يكن مالك بن نبي ليشير إلى مشكلة الثقافة لو لم يلاحظ أن أغلب الناس في البلاد العربية والإسلامية يخلطون بين كلمة ثقافة وكلمة علم أو بين مفهوم[1] "ثقافة" و مفهوم "علم"، فهذا الخلط هو منبع إثارة مالك بن نبي لمشكلة الثقافة، كما هو في الوقت ذاته منبع اعتقاد الإنسان المسلم، من أن الثقافة هي مجرد علم أو معرفة موسوعية وليست الثقافة الإطار المعنوي والمادي الذي يحيط بالفرد ويؤثر في سلوكه وفي أسلوب حياة المجتمع تأثيرا إيجابيا أو سلبيا هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، فإن مشكلة الثقافة بالنسبة للبلاد العربية والإسلامية تكمن في اعتقاد مالك بن نبي أساسا في الكيفية التي يتم بها تصور العناصر الثقافية-التي يحصرها في المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي، والمنطق العملي، والفن الصياغي- في بيداغوجية أو في وجدة متجانسة[2]، تتناول بالإضافة إلى الأفكار الأصول والأفكار الفنية المستحدثة سائر ما يتركب منه إطار حياة المجتمع[3]، بهدف بناء عالم أو محيط ثقافي جديد، يتاح فيه لكل فرد من أفراد المجتمع أن يتعلم كيف يتحضر وكيف يحضر غيره[4].

و على هذا الطرح لا يمكن لمفهوم (ثقافة) أن يكون مرادفا لمفهوم (علم)؛ لأن العلم قد لا يشير إلا لبعض الفئات القليلة في المجتمع، وقد لا تجد هذه الفئات في المجتمع المناخ الذي يساعدها على تحويل الحقائق العلمية إلى منتجات حضارية معنوية أو مادية[5].

كما أن مفهوم الثقافة على هذا الطرح لا يمكن حصره في المعرفة العلمية أو المعرفة العامة بالمبادئ الخلقية والقيم الاجتماعية والجمالية المجردة[6] بل ينبغي أن يكون مفهوم الثقافة شاملا لكل ما له علاقة بالإطار العام الذي يتحرك فيه الإنسان الأفرسيوي يختلف في حقائق منظره الإنساني وفي حقائق نموذجية الاجتماعي عن

---

[1] انظر مالك بن نبي من أجل التغيير، موضوع: في البناء الثقافي ص:49 وما بعدها وانظر له تأملات ص:148،149، ومشكلة الثقافة، موضوع: توجيه الأفكار ص: 67-69.

[2] انظر مالك بن نبي ميلاد مجتمع موضوع: دفاع عن شبكة العلاقات الاجتماعية ص:94وما بعدها.

[3] انظر مالك بن نبي وجهة العالم الإسلامي، موضوع: الطرق الجديدة ص: 129وما بعدها.

[4] لنظر مالك بن نبي ميلاد مجتمع ص: 101،100.

[5] انظر مالك بن نبي تأملات موضوع: الثقافة ص:139-152.

[6] انظر مالك بن نبي ميلاد مجتمع ص: 99-101.

الإطار الذي يتحرك فيه الإنسان المتقدم في أوربا أو أمريكا أو اليابان أوالصين[1]، فذلك مما يؤكد أن ليس لمشكلة الإنسان أو التراب أو الوقت في البلدان العربية والإسلامية علاقة بالعلم أو المعرفة بقدر ما لها علاقة بالثقافة كمركب اجتماعي[2].

ولئن كان لكل مشكلة من مشكلات الحضارة الأدبية والمادية صلة بمشكلة الثقافة؛ فإن إمكانية حل هذه المشكلات متوقفة أو مشروطة طبقا لهذه الصلة بإمكانية حل مشكلة الثقافة[3].

ولذلك ففي نظر مالك بن نبي أنه (لكي نرفع الكتلة العربية الآسيوية من مستوى التلفيق والاصطناع السياسي إلى مستوى مفهوم الحضارة، يجب أن نأخذ في اعتبارنا عاملين هما: الرجل والمنظر الذي يشمله "أو" حامل الثقافة وإطاره الذي يحيط به[4]).

بل إنه لكي يكون للبلاد المتخلفة قدرة على تنفيذ خطط مشاريعها التنموية أو قدرة على الإتيان بالحلول المناسبة للمشكلات التي لها صلة بالإنسان أو بالتراب أو بالوقت «يتعين أولا أن تكون البلاد المتخلفة على اقتناع بأن تثقيف الإنسان أكبر أهمية من تثقيف نبات الأرض»[5].

وإذا كان مالك بن نبي قد نبه إلى هذه المشكلة منذ أكثر من خمسين عاما، في كتب عن مشكلة الإنسان الأفرسيوي مع التراب الغني في ظهره وفي باطنه، ومع الوقت–في عدم الوعي بقيمته مع أن كلا منهما يعد بالنسبة لكل المجتمعات مادة أساسية في عملية البناء الحضاري[6]– من خلال ربطه مشكلات الحضارة بمشكلة الثقافة[7]؛ فإن أفكاره لم تجد في العالم الإسلامي من يحولها إلى برامج عمل.

ولذلك فإن هاتين المشكلتين لا تزالان قائمتين في كل الأقطار العربية والإسلامية. بل إن عدم الالتفات إلى ربط مشكلات الحضارة: مشكلة الإنسان والتراب

---

[1] انظر مالك بن نبي: المصدر نفسه، موضوع: مشكلة الرجل الأفرسيوي ص: 70–87.

[2] انظر مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، موضوع: تعايش ثقافي على محور طنجة–جاكرتا ص: 100–104.

[3] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة، موضوع: توجيه الثقافة ص:85–105.

[4] مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية...ص: 125.

[5] مالك بن نبيك القضايا الكبرى ص:89.

[6] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة موضوع: العدة الدائمة ص:67.

[7] هذا الربط يقف عليه القارئ في كل كتب مالك بن نبي بل إن المؤلف أشار إلى ضرورة هذا الربط في أكثر من كتاب أنظر على سبيل المثال : مشكلة الثقافة ص:73، فكرة الأفريقية الآسيوية...ص:135.

والوقت بمشكلة الثقافة، ضاعف من حدة مشكلة تصحر التراب وانخفاض نسبة المياه المتساقطة والمجمعة، خلال النصف الثاني من القرن 20م[1].

فبالنسبة لمشكلة التصحر فإن الجزائر وحدها فقدت في الفترة ما بين1992م وبين2000م ثمانية ملايين هكتار من الأراضي التي كانت صالحة للزراعة والتشجير[2].

وأما بالنسبة لمشكلة المياه المتساقطة والمجمعة فإن كل الأقطار العربية والإسلامية حتى تلك التي توجد فيها أنهار تجري طوال فصول السنة، مهددة كل سنة بفقد نسبة كبيرة من هذه المادة التي هي أصل الحياة، بل إن بعض هذه الأقطار إن لم تهتم بهذه المشكلة ستجد نفسها في المستقبل القريب أو البعيد مضطرة لاستيراد الماء.

وهذا مما يؤكد وجهة نظر مالك بن نبي في أن الحلول المناسبة للمشكلات التي تتصل بعناصر الحضارة: -الإنسان والتراب والوقت- في البلاد الأفرسيوية، لا تتيسر مع التفكير الذي يعتبر على سبيل المثال مشكلة التصحر أو مشكلة انخفاض نسبة المياه أو مشكلة قلة الإنتاج الزراعي أو مشكلة تضييع الوقت أو مشكلة ارتفاع نسبة البطالة، أو كل هذه القضايا المطروحة مشكلة إسكان أو تجهيز أو وسائل، وإنما تتيسر مع التفكير الذي يعتبر هذه المشكلات مشكلة ثقافة[3].

ولذلك فلكي نتمكن من الإتيان بالحلول المناسبة لهذه المشكلة الحضارية أو تلك على الآماد الغربية والمتوسطة والبعيدة ينبغي:

أولا: معالجة مشكلة الثقافة بتحديد مفهومها ومفهوم العلم والتعليم وبالتالي وظيفتها بالنسبة لوظيفة العلم والتعليم[4].

ثانيا: تحديد المبادئ العامة والعناصر والظواهر الطبيعية التي يشملها مفهوم (ثقافة)[5].

---

[1] انظر محمد خاتمي التنمية السياسية، التنمية الاقتصادية والأمن، ترجمة سرمد الطائي دار الفكر سوريا دمشق الطبعة الأولى لعام 2002م ص: 149-154.

[2] انظر صحيفة الخبر الأحد 18ديسمبر السنة 16 العدد4580 ص:6.

[3] انظر على سبيل المثال بين الرشاد والتيه ص: 11-54. المسلم في عالم الاقتصاد ص:59-64. وفكرة الأفريقية الآسيوية...موضوع مبادئ اقتصاد أفرسيوي فعال ص:148-167.ميلاد مجتمع موضوع:طبيعة العلاقات ص:31-36.

[4] انظر شروط النهضة، موضوع: توجيه الثقافة ص:85-93.

[5] انظر مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص:53-67.

ثالثا: صياغة ما يتضمنه مفهوم (ثقافة) من مبادئ وعناصر وظواهر في برنامج تربوي صالح لتثقيف جميع الشرائح التي يتركب منها المجتمع[1].

رابعا: وضع هذا البرنامج موضع التطبيق لتحقيق الثقافة بصورة عملية في حياتنا الخاصة والعامة[2].

وهذه الإجراءات المتعلقة بحل مشكلة الثقافة في البلاد العربية والإسلامية وإن كانت لا تنشئ حلا عاجلا لمشكلات الحضارة في العالم الإسلامي، إلا أنها تستطيع أن تساهم في خلق بيئة ثقافية جديدة.تمكن الإنسان مع مرور الأيام من اكتساب المنطق العملي الذي يجعله يعرف كيف يربط بين العمل أو النشاط وبين الوسائل و المقاصد أو بين الفكرة والعمل أو بين المثل أو القيم أو المبادئ وبين السلوك أو بين المادة والروح أو بين العلم والضمير أو يجعله يعرف كيف يربط بين ما تتطلبه منه الدنيا وبين ما تتطلبه منه الآخرة[3].

ومع الذي أخذ ينتشر في العالم الإسلامي يمكن لهذه الإجراءات العملية أن ترفع من مستوى وعي الإنسان المسلم ومن مستوى إدراكه لهذه الحقيقة المتمثلة في أن« نهضة العالم الإسلامي... ليست في الفصل بين القيم، وان هي في أن يجمع بين العلم والضمير، بين الخلق والفن، بين الطبيعة وما وراء الطبيعة، حتى يتسنى له أن يشيد عالمه طبقا لقانون أسبابه ووسائله وطبقا لمقتضيات غاياته»[4].

بيد أن التحكم في عملية نهضة التغيير الثقافي- الاجتماعي التي بدأت تحدث في البلدان العربية والإسلامية ليس متوقفا على مدى قدرة هذه البلدان على تحديد المحتوى الثقافي الذي ترغب في إعداده وصياغته في برنامج تربوي فحسب، بل هو أيضا متوقف على مدى قدرتها على توجيه هذه العملية طبقا للغايات المطلوب من الفرد والمجتمع المسلم بلوغها[5].

---

[1] انظر مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه ص:33.ميلاد مجتمع ص:100، 101.

[2] انظر مالك بن نبي: المصدر نفسه موضوع الشروط الأولية للتربية الاجتماعية ص:102-115.

[3] انظر مالك بن نبي: تأملات كيف نبني مجتمعا أفضل ص:153-173. وانظر عبد الكريم بكار من أجل انطلاقة حضارية شاملة...موضوع: التخطيط الحضاري.

[4] مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 157.

[5] انظر مالك بن نبي: تأملات ص: 188، 189، وانظر له مشكلة الثقافة ص: 67-69. وجهة العالم الإسلامي ص: 76، 77.

الفرع الأول: تحديد مفهوم الثقافة

إن المتتبع لما كتب مالك بن نبي عن مشكلات الحضارة أو عن القضايا الكبرى في العلم العربي والإسلامي انطلاقا من مؤلفه " الظاهرة القرآنية"، وانتهاء بمحاضرته " دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين" يجده يؤكد على أن تحديد المفاهيم بوجه عام، ومفهوم (ثقافة)و(حضارة) بوجه خاص، أمر ضروري ومهم للعمل من أجل إعادة تجديد النهضة العربية والإسلامية أو من أجل تغيير الإنسان والإطار الذي يحيط به[1].

وعلى الرغم من أن مالك بن نبي يعتبر مسألة تحديد المحتوى الثقافي وصياغته في برنامج تربوي أمرا ضروريا لعملية تجديد النهضة[2] إلا أن ذلك يبقى في نظره دون مستوى المهام الصعبة التي تواجه عملية التجديد ما لم نأخذ بعين الاعتبار مشكلة تحديد مفهوم الثقافة[3]؛ لأن الإتيان بالحلول المناسبة للمشكلات التي تتصل بالإنسان أو التراب أو الوقت تتوقف على تحديد مفهوم(حضارة) ومفهوم(ثقافة)، أو تبقى مرهونة بهذا التحديد.

وذلك؛ لأنه إذا كان قد مر على ميلاد النهضة أو على عهد التنظيم والتركيب والتوجيه في البلاد العربية والإسلامية[4] أقرب من مائة وخمسين سنة ولم تزل هذه البلاد ذات قابلية نفسية وفكرية للتبعية الغربية وللاستعمار الجديد[5]؛ فإن ذلك مما يحتم عليها أن تعيد النظر في عالم أفكارها:تقويما وتنظيما وتوجيها[6] .

بيد أنه لكي يكون لعملية تقويم عالم الأفكار وتنظيمه وتوجيهه معنى وفاعلية في حياة الفرد والمجتمع المسلم العملية؛ ينبغي أن نبدأ من هذا السؤال ما هي الثقافة ؟ وما

---

[1] انظر على سبيل المثال مدخل إلى دراسة الظاهرة القرآنية ص: 53-68. شروط النهضة من التكديس إلى البناء ص: 44-51، توجيه الثقافة ص:85-88. تأملات الديمقراطية في الإسلام ص:63-94.

[2] انظر مشكلة الثقافة ص:64، 65. ميلاد مجتمع ص:101،100.

[3] انظر تأملات ص:188.

[4] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص:85. وانظر له القضايا الكبرى ص:49، 50.

[5] انظر مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه، موضوع: تغيير الإنسان ص:49-54، شروط الإقلاع الاقتصادي ص:169-175.

[6] انظر مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص14، 15 انظر له مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي موضوع الأفكار وديناميكا المجتمع ص:11-118.

هو العلم ؟ وما الفرق بينهما؟ وما هو التثقيف؟ وما هو التعليم؟ وهل مفهوم ثقافة وتثقيف مرادف لمفهوم علم وتعليم ؟وهل كل عالم ومتعلم مثقف؟[1].

لقد طرح مالك بن نبي هذه الأسئلة وغيرها في كتابه مشكلة الثقافة،وبحث لها عن إجابة ولكن ليس على مستوى القواميس أو المعاجم اللغوية والفلسفية القديمة والحديثة وإنما على مستوى واقع حياة الفرد الذي ينتمي إلى المجتمعات النامية والذي ينتمي إلى المجتمعات المتخلفة أو على مستوى واقع المجتمعات التي تنتمي إلى القارة التي تمتلك إرادة وقدرة والمجتمعات التي تنتمي إلى القارة التي لا تمتلك هذه الإرادة وبالتالي هذه القدرة[2]. فتبين له أن ليس مفهوم (ثقافة) مرادفا لمفهوم (علم) وأن ليس بالضرورة أن يكون كل عالم أو متعلم مثقفا؛ لأنه لو كان العلم هو الثقافة والتعليم هو التثقيف، لما كنا نجد اختلافا كبيرا في الموقف من قضية الاعتناء بالوقت أو إتقان العمل أو المحافظة على نظافة المحيط بين متعلمين ينتميان إلى مجتمعين مختلفين في درجة تطورهما أو موقعهما من الحضارة من جهة ولما كنا نجد تماثلا في الموقف من هذه القضايا بين فردين ينتميان إلى مجتمع واحد مع أنهما يختلفان في الوظيفة أو في درجة العلم كحداد أو نجار أو بناء وطبيب أو أستاذ أو محاميين ألمانيين أو يابانيين أو أمريكيين[3]!.

ولو كانت الثقافة هي العلم لما كان هناك أي اختلاف بين موقف المتعلم من البلدان الجنوبية والمتعلم من البلدان الشمالية من قضية الوقت ولما كان هناك تشابه بين موقف الراعي والفلاح والحداد والطبيب الهولندي من قضية التراب[4].

و هو الأمر الذي يحتم إعادة طرح السؤال بصيغة أخرى، هل الثقافة ظاهرة بيئية أو هي ثقافة مدرسية فلم كان الاختلاف في الموقف بين المتعلمين والتشابه بين

---

[1] انظر مالك بن نبي: من أجل التغيير موضوع مشكلة الثقافة ص:51-62.

[2] انظر فكرة الأفريقية الآسيوية... موضوع: مشكلة الرجل الأفرسيوي ص:70-87.نظرات عامة في الثقافة الأفرسيوية ص:134-147.

[3] الموقف من هذه القضايا من حيث الاختلاف والتماثل ضرب له مالك بن نبي أكثر من مثال انظر شروط النهضة ص:100، مشكلة الثقافة ص42، 50، 51، 52، 74 فكرة الأفرسيوية... ص:234-236.

[4] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة، عنصري: التراب والوقت ص:139-148.

ور المتعلمين[1] ؟ وإن كانت ظاهرة بيئية فما هي الثقافة ؟ وما هي عناصرها ؟ و كيف يمكن تصور صياغتها في برنامج تربوي يصلح لتثقيف كل فئات المجتمع؟ وكيف يمكن للمدرسة والبيت والمسجد وسائر مؤسسات المجتمع أن تساهم في تنمية هذه الظاهرة البيئية وبالتالي في تنمية المحصول الاجتماعي المعنوي والمادي[2] ؟؟!.

والأسئلة المطروحة ليست من وحي الخيال بل هي من وحي واقع الإنسان العربي المسلم أو من واقع حياة الإنسان في البلاد العربية والإسلامية يدرك أن الإنسان لا يزال يخلط بين ما تفيده كلمة ثقافة وبين ما تفيده كلمة علم وتعليم.

ولكن الأدهى والأمر في ذلك هو أن هذا الخلط ليس شائعا بين من لم يتعلموا بين أنصاف المتعلمين، بل هو شائع بنسبة كبيرة بين أفراد بعض الفئات المتعلمة.

ولذلك حتى لو نهضت نخبة[3] من المفكين الموسوعيين العلميين الذين يتخذون من الثقافة سلوكا و أسلوبا ومن العلم منهجا لحياتهم وأعدت مشروعا حضاريا:- (حضارة مجموعة من القيم المعنوية والمادية)- يهدف في الأساس إلى تصفية عالم الأفكار من كل الأفكار السلبية الموروثة عن عهود التخلف والمستعارة من الغرب؛ فإنه مع استمرار شيوع الخلط بين المفهومين لن تتمكن البلدان العربية والإسلامية من حل مشكلتها الثقافية، وبالتالي لن تتمكن من تركيب عناصر الحضارة وحل مشكلاتها المعنوية والمادية.

ولما كان مالك بن نبي يهدف من وراء إشارته لمشكلة الثقافة إلى إحداث تفرقة جوهرية بين مفهومي: (ثقافة) و (علم) وإلى إزالة الخلط الشائع بينهما، فإنه لم يكتف

---

[1] انظر مالك بن نبي مشكلة الثقافة ص:73، 74.

[2] انظر مالك بن نبي القضايا الكبرى ص: 74، 75، 77، 79، 80، 81، 82.

[3] هذه النخبة موجودة بالفعل ولكن ليس في العالم العربي و الإسلامي ولكن وجد بعض أفرادها فيه، فإن مقر عملها وفكرة اهتمامها بمشكلة الفكر الإسلامي يوجدان في الولايات المتحدة وفي كندا وانجلترا وفرنسا وغيرها من البلدان المتقدمة، ولذلك سيظل ما تتوصل إليه هذه النخبة من أفكار نظرية وعملية جدا ور ق ما لم يبد العالم الإسلامي استعداده لتحويل أفكار هذه النخبة إلى برامج عمل.

بما ساقه من تعريفات لغوية واصطلاحية[1] لكل من لفظي :ثقافة وعلم، بل إنه دعانا إلى« أن نتصور[معه] من ناحية فردين مختلفين في الوظيفة وفي الظروف الاجتماعية،ولكنهما ينتميان لمجتمع واحد، كطبيب إنجليزي وراع إنجليزي. و من ناحية أخرى نتصور فردين متحدين في العمل والوظيفة ولكنهما ينتميان إلى مجتمعين مختلفين في درجة تطورهما كطبيب صيني وطبيب إنجليزي، فالأولان يتميز سلوكهما إزاء مشكلات الحياة بتماثل معين في الرأي يتجلى فيه ما يسمى(الثقافة) الإنجليزية، بينما يختلف سلوك الآخرين أحيانا اختلافا عجيبا يدل على طابع الثقافة التي تميز كليهما عن صاحبه؛ لأنه يميز المجتمع الذي ينتمي إليه. هذا التماثل في السلوك في الحالة الأولى والاختلاف في السلوك في الثانية هما الملاحظتان المسلم بهما في المشكلة التي أمامنا.وعليه فالتماثل أو الاختلاف في السلوك ناتج عن الثقافة لا عن التعليم»[2].

وهذا المثال التصوري لم يورده مالك بن نبي إلا لكي يجعلنا«ندرك أن السلوك الاجتماعي للفرد خاضع لأشياء أهم من المعرفة، وأوثق صلة بالشخصية منها بجمع المعلومات وهذه هي الثقافة»[3] كما أنه لم يورده إلا لكي يؤكد أن مواقف الأفراد من المشكلات الاجتماعية التي تنصبها الحياة في طريقهم وأن الأسلوب الذي يطرح ويشخص به المجتمع الذي ينتمي إليه هؤلاء الأفراد هذه المشكلة أو تلك، والكيفية التي يرتب بها الفرد أو المجتمع أفكاره ووسائله كل ذلك من حيث فاعليته أو لا فاعليته مرتبط بشيء يسمى الوسط أو المحيط الثقافي السائد في هذا المجتمع[4].

---

[1] فالثقافة بوجه عام هي الحذق والفهم والذكاء كما هي بوجه خاص تنمية بعض الملكات العقلية و البدنية أو هي التربية التي تؤدي إلى اكتساب الإنسان الصفات المشار إليها آنفا، و العلم و إن كان شرطا ضروريا في الوصول إلى ذلك، إلا أنه ليس شرطا كافيا، لأن الملاءمة بين الإنسان و الطبيعة و بينه و بين المجتمع و بينه و بين القيم الروحية و الإنسانية لا يتكفل العلم وحده بإيجادها بل يساهم في إيجادها الدين و الآداب و الفنون... الخ. انظر جميل صليبا: المعجم الفلسفي، المجلد الأول ص: 378، 379. و أما العلم فهو بوجه عام الإدراك مطلقا تصورا كان أو تصديقا، يقينيا كان أو غير يقيني، و قد يطلق على التعقل أو على حصول صورة الشيء في الذهن...و العلم مرادف للمعرفة إلا أنه يتميز عنها، لكونه مجموعة معارف متصفة بالوحدة و التعميم... أو هو الكشف عن العلاقات الضرورية بين ظواهر الأشياء أو إيجاد الصلات الخاصة بالمفاهيم و الأشياء... الخ، انظر جميل صلييباك المعجم الفلسفي، المجلد الثاني ص: 92 و ما بعدها.

[2] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص:73، 74.

[3] مالك بن نبي: المصدر السابق ص:74.

[4] انظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى موضوع مشكلة الثقافة ص: 65-89.

فإن كان الوسط أو المحيط الثقافي الذي يكتنف الأسرة والمدرسة والجامعة والمسجد وغيرها من المؤسسات « ينتج أقوى الروافع وأقوم التوجيهات وأنشط الحركات »[1] تكون مواقف الأفراد من مشكلات الحياة ايجابية كما يكون أسلوب المجتمع من حيث الطرح والتشخيص لهذه المشكلة أو تلك فاعلا، لذلك ينبغي في معالجة مشكلة الثقافة التركيز على الإطار الذي يشمل حياة المجتمع ككل وليس على جزء منه، وذلك لكون البيت أو المدرسة أو المسجد أو كل مكان يساهم بما لديه من وسائل في نشر العلم والمعرفة، يعد جزءا صغيرا من جملة الأجزاء التي يتركب من الإطار العام لحياة المجتمع[2].

فإذا اختزل المجتمع مفهوم (ثقافة) في العلم والمعرفة التي يتلقاها الإنسان عن هذا الجزء الصغير الذي نسميه الأسرة أو المدرسة أو المسجد واقتصر في معالجة مشكلته الثقافية على ما يقدمه هذا الجزء الصغير للفرد من علم ومعرفة، فإنه لن يكون للمحصول الاجتماعي أو لفاعلية السلوك أي معنى في حياته العملية[3].

ولذلك؛ فإن مالك بن نبي وإن كان يعتقد أن المثال التصوري الذي أورده في كتابيه مشكلة الثقافة، وشروط النهضة كاف لتوضيح الاختلاف بين مفهوم(ثقافة) وبين مفهوم (علم) ؛ إلا أنه كان-لكي يؤكد على قضية المحصول الاجتماعي أو الفاعلية الاجتماعية هي قضية ثقافة وليست قضية علم ومعرفة[4] – يرجع كلما اقتضى منه المقام الحديث عن مشكلة الثقافة إلى واقع البلدان العربية والإسلامية ليأخذ منه الأمثلة[5] التي تزيد من توضيح هذا الاختلاف .

ولكن لما كان المقام لا يتسع لسرد كل الأمثلة التي أوردها مالك بن نبي في كتبه للتدليل على أن الثقافة ليست هي العلم أو المعرفة وإنما هي أهم منهما و أشمل لهما[6]،

---

[1] مالك بن نبي: تأملات ص: 38.

[2] انظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى ص: 67-89.

[3] انظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ص: 94-101، 102-115.

[4] انظر مالك بن نبي: تأملات ص: 141-152.

[5] انظر على سبيل المثال: مشكلة الثقافة ص: 52، 53، ميلاد مجتمع ص:94-101، تأملات ص: 168، 169.

[6] انظر مالك بن نبي: من أجل التغيير ص:51-58.

فإننا سنكتفي بذكر واحدة منها استقاها من واقع المجتمع الجزائري أثناء عهد الاحتلال الفرنسي له[1].

فقد لاحظ مالك بن نبي أن موقف النخبة الجزائرية المتعلمة من قضية الأمية والجهل لم يكن هو نفس الموقف الذي اتخذته منها النخبة المثقفة من الجالية اليهودية التي كانت تعيش في الجزائر مع أن الأمكنة التي كانت تتلقى فيها كل منهما، العلم واحدة. كما أن هذه القضية الاجتماعية تعتبر بالنسبة لهما واحدة[2] .

ولكن في الوقت الذي لم يزد فيه المتعلم الجزائري على الخطابة أو كتابة المقالات تلو الأخرى، يشرح فيها مرض الجهل والأمية الخطير من جهة، ويهاجم الاستعمار فيها من جهة أخرى،كان المثقف اليهودي الذي أدرك خطورة القوانين الاستثنائية التي أصدرتها الحكومة الفرنسية عام 1940م على أبناء جاليته في الجزائر، قد اتخذ منها موقفا إيجابيا، حيث أنه لم يخطب ولم يكتب المقالات، وإنما سارع إلى جعل بيته مكانا للتدريس، وخصص أوقات فراغه لتحضير الدروس وإلقائها على التلاميذ أو الطلاب طبقا كمراحل التعليم ولأنواع التخصص، فلما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، ورفع العمل بالقوانين الاستثنائية، لم يكن الغرض من سنها وفرضها على الجالية اليهودية قد تحقق لأن النخبة المثقفة من الجالية التي كانت تعيش في الجزائر عرفت كيف تتحصن ضدها[3].

وهذا يقود إلى القول: إنه لكي نحقق الثقافة التي ترفع من درجة فاعلية الإنسان،

---

[1] انظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى ص:74-77.

[2] انظر تأملات ص:144-146.

[3] انظر مالك بن نبي: آفاق جزائرية ص:93-122.

ومن محصوله الاجتماعي؛ ينبغي ألا ننشغل فحسب ببناء المؤسسات[1] التي تعلم الإنسان القراءة والكتابة والأسماء والمسميات أو تعلمه مختلف العلوم، بل يجب في الوقت ذاته أن نعتني باختيار المضامين ولإعداد المناهج[2].

لأنه مع عدم إنكارها للمدرسة والجامعة والمعهد والمسجد ومركز التكوين من دور في نشر الوعي والمعرفة والعلم، ومن مساهمة في التأثير على تغيير ملامح الحياة؛ إلا أن إمكانية قدرتها على خلق وسط ثقافي ينتج أقوى الدوافع لدى عالم الأشخاص وأقوم التوجيهات له وأنشط الحركات عنده[3]، تبقى متوقفة على نوعية المضامين إلى وسيلة فعالة في إصلاح الإنسان والمجتمع، وإعادة صياغتها صياغة حضارية جديدة، من ناحية أخرى[4].

و من وجهة نظر مالك بن نبي في هذا المجال « أن حاجتنا الأساسية في عالم [الأنفس و العقول] أكثر[مما هي] في عالم الأشياء... حاجتنا الأولى هي الإنسان الجديد... الإنسان المتحضر... الإنسان الذي خرجت منه حضارتنا منذ عهد بعيد.

---

[1] ففي نظر بن نبي (فكرة الإفريقية الآسيوية ص: 80): " أن طريق الحضارة لا يمكن خطه تبعا للصدفة، بإقامة مدرسة هنا، و مصنع هناك، و سد هناك، أو بوضع سلة معدنية في جانب هذا الشارع حيث لا أحد يفكر في إلقاء المهملات التي يريد أن يتخلص منها [فيها]، و عموما حين نريد أن نضع شيئا زائدا في المنظر الإنساني "، و يرى الإمام محمد الغزالي (كفاح دين، دار نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، الطبعة الرابعة ص: 121) أن " إعادة بناء الأمة الإسلامية مرة أخرى بعدما خرّب الاستعمار عامرها و جفّف غامرها أمر يحتاج إلى جهود مضنية. و ليست الإعادة المنشودة شق شوارع تقوم القصور المنيفة على أكنافها، و لا تجميل الشواطئ و الأنهار و البحار و بث الأرائك المريحة حولها، كلاّ... و لا هي نقل المصانع و الآلات و تشغيل ألوف العمال فيها. إن ذلك – و إن مسّت إليه الحاجة – لا يعني بناء أمة تنفع نفسها إذا كان الغزو الأجنبي قد نجح في تخدير أعصابها، و إماتة ضمائرها و استلال اليقين من أفئدتها و الهدف العالي من ضمائرها... ذلك أن الأمم تفتقر قبل كل شيء إلى العقيدة التي توقد نشاطها، و الغاية التي تكدح لبلوغها، و الحداء الذي يهوّن عليها مصاعب الطريق، و العزاء الذي يصبّرها على لأواء الحياة فإذا جفّت هذه المعاني في أمّة لم يُغن عنها شيء ما، و هي ضائرة حتما إلى إدبار!".

[2] انظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ص:102-115.

[3] انظر مالك بن نبي: تأملات ص:38.

[4] انظر مالك بن نبي: من أجل التغيير ص:54، 55، فهو يرى أن «العلم والثقافة ليسا مترادفين [لأن] الثقافة تولد العلم دائما، و العلم لا يولد الثقافة دوما، و لا يمكن استبدال أحد هذين المفهومين بالآخر [و عليه فـ] إن هذا التمييز أساسي: أولا لدى وضع برنامج يهدف على الارتفاع بثقافة بلد ما إلى أعلى مستوى من مستويات الحضارة، و ثانيا في فهم الظواهر الاجتماعية و السياسية ذات الأهمية الأساسية. إن فيتنام لم تستطع أن تجابه الإمبريالية بالعلم الذي لا يزال في مراحله الأولى و إنما بإدراك يجسّده زارع الأرز كما يجسّده صاحب أعلى رتبة أو المفكر الأشدّ اطّلاعا... و الشعب الجزائري لم ينتزع استقلاله بالمعرفة التي تتمتع بها النخبة فيه بل بالإدراك الذي وجد على المستوى الشعبي في وجه الاستعمار... و هكذا هو الأمر، في كل الأوقات الصعبة في التاريخ. الثقافة هي التي تكون طوق النجاة للمجتمع حين يتعرض لخطر الغرق»، من أجل التغيير ص: 54، 55.

وصياغة هذا الجهاز الدقيق الذي يسمى الإنسان، ل تتم بمجرد إضافة معلومات جديدة إلى معلوماته القديمة، لأنه سيبقى... قديما في عاداته الفكرية وفي مواقفه أمام المشكلات الاجتماعية، وفي... لا فاعليته التي نجد»[1] آثارها السلبية في جميع مجالات حياتنا.

وكما أن عملية إعادة صياغة الإنسان لا يمكن أن تتحقق بمجرد إضافة معلومة جديدة إلى معلوماته-الإنسان- القديمة، فكذلك الأمر بالنسبة لعملية إعادة صياغة المجتمع، فإنها لا يمكن أن تتحقق بإضافة أشياء جديدة إلى الأشياء القديمة التي يتكون منها المنظر الإنساني والنموذج الاجتماعي[2]، لأن أي إضافة معنوية أو مادية إلى معلومات عالم الأشخاص أو إلى كمية عالم الأشياء، إن لم تكن مصحوبة بدوافع نفسية وتوجيهات فكرية، ويكون الهدف منها تغيير الإطار الثقافي العام للحياة، فإنها لا يمكن أن تحدث تركيبا لعناصر الثقافة، ناهيك عن أن تستطيع تحقيق الثقافة بصورة عملية في سلوك الأفراد وفي الأسلوب حياة المجتمع[3].

ولهذا ومن أجل أن تؤدي هذه الإضافة أو تلك مفعولها الاجتماعي ودورها في إعادة صياغة الإنسان والمجتمع أو في إعادة صياغة العملية الاجتماعية بوجه عام، ينبغي أن يكون المقصود منها تغيير سائر العوامل المعنوية والمادية التي تتكون منها البيئة الثقافية، وليس عاملا من عواملها أو جزيئة من جزيئاتها[4] .

والمتتبع لما تبثه قنوات الإعلام المرئية في البلدان المتقدمة، يلاحظ أن للإنسان هناك، اهتماما كبيرا بقضاياه الاجتماعية المختلفة.فإذا وجدناه على سبيل المثال يهتم بقضية المشردين أو العاطلين عن العمل أو يهتم بقضية الحريات وما يعززها، وبالحقوق وبما يكفل ضماناتها أو يهتم بقضية البحث العلمي وبما يشجع العاملين في حقوله، أو يهتم بقضايا التراب وبما يمكن من تشجيره وزرعه أو من توضيبه؛ فإن هذا الاهتمام ما كان له أن يسود في تلك البلدان، لو لم يسع الإنسان فيها إلى تحويل قيم

---

[1] تأملات ص:193.

[2] انظر مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه، موضوع تغيير الإنسان ص:49-54.

[3] انظر مالك بن نبي: تأملات، موضوع: كيف نبني مجتمعا أفضل ص:153-173.

[4] انظر مالك بن نبي فكرة الأفريقية الآسيوية ...، موضوع: مشكلة الرجل الأفرسيوي ص:70-87.

الثقافة إلى محيط أو وسط يحكم إطار حياته الأدب والمادي[1] و وهذا يعني أن ضعف الاهتمام الأممي بالوسائل الأولية وبالطاقات العقلية والروحية والعضلية، عند بعض الطبقات المتبوعة وانعدام وجوده لدى أغلب الطبقات التابعة في البلدان العربية والإسلامية، ليس ناتجا بوجه عام عن العلم والتعليم بقدر ما هو ناتج بصفة خاصة عن الثقافة العامة السائدة في البلاد الأفرسيوية.

وذلك؛ لأن مشاريع وبرامج التعليم والتكوين كانت ولا تزال تعد في هذه البلدان على أساس أن الثقافة ظاهرة مدرسية، وليس على أساس أنها ظاهرة بيئية.

ومما يؤكد هذا هو أن الإنسان المسلم ما إن يخرج من البيت أو المسجد أو المدرسة أو من أي مؤسسة تربوية وتعليمية حتى يسلك سلوكا مناقضا للمباديء والقيم والمثل التي كان يستمع إلى محدثيه عنها أو التي كان هو نفسه يتحدث عنها، والعلة في ذلك هي أن الفكرة العامة التي تكونت عند الفرد والمجتمع المسلم عن الثقافة هي أنها نظرية في المعرفة وليست نظرة في السلوك.

ولو كانت مشاريعنا الثقافية وبرامجنا التربوية والتعليمية والتكوينية تعتبر الثقافة «مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه»[2]، لكانت بذلك قد تمكنت خلال النصف الثاني من القرن العشرين من تغيير الفكرة العامة التي رسختها عهود الانحطاط والاستعمار في عقلية الفرد والمجتمع عن الثقافة من كونها نظرية مدرسية إلى كونها نظرية في السلوك أو من أو من إنشاء محيط أو مناخ ثقافي عام يخلق لدى كل فرد من أفراد المجتمع سواء كان متعلما أو غير متعلم اهتماما كبيرا بالبيئة ليس كإطار مادي فحسب بل كإطار حضاري[3].

ولهذا فإن مالك بن نبي كلما تحدث عن أي مشكلة من مشكلات الحضارة بما فيها مشكلة ضعف اهتمام الإنسان المسلم بقضاياه الاجتماعية الجوهرية أو ضعف

---

[1] انظر مالك بن نبي المسلم في عالم الاقتصاد، موضوع حدود التفسير الاقتصادي البحت لتوزيع الإمكانات ص:54-58.
الأسس الحضارية لعالم الاقتصاد ص:59-64.

[2] مالك بن نبي مشكلة الثقافة ص:74.

[3] انظر مالك بن نبي المصدر السابق، موضوع تركيب نفسي للثقافة ص:59-74.

إرادته في معالجتها أو نقص وعيه بما تحت تصرفه من إمكان وطاقات ووسائل إلا واعتبرها مشكلة ثقافة[1].

ولما كانت مشكلة الثقافة تستغرق كافة المشكلات المعنوية والمادية التي لم تتمكن البلدان العربية والإسلامية من الإنقاص منها؛ فإن أي تفكير ينبغي في رأي مالك بن نبي أن يكون في أساسه تفكيرا في مشكلة الثقافة[2].

وبتعبير آخر ما دام « إمكان الحضارة يتحدد... بجغرافية المكان، وبنوع الثقافة [فإنه] لكي نرفع الكتلة العربية الآسيوية من مستوى التلفيق والاصطناع السياسي إلى مستوى مفهوم الحضارة، يجب أن نأخذ في اعتبارنا عاملين هما: الرجل والمنظر الذي يشمله، أي حامل الثقافة وإطاره الذي يحيط به»[3].

ولهذا، ما دامت معالجة مشكلات الحضارة الأساسية: مثل مشكلة الإنسان والتراب والوقت تبدأ في نظر مالك بن نبي[4] من معالجة مشكلة الثقافة، ولكن ليس على أساس أنها مشكلة نقص في المؤسسات أو في العلم والمعرفة أو في المعلومات العصرية، وإنما على أساس أنها مشكلة مناهج وأفكار نوعية[5]؛ فإنه يتعين تحديد مفهوم الثقافة لا على أنها الإلمام بالمعارف والعلوم والمعلومات وإنما على أنها« مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه... [أو] في المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته... [أو] المحيط الذي يعكس حضارة معينة[6]».

ولكن هذا لا يعني أن حل مشكلة الثقافة يتم بمجرد تحديد مفهومها على الصيغة الآنفة الذكر أو على صيغة مغايرة، وإنما يعني أن تحديد مفهومها أمر ضروري ولكنه

---

[1] انظر مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه ص:192.المسلم في عالم الاقتصاد موضوع الأسس الحضارية لعالم الاقتصاد ص:59-64.

[2] انظر مالك بن نبي: فكرة الأفرقية الآسيوية ... ص:135.

[3] انظر مالك بن نبي: المصدر نفسه ص:125.

[4] انظر مشكلة الثقافة ص: 13-16، 133، 134. وانظر له القضايا الكبرى ص:77-83.

[5] انظر مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص:113-118.وانظر له بين الرشاد والتيه موضوع تغيير الإنسان ص:49-54. ومشكلة الثقافة ص:99-100.

[6] مالك بن نبي مشكلة الثقافة ص:74.

في الوقت ذاته غير كاف[1]؛ لأن عملية تحويل ما تتضمنه صيغة هذا المفهوم من مبادئ وعناصر إلى واقع يلمس ويحس في سلوك الأفراد وفي أسلوب حياة المجتمع، تتطلب بالإضافة إلى ذلك وضع برنامج تربوي مناسب مع وضع صيغ بيداغوجية ملائمة لتنظيم تختلف عناصر الثقافة في وحدة متجانسة[2].

وهذه الوحدة، ليس في استطاعة المجتمع أو الأمة قدرة على تنظيم عناصرها، وصياغتها صياغة تجعل منها إطارا يشمل كافة جزيئات البيئة ما لم تتمكن من تنظيم عالم الأشخاص ومن تركيبه في وحدة ثقافية يصبح معها سلوك الأفراد منسجما مع أسلوب حياة المجتمع[3].

وذلك لأن فاعلية الأفكار والأشياء وسائر العناصر والظواهر الطبيعية مرهونة بمدى قدرة المجتمع أو الأمة على تركيب عالم الأشخاص وعلى إنشاء ما يسميه مالك بن نبي ب(العلاقة المتبادلة) بين سلوك الفرد وأسلوب الحياة[4].

والثقافة باعتبارها حقيقة مؤثرة في سلوك الأفراد وفي أسلوب حياة المجتمع وفي التأليف بين الجانبين يمكن التدليل عليها بأكثر من مثال من تاريخ الأمة الإسلامية[5].

ففي بداية نشأة المجتمع الإسلامي كانت العلاقة المتبادلة بين الجانب الاجتماعي سليمة، مما يعني أن الثقافة التي كانت تحكم هذين الجانبين كانت « جد متجانسة، متحدة الطابع عند الخليفة البدوي البسيط، وذلك يتجلى في موقف عمر رضي الله عنه عندما خطب المسلمين غداة توليه الخلافة، فقال قولته المشهورة: "أيها الناس، من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه" وكان الرد على هذه المقولة، ما نطق به أحد أولئك البدو

---

[1] انظر مالك بن نبي ميلاد مجتمع ص:100، 101 وانظر تأملات ص: 147، 148.

[2] انظر مالك بن نبي مشكلة الثقافة، موضوع تراكيب جزئية وتركيب عام. ففي نظره أن ليست مشكلة العالم العربي الإسلامي منحصرة في محاولة فهم الثقافة وإنما أيضا في تحقيقها بصورة عملية ص:61.

[3] انظر مالك بن نبي فكرة الأفريقية الآسيوية... موضوع نظرات عامة في الثقافة الأفرسيوية ص:134-147.

[4] انظر القضايا الكبرى ص:83، 84.

[5] انظر مالك بن نبي تأملات، موضوع الديمقراطية في الإسلام ص:63-94 وانظر علي الوردي مهزلة العقل البشري، مؤسسة انتشارات الشريف الرضي، الطبعة الأولى لعام1997م موضوع الديمقراطية في الإسلام ص:171-197.

البسطاء:"ولو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا" »[1].

كما تتجلى هذه العلاقة التي تدل على احتفاظ هذا الجانب بذاك في موقف آخر، هو موقف أبي بكر رضي الله عنه من مانعي أداء فريضة الزكاة، فعلى الرغم من أن التصديق كان ككل الصحابة رضي الله عنهم، مشغولا بوفاة الرسول –ص– وبما أحدثه هذه الوفاة من فراغ في حياة المسلمين الدينية والدنيوية، إلا أنه كان في الوقت ذاته مشغولا بقضية المرتدين أو بقضية امتناعهم عن أداء فريضة الزكاة[2].

ولئن كان كثير من الصحابة وعلى رأسهم عمر اعتبروا امتناع تلك القبائل عن أداء الزكاة لبيت مال المسلمين إنكارا لركن من أركان الإسلام أو خرقا لقاعدة من قواعده الخمس الأساسي؛ فإن أبا بكر وان اعتبره كذلك إلا أنه رأى فيه بداية حدوث أزمة ثقافية إن لم يتخذ منها موقفا حاسما ويتصدى لمحدثها في الحين، فإنها ستستفحل وتقضي تدريجيا على أسلوب حياة المجتمع، مما جعله يعلن الحرب على القبائل المرتدة[3].

وهذان الموقفان يوضحان معنى العلاقة المتبادلة بين الجانب النفسي الذي يمثله الفرد وبين الجانب الاجتماعي الذي يمثله المجتمع، كما أنهما في الوقت ذاته، يدلان، دلالة قوية على أن الثقافة متى تحققت في صورة تركيب لعالم الأشخاص، أصبحت من ناحية الجسر الذي يصل بين الفرد والمجتمع، وأصبحت من ناحية أخرى المحيط الذي يفرض عللا الأفراد وعلى المجتمع مبادئ إلزام ومبادئ التزام[4].

---

[1] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص: 51 إذ لو لم يكن مضمون الإسلام قد تحول إلى محيط بعد أن تمكن من القلوب ما كان للرجل البدوي أن يجرأ على الرد على الخليفة، و ما كان الخليفة أن يحمد الله على وجود مثل هذا الشخص الجريء في المجتمع الإسلامي. إذ كان كل منهما يعتبر حرية الكلمة حقا مطلقا. و في هذا الصدد يقول خالد محمد خالد: إن "المواطن الكبير يبدأ وجوده من قدرته على التعبير الحر عن نفسه، و ما يعتمل داخل فكره من رأي و قرار دون أن يحس من مجتمعه و لا من دولته أنه بهذا التعبير يشكل عبئا ينبغي أن يدحض، أو خطرا ينبغي أن يقاوم... و حاجة الجماعة إلى حرية الكلمة و سيادة الفكر لا تقل عن حاجة الفرد، بل تزيد، ذلك أن المجتمع هو الوعاء الذي تتشكل داخله و بتأثيره مصائر الناس و الأمة" في البدء كان الكلمة، دار الكتاب العربي –لبنان– بيروت، الطبعة الثانية لعام 1973م صك 62، 63.

[2] انظر مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه ص: 16.

[3] انظر خالد محمد خالد: خلفاء الرسول–ص–، دار الكتاب العربي لبنان بيروت الطبعة الثانية لعام 1984م ص: 93–107.

[4] انظر مالك بن نبي القضايا الكبرى ص: 83، 84. وانظر له مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، موضوع الحضارة والأفكار ص:41–48.

فإذا كان من يمثل السلطة في المجتمع لا يسمح للفرد أو الجماعة بأي نشوز في السلوك كما هو واضح في الموقف الذي وقفه أبو بكر من القبائل المرتدة؛ فإن الفرد أو الجماعة لا يمكنها في ظل سيادة هذا المحيط أن تسمح لمن يمثل السلطة بأي انحراف عن أسلوب حياة المجتمع كما يتبين ذلك من خلال رد البدوي البسيط على مقولة الخليفة عمر[1].

وبناء عليه فإن مشكلة الثقافة والتثقيف التي لا تزال قائمة في سائر البلدان العربية والإسلامية، ينبغي في نظر مالك بن نبي[2] ألا تطرح بهذه الصيغة:كيف تتكون ثقافة معينة؟ أو بهذه الصيغة: ما هو الدور الذي تؤديه ثقافة معينة ؟ بل ينبغي أن تطرح بهذه الصيغة:كيف يتم إعداد ثقافة معينة قادرة على النهوض بالفرد والمجتمع[3] ؟

وذلك؛ لأنه إذا كانت الأمية البطالة ونقص الغذاء و الماء و سوء الانتفاع بما هو متاح و سوئ تسيير المؤسسات و تبذير الأموال و إهدار الوقت و غير ذلك من الحقائق التي تعاني منها بلدان العالم الإسلامي بوجه عام و بلدان العالم العربي بوجه خاص « لا تشكل سوى مظهر من مظاهر مشكلة الإنسان الذي لم يتعلم طريقة استعمال وسائله الأولية:...التراب و الوقت بصورة فعالة أو هو قد نسي ما تعلمه من هذا الاستعمال... فإن الإنقاص من عدم فعالية الفرد، [والذي يعد مساهمة في] الإنقاص من تخلف المجتمع»[4] يحتم على هذه البلدان أن تربط بين مشكلة اللافاعلية والفاعلية وبين مشكلة الثقافة[5]، كما يقتضي منها أن تطرح هذه المشكلة بصيغة إجمالية هي: كيف يتم إعداد ثقافة معينة متلائمة مع السلوك الفعال[6] ؟.

وهذا لأن تغيير معادلة الفرد الاجتماعية مما هي عليه من لا فاعلية في هذا الميدان أو ذاك إلى ما يجب أن تكون عليه من فاعلية لا يمكن تحقيقها إلا مع وضع مشروع ثقافي ينبغي أن يعتبر هذه المعادلة قيمة ثقافية مجسدة على مستوى الفرد

---

[1] انظر مالك بن نبي آفاق جزائرية ص:131-137.

[2] انظر مالك بن نبي مشكلة الثقافة ص:36-57.

[3] انظر مالك بن نبي القضايا الكبرى ص:69-72.

[4] مالك بن نبي المصدر نفسه ص: 70، 71.

[5] انظر مالك بن نبي: تأملات، موضوعا: الفعالية ص: 125-138. الثقافة ص:139-152.

[6] انظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى ص:79.

والمجتمع[1]، كما ينبغي أن يعتبر في نفس الوقت جميع المؤسسات والبرامج والمناهج والوسائل المعتمدة مصادر ساهمت في تكوين هذه المعادلة[2]، إذ بهذين الاعتبارين اللذين يجعلان من الثقافة ظاهرة بيئية، يستطيع المشروع الثقافي تغيير معادلة الفرد الاجتماعية من خلال تغييره للوسط الذي تشكلت فيه كل جزيئة من جزيئاتها[3].

وهو الأمر الذي دفع مالك بن نبي إلى إثارة مشكلة الثقافة وإلى الربط بينهما وبين جميع مظاهر التخلف المتفشية في البلاد الأفرسيوية[4] و إلى اقتراح طرحها بالصيغة التي أشرنا إليها سابقا، لأن « هذه المشكلة لا تواجهنا البتة في دائرة المجردات أي في: المسرح، أو السينما، أو مكتب عمل أحد الروائيين، أو في أسلوب إحدى الرقصات الفلكلورية، ولكنها تطرح أمامنا في العالم العيني الملموس لعملنا اليومي، في إحدى حظائر البناء أو في حقل نقوم بزراعته أو في المدرسة حيث نرسل بأطفالنا لتلقي المعرفة و في الطرقات التي نهبر بها و القاطرات التي ننتقل بواسكتها و... في كل مكان يوجد فيه شكل من أشكال حياتنا و نشاطاتنا اليدوية أو الذهنية...

و بكلمة واحدة فإن [مشكلة الثقافة] لا تقتصر على نطاق معين فحسب و لكن [ها] تتعلق بالإطار الاجتماعي كله حيث تدور حياتنا و تتساوق نشاطاتنا و تتشكل المشكلات العديدة التي تستحوذ على أفكارنا تحت اسم [التخلف] »[5].

و لما كانت مشكلة الثقافة على هذا الطرح ذات علاقة وثيقة بكل ما يُعدّ إطارا اجتماعيا؛ فإن عملية تغيير معادلة الفرد و المجتمع تغييرا يرفع من فاعلية كافة الطاقات الاجتماعية أو من حركات الأيدي و من نبضات القلوب و من مواهب العقول و من كثافة تكتلها و انسجامها و من الوعي بوجهتها و بقيمة وسائلها الأولية: التراب و الوقت و بما هو تحت تصرفها لاستغلاله و استثماره في العملية الاجتماعية و في

---

[1] انظر مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية... ص:135.

[2] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، موضوع حركة الإصلاح ص:41-56 والحركة الحديثة ص:57-66.

[3] انظر مالك بن نبي: تأملات، موضوع قيم إنسانية وقيم اقتصادية ص:49-62، خواطر عن نهضتنا العربية ص:175 وما بعدها. وانظر له المسام في الاقتصاد موضوع: المعادلة البيولوجية والمعادلة الاجتماعية للفرد في التجارب الحديثة ص:90-96.

[4] انظر مالك بن نبي فكرة الأفريقية الآسيوية، موضوع نظرات في الثقافة الأفرسيوية صك 134-147.

[5] مالك بن نبي: القضايا الكبرى ص: 68.

تحرر الفرد و المجتمع المسلم من جميع أشكال التبعية، كل ذلك يبقى في نظر مالك بن نبي متوقفا على مواجهة مشكلة الثقافة في أصولها.
و كما أن هذه المواجهة تقتضي تحديد مفهوم (ثقافة) فإنها أيضا تقتضي تحقيق محتوى هذا المفهوم بصورة عملية في واقع الحياة، و هو ما سنتحدث عنه في الفرع المقبل.

الفرع الثاني: كيف نحقق الثقافة بصورة عملية ؟

ربما يكون قد اتضح مما ورد في الفرع الأول أن مشكلة العالم العربي و الإسلامي الثقافية ليست في نظر مالك بن نبي منحصرة في تحديد مفهوم الثقافة فحسب، بل هي أيضا بالنسبة له تكمن في تحديد الكيفية التي تمكنه من تحقيقها بصورة عملية في حياته الأدبية و المادية و لذلك فلكي نتمكن من الإجابة على السؤال المطروح، ينبغي ألا نكتفي بتعريف الثقافة أو بتحديد مفهومها و حصر العناصر المندرجة تحته؛ لأنه مع إدراكنا لأهمية التعريف و تحديد المفهوم و حصر المبادئ و العناصر و الظواهر الطبيعية ذات العلاقة بمشكلة الثقافة في موضوع كهذا؛ فإن كل هذا « لا يعطي أي فكرة عن تطبيقها»[1] هذا من جهة.
و من جهة أخرى فإن الغرض من إثارة مشكلة الثقافة في موضوع بحثنا ليس هو التنبيه إلى أهمية الأفكار فحسب – و إن كان ذلك يعد أمرا ضروريا للإنسان في عالمنا العربي و الإسلامي، إذ يبدو أنه لم يدرك بعد لا أهمية الأفكار بالنسبة لحياته الداخلية

[1] مالك بن نبي: تأملات ص: 147.

و لعلاقاته الخارجية و لا خطورتها على ضرورات الداخل و الخارج[1] – و إنما هو أيضا التنبيه إلى أن « الثقافة لا تضم في مفهومها الأفكار فحسب، و إنما تضم أشياء أعم من ذلك كثيرا، تخص ... أسلوب الحياة في مجتمع معين من ناحية، كما تخص السلوك الاجتماعي الذي يطبع تصرفات الفرد في ذلك المجتمع من ناحية أخرى"[2].

و لهذا فإن الهدف الجوهري من كلا التنبيهين المتعلقين بإثارة مشكلة الثقافة في هذا الفرع، هو كيف تصبح عناصر الثقافة الأساسية –الأخلاق، الجمال، المنطق العملي، الفن التطبيقي– بالإضافة إلى ما يقدمه عالم العناصر و الظواهر الطبيعية كالألوان و الأصوات و الروائح و الحركات و الأضواء و الظلال كلا مركبا حقيقة مؤثرة تأثيرا إيجابيا في الثالوث الاجتماعي: عالم الأشخاص و عالم الأفكار و عالم الأشياء[3].

أو بالأحرى كيف نصوغ المبادئ و العناصر الثقافية في برنامج تربوي يصلح لأن يكون« وسيلة فعالة لتغيير الإنسان و تعليمه كيف يعيش مع أقرانه، و كيف يكون معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ»[4]. و هذا يتطلب

---

[1] انظر مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص: 13–16 و انظر له: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة موضوع: تركيب آخر لمرآة الكف ص: 61–93، حياة الأفكار و قيمتها الرياضية ص: 117–124. و انظر له فكرة كمنويلث إسلامي ص: 54–58. و قد ورد في كتابه "مشكلة الثقافة" فيما يتعلق بهذه القضية « أن أهمية الأفكار في حياة مجتمع معين تتجلى في صورتين: فهي إما أن تؤثر بوصفها عوامل نهوض بالحياة الاجتماعية، و إما أن تؤثر على عكس ذلك بوصفها عوامل ممرضة، تجعل النمو الاجتماعي صعبا أو مستحيلا. و هنالك فضلا عن ذلك جانب آخر لأهمية الأفكار في العالم الحديث ... هو أنه قد أعلى من الفكرة باعتبارها قيمة قومية و دولية، هذا التطور لم تشعر به كثيرا البلدان المتخلفة؛ لأن عقدة تخلفها ذاتها قد نصبت في طريقها ضربا من الغرام السقيم بمقاييس القوة، أي بالمقاييس القائمة على (الأشياء)، فالرجل الذي يعيش في بلد متخلف يلاحظ دون ريب تخلفه بالنسبة للرجل الذي يعيش في بلد متقدم، و هو يلاحظ شيئا فشيئا أن الذي يفصل ما بين الشعوب ليس هو المسافات الجغرافية و إنما هي مسافات ذات طبيعة أخرى. و المسلم بسبب عقدة تخلفه يرد هذه المسافة إلى نطاق (الأشياء)، أو هو بتعبير آخر يرى أن تخلفه متمثل في نقص ما لديه من مدافع و طائرات و مصارف، و بذلك يفقد مركب النقص لديه فعاليته الاجتماعية، إذ ينتهي من الوجهة الاجتماعية إلى ... (التكديس)، فلكي يصبح مركب النقص لديه فعالا مؤثرا ينبغي أن يرد المسلم تخلفه إلى مستوى الأفكار لا إلى مستوى (الأشياء)، فإن تطور العالم الجديد يتركز اعتماده على المقاييس الفكرية". كما يرى عبد الكريم بكار–من أجل انطلاقة حضارية شاملة ص: 63–: "إن علينا أن نصر على النجاح في عالم الأفكار؛ لأن كل كا نملكه من ثروات و أموال و أسلحة ... سوف يكون محدود الفائدة إذا نحن لم نربح معركة الأفكار، و إذا لم نستطع أن نقدم الأفكار التي تصلح شأننا الحضاري".

[2] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص: 13.

[3] انظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ص: 99، 100، 101.

[4] مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 100.

في نظر مالك بن نبي من نخبة المجتمع الإسلامي أولا و من بقية أفراده بذل أقصى جهد في ميدان التربية بوجه خاص و في ميدان التعليم بوجه عام لفهم أصولهما الإسلامية و للإحاطة بفنيات كيفية تطبيقها، و ذلك بغية تجاوز عقبة العيوب الثقافية التي تكدست من جراء تعاقب عهود التفسخ الحضاري و التحلل الاجتماعي[1].

تلك العيوب التي قلصت مفهوم الثقافة في عالمنا الإسلامي و جعلته لا يتجاوز نظريا و تطبيقيا، التفكير في كيف « يعلم الناس أن يقولوا أو يكتبوا أشياء جميلة ...»[2] ، و التي صار مع تفشيها في بلداننا العربية و الإسلامية مفهوم « التربية مجموعة من القواعد و المفاهيم النظرية التي لا سلطان لها على الواقع، [أو] على عالم الأشخاص، و عالم الأفكار، و عالم الأشياء »[3].

و لئن كان نضج الفرد و المجتمع يتوقف على مضمون التربية و التعليم و هو المضمون الذي يندرج في مفهوم الثقافة، فإن فاعليته تتطلب في نظر مالك بن نبي أمرين ينبغي القيام بهما:

- الأمر الأول « يجب... تصفية عاداتنا و تقاليدنا و إطارنا الخلقي و الاجتماعي، مما فيه من عوامل قتالة و رمم لا فائدة منها، حتى يصفو الجد للعوامل الحية و الداعية إلى الحياة »[4].

- و أما الأمر الثاني، فإنه يتعين تنظيم مبادئ و عناصر الثقافة في وحدة متجانسة[5].

و دون القيام بهذين الأمرين، لن تستطيع التربية و التعليم المساهمة في تحقيق مبادئ و عناصر الثقافة بمفهومها العملي[6] الذي « يخلع على (التربية الاجتماعية) المضمون الضروري، الذي يتيح لها الاضطلاع بوظيفتها المغيّرة »[7] لما بنفس الإنسان

---

[1] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 50-56.

[2] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ص: 99.

[3] المصدر نفسه ص: 99.

[4] شروط النهضة ص: 86.

[5] انظر له مشكلة الثقافة ص: 62.

[6] ففي نظر مالك بن نبي أن " لا سبيل لعودة الثقافة إلى وظيفتها الحضارية إلا بعد تنظيف الموضوع من الحشو أو الانحراف، الذي أحدثه فيه عدم فهمنا لمفهوم (ثقافة) " شروط النهضة ص: 90.

[7] مالك بن نبي: 100.

من ضعف و وهن و تهاون و إهمال و المصلحة لما في ميادين الحياة الاجتماعية في عالمنا الإسلامي من سلبيات[1].

هذا بالإضافة إلى ما تتطلبه عملية تنظيم مبادئ و عناصر الثقافة و تحقيقها في الحياة العملية من إجراءات، منها أنه « ينبغي لكي تنظم العناصر الثقافية في وحدة عضوية أن نضع خطة تربوية صالحة لتحقيق هذه الوحدة. و بذلك نكون قد تصورنا منهج تحقيق مشروعنا بصورة فنية »[2]. و منها أنه يجب توظيف كل الوسائل المتاحة لربط الفرد و المجتمع بالمبادئ و العناصر الثقافية؛ لأن القيمة الثقافية للفكرة أو الشيء أو المبادئ و العناصر و الظواهر الطبيعية لا تتحقق بمدى قدرة واضعي الخطة على عقد الصلة بينها و بين الفرد[3].

و لكي تنعقد الصلة بين الفرد و بين المبادئ و العناصر و الظواهر الطبيعية التي يتركب منها مفهوم (ثقافة) ينبغي على من يتصدى في العالم الإسلامي لمعالجة مشكلة تحقيق ثقافة النهضة الحضارية أن يدرج في الخطة التربوية كل ما من شأنه أن يبث في نفسية الفرد و في روح المجتمع الاهتمام الأسمى بكل ما ينضوي تحت مفهوم (ثقافة)[4].

و ذلك لأن « القيمة الثقافية لهذه العوامل المختلفة تخضع دائما لصلتنا الشخصية بها، فتفاحة "نيوتن" لم تتحول اعتباطا إلى نظرية في الجاذبية الأرضية، و نافورات الماء في قصر الإست لم تكن لتلهم "ليتز" أروع و أجمل مقطوعاته الموسيقية لو لم تكن له بهذه العناصر صلة شخصية استثنائية »[5]. فالاهتمام الأسمى بكل ما يحيط بالشخص هو الذي يعقد و يوثق الصلة بينه و بين عالم الأشخاص و الأفكار و الأشياء و « بدونه يتجمد (عالم الأفكار) و (عالم الأشياء) حتى كأنه قطع من الآثار في متحف، فيفقد كل فاعلية اجتماعية حقة»[6].

---

[1] انظر عبد الكريم بكار: من أجل انطلاقة حضارية شاملة... ص: 23-25، 61-78.

[2] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص: 62.

[3] انظر مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 62.

[4] انظر عبد الكريم بكار: من أجل انطلاقة حضارية شاملة ص: 115-120 و انظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى ص: 65-89.

[5] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص: 62.

[6] مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 48.

و لو لم يفقد إنسان ما بعد الموحدين الاهتمام الأسمى بكل ما كان يحيط به لما تجمد عالم الأفكار الذي تركته أجيال الشهود الحضاري، و لما تحجرت أجنحته المعنوية و المادية[1].

و لذلك فإن إعادة بث الاهتمام الأسمى في نفسية الفرد و في روح المجتمع تعتبر شرطا أساسيا لتحقيق عملية التثقيف، يجدر بواضعي مشروع ثقافي عدم إغفاله.

و لئن كانت عملية إعادة بث الاهتمام الأسمى في نفسية الفرد و في روح المجتمع بالمبادئ و العناصر الثقافية عامة و بعنصري الحضارة: التراب و الوقت خاصة تعد من الشروط الأساسية التي ينبغي أخذها بعين الاعتبار في المشروع الثقافي؛ فإن عملية إعادة توثيق الصلة و إحكام الربط بين سائر الأجزاء التي يتكون منها عالم الأشخاص تعد هي الأخرى شرطا جوهريا لإقامة بناء حضارة إسلامية[2]؛ لأن « عالم الأشخاص لا يمكن أن يكون ذا نشاط اجتماعي فعّال إلا إذا نظم و تحول إلى (تركيب) »[3]. و تنظيم عالم الأشخاص و تركيب أجزائه تركيبا معنويا و ماديا لا يمكن أن يتم بمعزل عن « الأخلاق أو الفلسفة الأخلاقية »[4] فهي في مشروع مالك بن نبي الثقافي « أولى المقومات في الخطة التربوية لأية ثقافة »[5] بل إن عملية تحقيق ثقافة البناء الحضاري لا يمكن أن تنطلق و تخرج من حيز القوة إلى حيز الوجود ما لم تكن الأخلاق الإسلامية هي الدافع أو الحافز إليها و الموجه لعمل الأفراد و المؤسسات في مجتمعاتنا الإسلامية[6].

و لما كانت الأخلاق عند مالك بن نبي هي أولى المقومات في الخطة التربوية بوجه خاص و في المشروع الثقافي بوجه عام؛ فإنه لا مجال لأن نتصور أن عملية بث الاهتمام بالعالم المحيط بالإنسان كافية وحدها لتحقيق الثقافة القادرة على النهوض بالفرد

---

[1] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة، العنصر الثاني : التراب ص: 139 و ما بعدها، العنصر الثالث: الوقت ص: 145 و ما بعدها.

[2] انظر مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص: 62، 63. و انظر له القضايا الكبرى موضوع: مشكلة المفهومية ص: 91-139.

[3] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص: 64.

[4] مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 63.

[5] المصدر نفسه ص: 63.

[6] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 55، 56.

و المجتمع نهضة قوية شاملة[1]، بل يتعين، كي تؤدي العلاقة العضوية التي تنشئها عملية بث الاهتمام بين الإنسان و بين الأفكار و الأشياء المختلفة، مفعولها الاجتماعية، على من ينتدب لوضع مشروع ثقافي في البلدان العربية و الإسلامية ألا يغفل عنصر الأخلاق[2]. لأن وظيفتها ليست مقصورة على إنشاء الصلات و توثيقها بين الأفراد و الجماعات و المجتمع بل إن وظيفتها تتعدى ذلك إلى تقديم المسوغات و المبررات التي تدفع الإنسان إلى الإقبال على الأفكار و الأشياء و إلى استخدام هذه أو تلك استخداما فعالا، كما انها تدفعه إلى الانخراط في العمل المشترك بقوة أو توتر خلاق[3].

و مع أن مالك بن نبي يرى أنه « لكي نستحدث تركيب العناصر الثقافية ينبغي... أن توثق الصلة الضرورية بين الفرد و بين »[4] ما يتضمنه مفهوم (ثقافة) إلا أنه أكد في جل كتبه على أن الفاعلية الاجتماعية لهذا التركيب تبقى مرهونة ابتداء بمدى قدرة المشروع على تحقيق هذا التركيب في عالم الأشخاص[5]؛ لأنه إذا كان الهدف الأساسي من تحقيق الثقافة هو « خلق جو اجتماعي تنمو و تتحرك فيه كل الطاقات الاجتماعية في عمل مشترك »[7] في سائر الأقطار العربية و الإسلامية؛ فإن المشروع الثقافي لا يستطيع بلوغ هذا الهدف إن لم يعضده العامل الأخلاقي.

و عليه فلكي يؤدي التركيب العام لعناصر الثقافة ضمن الخطة العامة للمشروع النهضوي، وظيفته الاجتماعية بفاعلية قوية، كما يؤدي الدم أثناء دورته الكاملة في جسم حي وظيفته الحيوية؛ ينبغي أن تكون القيم الأخلاقية المدرجة في الخطة التربوية مستوحاة

---

[1] انظر عبد الكريم بكار: من أجل انطلاقة حضارية شاملة... ص: 149-168 و انظر له: مدخل إلى التنمية المتكاملة رؤية إسلامية، دار القلم -دمشق- الطبعة الأولى لعام 1999م ص: 22-30، 52-60، 157-162.

[2] انظر مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص: 65 فـ « الأخلاق هي التركيب التربوي لكل هذه العناصر » و انظر محمد سعيد رمضان البوطي: باطن الإثم الخطر الأكبر في حياة المسلمين، دار البعث -الجزائر- قسنطينة طبعة 1987م ص: 69 و ما بعدها.

[3] انظر مالك بن نبي: فكرة الإفريقية الآسيوية ... موضوع: نظرات في الثقافة الأفروسيوية ص: 134 و ما بعدها و انظر له: بين الرشاد و التيه موضوع: الأخلاق و الثورة ص: 20 و ما بعدها.

[4] مشكلة الثقافة ص: 62.

[5] انظر المصدر نفسه ص: 63 و انظر ميلاد مجتمع، موضوع: طبيعة العلاقات ص: 31 و ما بعدها.

[7] مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد ص: 82.

من المبادئ الأخلاقية العامة للفكرة الإسلامية[1]؛ إذ بقدر ما تكون القيم الأخلاقية المدرجة في الخطة التربوية نابعة من الفكرة الإسلامية بقدر ما تكون أكثر تأثيرا على وجدان الإنسان المسلم و بالتالي على التأليف بينه و بين الجماعات التي يتركب منها عالم الأشخاص و أقوى عامل للدفع به للقيام بالواجب الذي يعود به إلى الحضارة و أنجع مسوغ له للانخراط في العمل المشترك و أكبر طاقة له للقدرة على بذل الجهد المطلوب منه في أي عمل أو لاقتحام عقبات البناء الحضاري و مواجهة صعوباته المعنوية و المادية و مغالبتها[2].

و ذلك لأن الإنسان المسلم لم يكن منذ فجر الحضارة الإسلامية، خاصة في منعطفات التاريخ، أسرع استجابة و أكثر تأثرا و أطوع انقيادا إلا لأحكام الترغيب و الترهيب المستمدين من الفكرة الإسلامية: كتابا و سنة[3].

و لما كانت أحكام هذين المصدرين: العقدية و الخلقية بوجه خاص و الشرعية بوجه عام، قد أثبتت صلاحيتها في هذه المنعطفات، ليس فحسب في دفع الفرد و الجماعة إلى الحركة و النشاط بعد إخضاع غرائزهما الحيوية و إشراطها و تنظيمها في علاقة وظيفية طبقا لما تمليه على كل منهما مقتضيات هذه الأحكام أو تلك[4] و بعد التأليف بين قلوب الأفراد و الجماعات؛ و في البرهان العملي المتمثل في مزج العناصر الثلاثة: –

---

[1] انظر عبد الكريم بكار: مدخل إلى التنمية المتكاملة رؤية إسلامية، موضوع: تنمية المعرفة ضرورة حيوية ص: 115-122.

[2] إن الإرادة الحضارية التي خلقتها الفكرة الإسلامية في الإنسان العربي البدوي هي التي جعلته لا يزهد في قيمة ما كان تحت تصرفه كي يستخدمه في انتظار اكتمال إمكانه الحضاري. انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد ص: 59-64. و انظر له تأملات ص: 33 و ما بعدها و شروط النهضة ص: 68 و ما بعدها.

[3] انظر مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، موضوع: القيمة الاجتماعية لأفكار القرآن، ص: 197 و ما بعدها، إذ يرى؛ من خلال مقارنة أجراها بين التشريع الإسلامي المتدرج في معالجة مشكلة الخمر، و بين التشريع الأمريكي المتدرج لمعالجة نفس المشكلة؛ أنه "في ضوء القرآن يبدو الدين ظاهرة كونية تحكم أفكار الإنسان و حضارته، كما تحكم الجاذبية المادة و تتحكم في تطورها. و الدين على هذا يبدو و كأنه مطبوع في النظام الكوني، قانونا خاصا بالفكر الذي يطوف في مدارات مختلفة، من الإسلام الموحد إلى أحط الوثنيات البدائية، حول مركز واحد، يخطف سناه الأبصار، و هو حافل بالأسرار ... إلى الأبد". و انظر علي عزت بيجوفيتش: مقدمة الكتاب (الإعلام الإسلامي) ص: 45 و ما بعدها. يقول: "...أثبت التاريخ حقيقة واحدة لا لبس فيها: أن الإسلام هو الفكرة الوحيدة القادرة على إطلاق خيال الشعوب الإسلامية ... الفكرة الوحيدة التي تستطيع أن تقطر في عقول المسلمين و وجدانهم كل ما يحفزهم على التنظيم و كل ما يفجر فيهم الطاقة و الإلهام ...".

[4] انظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، موضوع: الشروط الأولية للتربية الاجتماعية ص: 102 و ما بعدها و انظر مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام ص: 432.

الإنسان و التراب و الوقت – التي يتركب منها أي منتوج من منتوجات الحضارة[1]. فلما كان ذلك قد حدث، كما أخبر به القرآن[2]؛ فإنه لا مناص كي يحقق العالم العربي و الإسلامي ثقافة نهضة شاملة، من العودة إلى أصول التربية الإسلامية ليجعل منها منطلقه الأساسي.

و ذلك لأمر في غاية الأهمية –أصبح في الظروف الراهنة يدخل في حساب كثير[3] ممن لهم اهتمام بأصول تثقيف العالم الإسلامي– هو « أن حماسة المسلم في التعامل مع كل ألوان البناء الحضاري ستظل مرتهنة بشيء واحد، هو صلته بالله –جلّ و علا– فإذا فترت تلك الصلة، و ضعف الإحساس بعالم الآخرة؛ فإن الوعي المسلم يصاب بالارتباك، و يحصل آنذاك أحد أمرين: إما التكاسل و الترهل في التعامل مع الطبيعة و الاكتفاء بما يبقي على الأود، و البقاء المجرد، و إما أن ينتج، و ينشط كما يفعل غير المسلم، لكن إنتاجه و نشاطه لا يكتسب التناسق و التناغم و المشروعية التي نحسها في أنشطة المسلم الملتزم. و هذا كله يعني أن البداية الصحيحة لكل نهضة حضارية إسلامية، هي الرقي بدرجة التزامه و شفافيته »[4].

و تجديد صلة المسلم بخالقه و الارتقاء بالعلاقات الروحية التي توثق هذه الصلة و تقويها تعتبران في مفهوم مالك بن نبي للتربية الاجتماعية[5] مسألتان من المسائل الجوهرية التي ينبغي التركيز عليها في عملية إعادة تثقيف الإنسان المسلم طبقا لما تتضمنه الفكرة الإسلامية من مبادئ و قيم و تعاليم خلقية لأن أي محاولة تهدف إلى تركيب عناصر الثقافة تمهيدا لتركيب عناصر الحضارة إن لم تعرف كيف تجدد هذه الصلة و ترتقي بالعلاقات الروحية التي تقويها أو على الأقل إن لم توليها قدرا كبيرا من الاهتمام؛ فإنها ستؤول إلى الفشل[6].

---

[1] كل ما توصل إليه الإنسان المسلم من أفكار و أشياء يعد برهانا عمليا؛ لأنه نتيجة تركيب لعناصر الحضارة.

[2] أخبر القرآن أن هذا التركيب يحدث أولا في عالم الأشخاص، انظر المصحف الشريف سورة الأنفال الآية رقم: 62، 63.

[3] من هؤلاء عمرو خالد و طارق السويدان.

[4] عبد الكريم بكار: مدخل إلى التنمية المتكاملة: رؤية إسلامية ص: 54.

[5] انظر له: وجهة العالم الإسلامي، موضوع: حركة الإصلاح ص: 41–56. شروط النهضة، موضوع: إمكانية تطبيق المبدأ القرآني الآن ص: 65،66. فكرة كمنويلث إسلامي، موضوع: وظيفة كمنويلث إسلامي ص: 65–75.

[6] انظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، موضوع: الشروط الأولية للتربية الاجتماعية ص: 102–115.

و لقد تحدث مالك بن نبي كثيرا عن ضرورة تجديد الصلة بالله، و عن ضرورات معرفة فنيات كيفية تجديدها[1]، فهي في مشروعه الحضاري من أهم القضايا التي يتعين الالتفات إليها عندما نشرع في معالجة مشكلة تحقيق ثقافة نهضة إسلامية شاملة أو عندما نشرع في معالجة مشكلة تثقيف العالم الإسلامي تثقيفا يجمع بين أصالة الفكرة الإسلامية و بين فاعليتها[2]، منبها إلى ضرورة أخرى هي أنه لكي تستعيد الفكرة الإسلامية فاعليتها الاجتماعية و دورها الإيجابي في الحياة، ينبغي أن يكون الهدف من هذه المعالجة هو التخلص من العوامل الفكرية و النفسية التي ساعدت و تساعد على استمرار نمو روح التكديس المعنوي و المادي في عالمنا الإسلامي، إذ ليس المطلوب لكي نغير الإنسان المسلم و نغير محيطه الثقافي الاجتماعي أن نكتفي بالحديث عن فضائل الإسلام و عن صلاحيته للتطبيق[3]، بل المطلوب هو أن نفكر و نعمل في آن واحد على تحويل أحاديثنا العرفية و الرسمية عنه إلى خطط مشاريع أو برامج عمل و إلى دوافع نفسية و توجيهات فكرية معينة من أجل ترجمة مبادئه و قيمه و تعاليمه إلى وقائع و أحداث اجتماعية كما ترجمها المسلم الذي تربى في مدرسة محمد –صلى الله عليه و سلم– و في مدرسة خلفائه الراشدين[4].

فليست مشكلة الإنسان المسلم في الظروف الراهنة في نقص المعرفة المتعلقة بالعقيدة الإسلامية أو في نقص التدين بها، فهو إن لم يكن يعرف عنها الكثير يعرف عنها القليل، و هو إن لم يكن في ورعه و تقواه أبا حامد الغزالي أو أبا القاسم الجنيد، فهو في كل الأحوال إنسان متدين[5]، و إنما مشكلته الجوهرية هي أنه « لا يعرف البتة كيف يستعمل عقيدته [الإسلامية] باعتبارها أداة اجتماعية »[6].

---

[1] انظر على سبيل المثال: فكرة الإفريقية الآسيوية ... موضوع: العالم الإسلامي و فكرة الأفروسيوية ص: 219–248. و ميلاد مجتمع، الموضوعات التالية: أصل العلاقات الاجتماعية، طبيعة العلاقات، الثروة الاجتماعية ص: 28–41.

[2] انظر مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، موضوع: أصالة الأفكار و فعاليتها ص: 102–110.

[3] انظر مالك بن نبي: فكرة الإفريقية الآسيوية...، موضوع: العالم الإسلامي و فكرة الأفرسيوية ص: 219–248.

[4] انظر زكي نجيب محمود: هذا العصر و ثقافته، دار الشروق –مصر– الطبعة الأولى لعام 1980م، موضوع: طريقنا إلى إحياء الدين ص: 239–242.

[5] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 48.

[6] مالك بن نبي: فكرة كمنويلث إسلامي ص: 71.

و لذلك فإن التفكير في كيف يتعلم الإنسان المسلم؟ و ماذا يتعلم؟ و بأي أسلوب يتعلم فنيات استخدام عقيدته و ترابع و وقته و سائر ما يقع تحت تصرفه؟ يعتبر تغييرا جذريا للعوامل النفسية و الفكرية التي تحول بينه و بين الشروع في الحركة نحو الأهداف التي لم يعرف من قبل كيف يصل إليها.

الفصل الثالث: التوجيه الحضاري للإنسان: المعنوي و المادي

تنبع أهمية فكرة التوجيه الحضاري للإنسان في هذا البحث، من كونها أهم منطلق في الإصلاح و التغيير[1].

فعلى مستوى الفرد تنبع أهميتها[2] من كون التوجيه بمفهومه المعنوي و المادي هو الذي يمكن الإنسان من:

1- فهمه لنفسه عن طريق إدراكه لقدراته و مهاراته أو استعداداته و ميوله، و فهم المشاكل التي تواجهه.

2- فهمه لبيئته المادية و الاجتماعية و ما تشتمل عليه كل منهما من أسباب التقدم و عوامل الانحطاط[3].

3- تحديد الأهداف الواقعية التي يمكنه إصابتها إذا ما رسم لها خطة سليمة.

4- التكيف مع نفسه و مع مجتمعه، فيتفاعل معه تفاعلا إيجابيا.

و أما بالنسبة للمجتمع الذي يتأهب للبناء الحضاري فتنبع أهمية التوجيه للإنسان توجيها معنويا و ماديا من أن المجتمع في هذه المرحلة يكون في أمس الحاجة إلى استغلال كل طاقاته العقلية و العضلية و سائر ما يقع تحت تصرفه من إمكان حضاري. و لكن لا يمكنه أن يحشد طاقاته و إمكاناته و وسائله، كما لا يمكنه أن ينظم

---

[1] و لعل ما يؤكد هذه الأهمية هو أن العالم العربي و الإسلامي منذ قيام النهضة فيه و هو يقوم بإصلاحات و تغييرات في جميع مجالات الحياة، و لكن نتائجها في كل مرة تقضي فيه إلى أسوأ مما كان فيه مما يعني أن ما يقوم به لا يستند إلى توجيه منهجي. انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص: 76، 77، و انظر له: شروط النهضة ص: 84.

[2] انظر لطفي بركات أحمد: محمد مصطفى زيدان: التوجيه التربوي و الإرشاد النفسي في المدرسة العربية، مكتبة الأنجلومصرية، مصر –القاهرة، طبعة عام 1968م، ص: 3، 4 و ما بعدهما.

[3] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 52.

و ينسق جهوده و يقتصد في الجهد و الوقت و الوسائل و يصيب الهدف الذي نهض من أجله ما لم يكن يعرف كيف يوجه الإنسان في هذه المرحلة توجيها معنويا و ماديا[1].

ففي بلداننا العربية و الإسلامية « ملايين السواعد العاملة و العقول المفكرة... [وهي] صالحة لأن تستخدم في كل وقت [ولكن] المهم هو أن ندير هذا الجهاز المكون من ملايين السواعد و العقول المفكرة في أحسن ظروفه الزمنية و الإنتاجية »[2].

إذ إن « هذا الجهاز حين يتحرك يحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود، و في هذا تكمن أساسا فكرة توجيه الإنسان الذي تحركه دوافع دينية و بلغة الاجتماع؛ الإنسان الذي يكتسب من فكرته الدينية معنى (الجماعة) و معنى (الكفاح) »[3].

و بالإضافة إلى ما سبق، فإن أهمية فكرة التوجيه في هذا البحث تتبع من أن مجال التوجيه الأدبي و المادي في البلدان المتقدمة لم تعد تنحصر حدوده في دائرة الأسرة و المدرسة و مراكز البحث و التكوين و إنما امتد ليشمل جميع مؤسسات المجتمع و مختلف أنشطتها. الأمر الذي جعل فكرة التوجيه في هذه البلدان على مرّ العقود تنمو كما نمت فيها فكرة الزمن و الثقافة[4] و تصبح علما قائما بذاته تسهر على تطويره بالبحث و الدراسة معاهدها و جامعاتها[5].

ذلك أن بلدا مثل الولايات المتحدة الأمريكية أو ألمانيا أو اليابان أو الصين أدركت منذ مدة زمنية أن التنمية التي يتحقق معها نمو المجتمع و تطوره في المجالين الأدبي و المادي مرتبطة ارتباطا وثيقا بعلم التوجيه[6]. الشيء الذي جعلها لا تكتفي في هذا المجال الحيوي برعاية من برهنوا من أبنائها على كفاءة عالية في علم التخطيط

---

[1] انظر مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، موضوع: فكرة التوجيه ص: 84 و انظر كتاب: من أجل التغيير، موضوع: التخطيط و التخطيط الدقيق ص: 29 و ما بعدها، و انظر كتاب: ميلاد مجتمع، موضوعا: الثروة الاجتماعية ص: 37 و ما بعدها، دفاع عن شبكة العلاقات الاجتماعية ص: 94 و ما بعدها.

[2] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص: 67.

[3] مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 67.

[4] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد ص: 15-34 و انظر له: مشكلة الثقافة ص: 19-36.

[5] انظر أميرة حلمي مطر: مقالات فلسفية حول القيم و الحضارة، مكتبة مدبولي -مصر- القاهرة، موضوع: ما بين حضارة الآلة و ثقافة الإنسان ص: 85 و ما بعدها.

[6] انظر فؤاد زكريا: الإنسان و الحضارة.

و التوجيه، و إنما عمدت في الوقت ذاته بغية سد الفراغ الذي قد يترتب على الاكتفاء بأبنائها، إلى معرفة كل من توسّم فيهم المختصون في علم النفس الاجتماعي و في علم الاجتماع النفسي من أبناء مجتمعات أخرى مهارة و قدرة على التخطيط و التوجيه و على التكوين، فاستقطبتهم و تعهدتهم بالرعاية المعنوية و المادية كي ينبغوا في هذا التخصص الحيوي[1].

و قبل كل هذا لو لم يكن للتوجيه الحضاري للإنسان في الناحيتين الأدبية و المادية من أهمية لفت نظر الإنسان في عالمنا العربي و الإسلامي إلى قيمة ما يقع تحت تصرفه من رصيد طبيعي و من طاقات، حتى لا يبقى مكبّلا، ينتظر ما تجود به السماء أو الأرض، و يشرع في استخدام ترابه و وقته و عقله و عضلاته لكان ذلك يعد مبررا كافيا لإدراجه فصلا في هذا البحث[2].

و سواء أ كان مالك بن نبي هو أول من أدرك أهمية التوجيه المعنوي و المادي للإنسان، و نبّه إلى ضرورته في العمل النهضوي أم كان مفكرا آخر؛ فذلك لا يهمنا بقدر ما يهمنا أن نجيب على هذا السؤال: هل الهدف من التوجيه الحضاري هو أن نجعل الإنسان في عالمنا العربي و الإسلامي يدرك قيمة الإسلام و قيمة التراب و الوقت و قيمة العمل المشترك في حل المعادلة الحضارية؟؟؟ أم أن الهدف من التوجيه هو أيضا أن نجعل الإنسان المسلم يدرك رسالته الإسلامية في العالم و يعمل جاهدا على أن يحقق هذه الرسالة في سلوكه و في أسلوب حياته كي يكون حاضرا في عالم الآخرين[3]؟؟

و الجواب هو أنه لا يمكن للتوجيه الحضاري إذا ما كان الهدف منه هو حل المعادلة الحضارية أن يهيئ الإنسان المسلم نفسيا و فكريا، بحيث يستطيع أن يتخلص من مركب النقص تجاه الإنسان المتفوق في الإنتاج الفاقد لمعناه الإنساني و من النظرة

---

[1] انظر حنفي بن عيسى: تعلّم لتكون، تأليف مجموعة من الكتّاب الغربيين، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، طبعة عام 1974م، موضوع: التكوين في الخارج، و هجرة الكفاءات ص: 315-318.

[2] انظر منالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، موضوع: الاقتصاد و الاقتصاداتية ص: 35-41. و انظر له: تأملات، موضوع: الفعالية ص: 123-138.

[3] انظر مالك بن نبي: فكرة كمنويلث إسلامي، موضوع: وظيفة كمنويلث إسلامي ص: 65-75. و انظر روجيه غارودي: الإسلام الحي، موضوع: النظرة الإسلامية للنمو ص: 115-145.

الضيقة للحضارة كتلك التي فرضتها عليه قيم ثقافة الحضارة الحالية و على جميع الشعوب المستضعفة[1]، و أن يخرجه من هذا المأزق ناهيك عن أن يجعله مهيئا في إرادته و في اتجاهه للقيام بأداء دوره و رسالته الإسلامية في محيطه الإقليمي و الدولي[2].

و لذلك فإن التوجيه المطلوب و الذي يستطيع أن يهيّئ الإنسان المسلم من الناحية النفسية و من الناحية الفكرية للبناء الحضاري[3] أو الذي يمكنه أن يؤثر في طاقة الإنسان المسلم تأثيرا إيجابيا، و يغيّر من نظرته إلى الحياة و من وجهته فيها، ليس هو ذلك التوجيه الذي ينصرف إلى الجانب المادي من حياة المسلم، كما ليس هو ذلك التوجيه الذي ينصرف إلى الجانب المعنوي من حياة المسلم[4]، و إنما هو ذلك التوجيه الذي يتناول حياة الإنسان المسلم الاجتماعية في بعدها الروحي و الأخلاقي إلى جانب تناول حياته الروحية و الأخلاقية في بعدها الاجتماعي[5].

إذ بهذا التوجيه المزدوج الديني الدنيوي أو الروحي المادي يستطيع الإنسان المسلم في أي ميدان من ميادين الحياة أن يقوم بأداء واجباته الدنيوية و الأخروية

---

[1] انظر مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص: 15، 16.

[2] انظر مالك بن نبي: تأملات، موضوع: رسالتنا في العالم ص: 203 و ما بعدها. و انظر عبد الكريم بكار: من أجل انطلاقة حضارية شاملة... الموضوعات التالية: جرح الكبرياء ص: 07-13، الحضارة الغربية و النموذج المطلوب ص: 44-47، الحضارة الغربية و فقد الاتجاه ص: 47-56.

[3] هو التوجيه الذي يربط الأخلاق بالعقيدة و الإيمان بالعمل و المادة بالروح و الدنيا بالآخرة و لا يمكن أن تستقى مبادئه و أساليبه إلا من القرآن و السنة، انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 55، 56 و فكرة الإفريقية الآسيوية... موضوع: نظرات عامة في الثقافة الأفرسيوية ص: 134-147.

[4] انظر عبد الكريم بكار: من أجل انطلاقة حضارية شاملة، موضوع: إحياء الخلق الكريم ص: 159 و ما بعدها ففي نظره ينبغي أن يكون هذا الإحياء على أساس يجمع بين القيم الروحية و القيم المادية.

[5] و انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 110-112 فهو يرى « أن كل ثقافة تتضمن (علاقة مبدأ أخلاقي-ذوق جمالي) تكون ذات دلالة عن نوع عبقرية مجتمع معيّن، و هي ليست تطبع إنتاجه الأدبي بطابع خاص فحسب و إنما تحدد اتجاهه في التاريخ... فكل ثقافة سيطرة... هي في أساسها ثقافة تنمو فيها القيم الجمالية على حساب القيم الأخلاقية... و عليه فإنه حينما توضع مشكلة توجيه الثقافة، فإنه يجب أن تراعى هذه الاعتبارات جميعها بحسب ضرورات الحياة. علما بأن العناصر الثقافية موجودة في كل حضارة تواجه هذه الضرورات، غير أن تأثيرها يختلف في الحياة و التاريخ بحسب ترتيبها في سلم القيم المصطلح عليها. و إن هذا ليبين لنا مدى الأهمية التي ينبغي لنا أن نعيرها لعناصر الثقافة » ترتيبا و توجيها.

و بتجسيد فكرته الإسلامية في حياته الاجتماعية بمختلف مظاهرها الفكرية و السياسية و الاقتصادية، فينقذ نفسه و ينقذ غيره من حمأة المادية، لأنه بهذا التوجيه يصبح من المبدعين لأفكاره و وسائله لا من المقلدين أو المستهلكين لما ينتجه غيره[1].

و من هنا تأتي أهمية و ضرورة توجيه الإنسان المسلم في فكره و في عمله و رأس ماله أو توجيهه توجيها معنويا و ماديا.

الفرع الأول: التوجيه المعنوي:

الإنسان في نظر مالك بن نبي[2] هو العنصر الذي تنبع منه المشكلة الإسلامية بجميع مظاهرها. و لذلك فإن فهم هذا الجهاز المعقد و كيف يؤثر في ذلك يعتبر أمرا ضروريا[3].

هو أمر ضروري؛ لأنه لا يمكن أن نعرف كيف نوجهه؟ و بماذا نوجهه؟ و نحن نجهل حقيقة الإنسان المسلم و كيف يؤثر و بماذا يؤثر في تركيب التاريخ[4] ؟

و قد صار من المعلوم بالضرورة أن الإنسان يؤثر في صنع الاحداث التاريخية و في توجيهها أو في تركيب عناصر الحضارة أو في تحللها أو في بناء المجتمع أو في هدمه بثلاث مؤثرات هي فكره و عمله و ماله[5].

و إذ يؤثر الإنسان تأثيرا إيجابيا أو سلبيا بهذه المؤثرات الثلاثة في بناء الحضارة، أو في هدم عواملها، فإن توجيهه توجيها معنويا بتوجيه عناصر الثقافة و توجيهه توجيها ماديا في العنصرين الأساسيين اللذين يقوم عليهما الاقتصاد: العمل و رأس المال، يعدّ أحد العوامل أو الشروط الأساسية التي يتطلبها البناء الحضاري[6].

---

[1] انظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى ص: 198.

[2] انظر شروط النهضة، موضوع: العنصر الأول: الإنسان ص: 81 و ما بعدها.

[3] انظر مالك بن نبيك تأملات، موضوع: الفعالية ص: 123 و ما بعدها.

[4] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 78-83.

[5] انظر مالك بن نبي: المصدر السابق ص: 83.

[6] انظر مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 116، 122 حيث أنه يرى أنه بـــ « توجيه الثقافة مع توجيه العمل... يكون الفرد [أو الإنسان المسلم] قد استكمل الشروط الضرورية لتشييد حضارة تطابق إطاره الخاص ».

و لهذا تعتبر معرفة كيف توجه طاقة الإنسان في النواحي التي يجد فيها، أي إنسان نفسه مدفوعا بحكم غريزته إلى خوض معركتها أمرا ضروريا كما تعتبر معرفة كيف نعيد تنظيم طاقة الإنسان المسلم الحيوية و نوجهها[1] -لخوض معركة الأفكار و معركة الشغل و الأعمال على أساس من مفهوم (ثقافة)[2] و بما يتضمنه هذا المفهوم من مبدأ أخلاقي و ذوق جمالي و منطق عملي و فن صياغي -مفتاحا لتحقيق ثقافة نهضة شاملة، تستطيع أن تعيد تركيب عناصر الحضارة الإسلامية و تحل تدريجيا كافة مشكلات العالم الإسلامي الحضارية[3].

و من هنا لم يكن مالك بن نبي فيما كتب عن مشكلات الحضارة في العالم العربي و الإسلامي يرى في فهم الثقافة و في تحقيق عناصرها بصورة عملية فحسب و إنما كان يرى أن بدايته تكمن -و هذا هو المفتاح- في وضع برنامج تربوي يصلح لتوجيه الثقافة[4].

إذ لا يكفي في نظر مالك بن نبي[5] لكي نتمكن تدريجيا من حل مشكلاتنا الحضارية أن نعرّف الثقافة و أن نحدد عناصرها بل لابد من التفكير في الكيفية التي تصاغ بها مبادئ الثقافة و عناصرها في برنامج تربوي يصلح لبعث الإرادة الحضارية في الفرد و المجتمع كما يصلح في الآن ذاته لتوجيه هذه الإرادة بتوجيه عالم الأفكار و عالم الشغل و الأعمال. فالثقافة بعناصرها المختلفة لن يكون لها أي تأثير في حياة الفرد و المجتمع ما لم يكن التنظيم و التوجيه لطاقة الإنسان و إمكانات المجتمع

---

[1] انظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ص:

[2] فهي في نظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 89، 90 « مجموعة من الصفات الخلقية و القيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه ... [أو] هي المحيط الذي يعكس حضارة معينة... و لكن لا سبيل لعودة الثقافة إلى وظيفتها الحضارية إلا بعد تنظيف الموضوع من الحشو أو الانحراف، الذي أحدثه فيه عدم فهمنا لمفهوم (ثقافة)».

[3] انظر مالك بن نبي: تأملات ص: 151، 152.

[4] انظر مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، موضوع: توجيه الأفكار ص: 67-69.

[5] ميلاد مجتمع ص: 100،101.

و وسائله هي المهمة الأولى أو الغاية القصوى من إعداد برنامج تربوي[1].

و من أجل تحقيق هذه الغاية لم يفت مالك بن نبي –قبل الشروع في الحديث عن كيفية توجيه الإنسان من خلال الكيفية التي يتم بها توجيه الثقافة بتوجيه عناصرها– تحديد معنى التوجيه الذي يرمي إليه، و ذلك لما له من أهمية في الحياة الإسلامية بوجه عام و في الحياة الفكرية بوجه خاص.

فالتوجيه الذي يقصده مالك بن نبي هو توجيه وظيفي، إذ هو بهذا المعنى « قوة في الأساس و توافق في السير و وحدة في الهدف »[2]. و لكي ندرك أبعاد التعريف الوظيفي الذي يعطيه مالك بن نبي لفكرة التوجيه ينبغي أن نربط بينه و بين التعريف الوظيفي الذي يعطيه للثقافة؛ فهي « توجيه الطاقات الفردية لتحقيق بناء الفرد و في الداخل بالنسبة إلى مصلحته و لتحقيق مكانه في المجتمع بانسجام تلك المصلحة مع مصلحة المجتمع »[3].

مما يعني أنه لا يكفي لكي تكون الثقافة وسيلة فعالة لتوجيه الطاقات الفردية، و جعل هذه الطاقات –التي تنشط في مختلف ميادين الحياة ابتغاء تحقيق مصالحها– منسجمة مع مصلحة المجتمع الذي تنتمي إليه وضع خطة لتركيب عناصرها المختلفة، بل يتعين لتحقيق هذا الانسجام توجيه عناصر الثقافة توجيها سليما[4].

و ملاحظات مالك بن نبي لمواقف الإنسان المسلم من مشكلات الحياة من ناحية، و تتبعه و ترصده و دراسته لمواقف نخبة العالم الإسلامي من الاستعمار و الأمية و الجهل و الفقر منها ببلاد النهضة في العالم العربي و الإسلامي من ناحية اخرى هي

---

[1] انظر مالك بن نبي: المصدر السابق، موضوع: الشروط الأولية للتربية الاجتماعية ص: .... و انظر له: تأملات ص: 194 بمعنى أنه ينبغي لكي ننظم و نوجه طاقات الأفراد و إمكانات و وسائل المجتمع « ألا توضع برامج التعليم [طبقا] لما يسمى (العلم) و لكن طبقا لشيء أهم بكثير... [يسمى] الثقافة أي أن توضع برامج تتصل بعالم النفس و الدوافع الأساسية ثم بعالم العقل و المفهومات، و بعالم الأشياء و الحاجات ».

[2] مشكلة الثقافة ص: 67.

[3] مالك بن نبي: تأملات ص: 84.

[4] انظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، موضوعا: دفاع عن شبكة العلاقات الاجتماعية ص: 94 و ما بعدها، الشروط الأولية للتربية الاجتماعية ص: 102 و ما بعدها.

التي جعلته يلح على توجيه الأفكار[1].

ففي نظره أن « مفتاح المشكلة يكمن في وضع برنامج لتوجيه الثقافة، توجيها يتفق و سمو الغاية التي ننشدها »[2].

و لما كان الهدف من توجيه الإنسان في تلك النواحي المشار إليها آنفا بتوجيه عناصر الثقافة هو تكتيل الطاقات المختلفة بها في ذلك الإمكانات و الوسائل المتاحة و تسديد حركات العقول و العضلات[3]، فإنه يتعيّن لكيلا تقع بلداننا العربية و الإسلامية فيما وقعت فيه من قبل من أخطاء سياسية و اقتصادية و اجتماعية، توجيه الثقافة[4] فتحويل كل الجهود التي تبذل على أكثر من صعيد في كل دول العالم العربي و الإسلامي إلى جهود فعّالة لا يمكن أن يتم دون توجيه الثقافة[5].

و في توجيه عناصر الثقافة توجيه و تسديد لحركة النهضة الأدبية و المادية و تحديد لغايتها، و لكن إذا كانت هذه الحركة رغم مرور قرن و نصف على ميلادها لم تتمكن في أغلب البلاد العربية و الإسلامية من الوصول لا إلى تحديد العامل الأساسي الذي يمزج عناصر الحضارة و لا إلى الصيغة الفنية التي يتم على أساس منها تركيب الإنسان و التراب و الوقت؛ فذلك لأن نخبة العالم العربي و الإسلامي لم تلتفت أثناء كل هذه المدة إلى حامل الثقافة و الإطار الذي تشكلت فيه معادلته الاجتماعية[6].

و لئن كان تجاهل معادلة الإنسان الاجتماعية و المحيط الذي تشكلت فيه عناصرها الأساسية خلال قرون الانحطاط؛ هو الذي يقف حائلا بين تلك البرامج التنموية التي تضعها البلدان العربية و الإسلامية من حين لآخر قصد إحداث نهضة

---

[1] انظر مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص: 67، ففي غياب التوجيه الثقافي « كم من طاقات و قوى لم تستخدم لأننا لا نعرف كيف نكتلها، و كم من طاقات و قوى ضاعت فلم تحقق هدفها حين زاحمتها قوى أخرى صادرة عن المصدر نفسه، متجهة إلى الهدف نفسه ».

[2] مالك بن نبي: المصدر السابق صك 69.

[3] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة، الموضوعات التالية: التوجيه الأخلاقي ص: 94 و ما بعدها، توجيه العمل صك 113 و ما بعدها، توجيه رأس المال ص: 117 و ما بعدها.

[4] نظر مالك بن نبي: فكرة الإفريقية الآسيوية، موضوع: العالم الإسلامي و فكرة الأفرسيوية ص: 232، 234، 235، 236.

[5] انظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ص: 108.

[6] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد ص: 17-22. و انظر له: فكرة الإفريقية الآسيوية...، موضوع: مشكلة الحضارة ص: 123-133.

شاملة و بين تحقيق هذه الغاية[1]؛ فإنه بات من اللازم على هذه البلدان كي تضمن مستقبلا لبرامجها التنموية شروط النجاح أن تعير اهتماما كبيرا لقضية التوجيه المعنوي و المادي للإنسان المسلم[2].

فإذا كان التوجيه الحضاري للإنسان في الناحيتين: المعنوية و المادية يعتبر في نظر مالك بن نبي أمرا ضروريا لأية نهضة باعتباره أحد العوامل المعنوية الت تتوقف عليها فاعلية حركة النهضة و بالتالي تركيب عناصر الحضارة تركيبا أصيلا فإن قدرته على تحقيق هذه الغاية تبقى مرهونة بمدى إمكانية قدرة بلداننا العربية و الإسلامية على وضع برنامج تربوي للتثقيف و التوجيه العام[3].

و لذلك فإنه بقدر ما يكون اهتمام واضعي البرنامج التربوي منصبا على النواحي العملية التي يؤثر بها الإنسان تأثيرا إيجابيا على عملية تركيب عناصر الحضارة و على العناصر الثقافية التي تؤثر في الإنسان بقدر ما يستطيع التوجيه تأدية وظيفته الاجتماعية في حياة الفرد و المجتمع في البلدان العربية و الإسلامية[4].

لأنه إذا كان قد اتضح في الفرعين السابقين من فصل: "الثقافة و الحضارة" بالأمثلة التطبيقية ان مشكلة الإنسان المسلم ليست في العلم بالطرق الفنية التي تؤدي على إنشاء عالم الأشياء أو في العلم بطرق الخبرة الفنية التي تمكنه من استعمال هذا الشيء المعيّن في هذا المجال المحدود لحل هذه المشكلة أو تلك، بقدر ما تكمن هذه المشكلة في الكيفية التي تجعله قادرا على استخدام علمه و خبرته في مجال تخصصه (و تلك هي مشكلة التوجيه[5])؛ فإنه لذلك ينبغي –كي يستطيع الإنسان المسلم الذي له صلة بعالم المفاهيم و الذي له صلة بعالم الأشياء و الذي له صلة بعالم الأشخاص، أن يؤدي وظيفته الاجتماعية في حدود مجال تخصصه كما تؤدي كريات الدم: الحمراء

---

[1] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد ص: 57ن 58. و انظر له: تأملات، موضوع: قيم إنسانية و قيم اقتصادية ص: 49-62.

[2] انظر مالك بن نبي: بين الرشاد و التيه ص: 154-160.

[3] نظر مالك بن نبي: المصدر السابق، موضوع: السياسة و الثقافة ص: 87-90.

[4] انظر مالك بن نبي: تأملات، موضوع: الثقافة ص: 139-152، و انظر له: ميلاد مجتمع ص: 96، 99، 100، 108.

[5] انظر مالك بن نبي: فكرة الإفريقية الآسيوية، موضوع: العالم الإسلامي و فكرة الأفرسيوية ص: 219-248.

و البيضاء وظيفتها الحيوية في جسم كائن حي- توجيه الإنسان في تلك النواحي المشار إليها آنفا.

كما ينبغي أن يكون هذا التوجيه قائما على أساس من عناصر الثقافة[1]؛ لأن هذه الأخيرة « لا تستطيع أن تكون أسلوب حياة في مجتمع معيّن إلا إذا اشتملت على عنصر يجعل كل فرد مرتبطا بهذا الأسلوب فلا يحدث فيه نشوزا بسلوكه الخاص. و نحن إذا دققنا النظر في هذا العنصر، فإننا نرى أنه لابد أن يكون خلقيا »[2].

و لعل السؤال المتبادر إلى الذهن هو لماذا بالضرورة يكون هذا العنصر عنصرا أخلاقيا ؟! و الجواب هو أن العمل الحضاري في نظر مالك بن نبي و في نظر غيره من المهتمين[3] بمشكلات الحضارة في العالم العربي و الإسلامي، لا يمكن أن ينشأ ناهيك عن أن تنفر جميع فئات المجتمع و تسارع إلى القيام به، و يُمكّن له من الدوام و الاستمرارية من جيل إلى جيل، ما لم تكن وراءه فكرة دافعة لكل فرد من أفراد المجتمع للقيام بما يفرضه عليه هذا العمل من واجبات و ما يتطلبه منه من جهد و تضحية، و تكون في الوقت نفسه موجهة للجهود الفردية و الجماعية، حتى لا تنشغل بعض فئات المجتمع بالقضايا الهامشية عن المهام الاجتماعية الجوهرية و حتى لا يلغي جهد هذا الفرد جهد ذاك، و لا يلغي جهد هذه الجماعة جهد تلك مع أن الهدف واحد[4].

و لما كانت قوة الدفع و التوجيه للفرد و الجماعة في العمل الحضاري بالإضافة إلى قوة التماسك الضرورية لتركيب عالم الأشخاص و تكوين الصلات الاجتماعية بين مختلف جماعاته و جمعياته و أحزابه كيما يكون هذا العمل فعالا، لا يمكن أن تحققها للإنسان المسلم أي فكرة بشرية مستوردة كما ثبت ذلك بالتجربة[5]؛ فإنه يصبح من الضروري -خاصة عندما نأخذ بعين الاعتبار ما تحقق في بداية تاريخ الحضارة

---

[1] انظر مالك بن نبي: تأملات، موضوع: الصعوبات بوصفها علامة نمو في المجتمع العربي ص: 17-31.

[2] انظر مالك بن نبي: المصدر السابق ص: 148.

[3] انظر عبد الله شريط: الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون ص: 75، 91-94. و انظر محمود شاكر: اقتصاديات العالم الإسلامي، مؤسسة الرسالة، لبنان- بيروت، الطبعة الخامسة لعام 1986م ص: 13-22.

[4] انظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى، موضوع: مشكلة المفهومية ص: 99-102.

[5] انظر المرجع السابق ص: 50، 51.

الإسلامية و الحضارة المسيحية- في هذا المجال، التسليم بأنه عنصر أخلاقي تنبع قيمه الدافعة و المركبة و الموجهة من الفكرة الدينية[1].

و ليست منجزات أو منتوجات كل من الحضارتين: الإسلامية و المسيحية إلا شاهدا يشهد لهذا الذي نقول إذ لولا القيم الأخلاقية للفكرة الإسلامية لما تركب عالم الأشخاص من المهاجرين و الأنصار و لما نشأ من هذا التركيب أول مجتمع إسلامي خلا من الطبقات و لما بني على سواعد الجماعة المركبة أول مسجد من أول يوم نزل فيه النبي -صلى الله عليه و سلم- المدينة المنورة، و لما حفر الصحابة خندقا حول المدينة بالوسائل البسيطة، و لما أعاد أبو بكر و عثمان -رضي الله عنهما- جمع المصحف في نسخة واحدة، و لما ظهر عالم الأفكار بمختلف علومه: الفقهية و اللغوية و العروضية و البلاغية و الفلسفية و الرياضية و الطبية و الهندسية، و لما نشأ عالم الأشياء كالبوصلة و الساعة و غيرهما.

و كما أن تاريخ الأمة الإسلامية لا يزال يشهد أن القيم الأخلاقية للفكرة الإسلامية هي الأصل في كل منتجات الحضارة الإسلامية فإن تاريخ[2] شعوب الجزء الغربي من القارة الأوربية لا يزال هو الآخر يشهد أن القيم الأخلاقية للفكرة المسيحية هي الأصل في كل منتجات الحضارة الغربية[3]، إذ لولا المناخ العقلي الجديد الذي أخذت تستحدثه و تشكله هذه القيم عند الإنسان في أوربا الغربية[4] لما كان باستطاعة "غاليلي" أن يتوصل إلى اختراع منظاره المكبر للأشياء[5]، و لما كان بإمكان "نيوتن" أن يستنطق التفاحة التي سقطت عليه و يستخرج منها قانون الجاذبية[6]، و لما كان لـــ "جيمس وات" أن يتوصل من ملاحظته لغليان الماء في قدر مغلق إلى اختراع الطاقة البخارية بديلا للطاقة المائية و الهوائية[2].

---

[1] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، موضوع: المآل الروحي لعالم الإسلام ص: 167-172.

[2] انظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، موضوع: شبكة العلاقات و الجغرافيا ص: 59-64.

[3] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 94، 95.

[4] انظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى ص: 184، 185.

[5] انظر فؤاد زكريا: الإنسان و الحضارة، دار مصر للطباعة -مصر- ص: 71.

[6] انظر مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص: 47.

[2] انظر فؤاد زكريا: الإنسان و الحضارة ص: 81، 82.

و هكذا سيكون الأمر مع كل منتوج من منتوجات الحضارة الغربية، إذا ما حاولنا البحث عن الأصل الأول الذي تكون منه –حتى ذلك المنتوج الحديث كالسوق الأوربية المشتركة أو المعاصر كالعملة الموحدة " EURO " أو الدستور الأوربي المشترك–؛ فإننا نجده يعود إلى القيم الأخلاقية المسيحية أو إلى بدائلها اللادينية[1]. فلو أخذنا من منتوجات الحضارة الغربية "المذياع" كمثال « لرأينا فيه مجهودات علمية و فنية مختلفة، دون أن يخطر ببالنا أثر القيم المسيحية في بناء هذا الجهاز على حين أنه في الواقع أثر من آثار العلاقات الاجتماعية الخاصة، التي وحدت جهودا مختلفة لـ (هرتز Hertz) الألماني و (بوبوف Popoff) الروسي و (برانلي Branly) الفرنسي، و (ماركوني Marconi) الإيطالي و (فليمن Fleming) الأمريكي... و هل هذه العلاقات الخاصة في أصلها سوى الرابطة المسيحية التي أنتجت الحضارة الغربية منذ عهد شارلمان؟ و هكذا سوف نصل في النهاية –إذا ما تتبعنا كل مظهر مدني من مظاهر الحضارة الغربية– إلى الروابط الدينية الأولى التي بعثت الحضارة، و هذه حقيقة كل عصر و كل حضارة »[2].

و لو لم يكن لعنصر الأخلاق من وظيفة سوى أنه يقوم « ببناء عالم الأشخاص، الذي لا يتصور بدونه عالم الأشياء و لا عالم المفاهيم »[3]، لكان ذلك مبررا لتقديمه على بقية العناصر الثقافية الأخرى؛ لأنه لا يمكن للعالم العربي و الإسلامي في الظروف الراهنة –التي تستغلها القوى العالمية للضغط على دوله لإحداث تغييرات و إصلاحات طبقا للمقاييس و المعايير التي تخدم مصلحتها– أن يتمكن من إعادة بناء عالم أشخاصه نفسيا و فكريا، و من إحكام الصلات الاجتماعية بين جميع الأفراد و الهيئات المكونة له، لمواجهة التحديات الداخلية و الخارجية، ما لم تكن القيم الأخلاقية الإسلامية هي أساس البناء و الربط[4]، لأن بدائلها اللادينية لا تستطيع في هذه الظروف تكتيل الطاقات و الجهود الفردية و الجماعية العقلية و العضلية و توجيهها. « و من

---

[1] انظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى ص: 60، 61.

[2] مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 95، 96.

[3] مالك بن نبي: تأملات ص: 148.

[4] انظر علي عزت بيجوفيتش: الإعلام الإسلامي، موضوع: تخلف الشعوب المسلمة ص: 49–61.

هنا كانت أهميته الكبرى في تحديد الثقافة في مجتمع ما »[1] أي أن القيم الأخلاقية هي التي تقدم الدوافع و المبررات و تحدد الأهداف القريبة و البعيدة و بالتالي الاتجاه العام للمجتمع.

و أما أهمية عنصر الجمال في التوجيه المعنوي للإنسان في البناء الحضاري، فتنبع من مشكلة الرجل الأفرسيوي، فهي من حيث النموذج الاجتماعي و من حيث المنظر الإنساني السائدين من طنجة إلى جاكرتا في نظر مالك بن نبي مشكلة ثقافة[2]، و لما كانت مشكلة الثقافة في العالم الأفرسيوي من الناحية التربوية هي في جوهرها مشكلة توجيه الأفكار[3]، فإنه ينبغي لكي نتمكن من حل هذه المشكلة، ألا نكتفي بتوجيه الإنسان توجيها أخلاقيا و ذلك لأنه « إذا كان المبدأ الأخلاقي يقرر الاتجاه العام للمجتمع بتحديد الدوافع و الغايات فإن [عنصر] الجمال هو الذي يصوغ صورته... و من هذه الناحية يعد ذوق الجمال من أهم العناصر الديناميكية في الثقافة »[4] التي إذا ما تم تركيب عناصرها المختلفة تستطيع إعادة صياغة الإنسان و توجيهه في النواحي التي يؤثر بها في تركيب التاريخ.

و إذا كان المهتم بالإطار أو المحيط الثقافي السائد من طنجة إلى جاكرتا يلاحظ أن عالم الأشخاص و عالم الأفكار و عالم الأشياء و عالم العناصر و الظواهر الطبيعية: بألوانه و أصواته و روائحه و حركاته و أضوائه و ظلاله... الخ أنه عالم متنافر، يحتاج إلى صياغة جديدة[5]، فإنه ينبغي في التوجيه الحضاري للإنسان الأفرسيوي مراعاة عنصر الجمال في هذه الصياغة؛ لأنه لا يمكن بالنسبة للعناصر و الظواهر الطبيعية أن تتركب و تصبح « مجموعة من الألوان و طائفة من الأصوات و طاقة من الروائح و كتلة من الحركات و حزمة من الأضواء و الظلال »[6] و تمارس تأثيرها الإيجابي على نفسية الإنسان الأفرسيوي، كي يستطيع « أن يحقق هذا

---

[1] مالك بن نبي: تأملات ص: 148.

[2] انظر فكرة الإفريقية الآسيوية ص: 135.

[3] انظر مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص: 67.

[4] مالك بن نبي: تأملات ص: 150.

[5] انظر مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص: 62-66.

[6] مالك بن نبي: المصدر السابق ص: 64.

الأفرسيوي من طنجة إلى جاكرتا وضعا عاما متحررا من العوامل السلبية التي فرضها الاستعمار و القابلية للاستعمار على حياته في هذه المنطقة »[1]؛ ما لم يدرج في الخطة التربوية: – تثقيفا و توجيها– عنصر الجمال؛ لأنه بالإضافة إلى كونه هو العنصر الكفيل بصياغتها في شكل معين فإنه هو الذي أيضا « يحرك الهمم إلى ما هو أبعد من مجرد المصلحة... و يضيف إلى الواقع الأخلاقي عند الفرد دوافع إيجابية أخرى، من شأنها أحيانا أن تعدل من بعض الدوافع السلبية، التي ربما يخلقها المبدأ الأخلاقي الجاف في سلوك الفرد، حينما يصطدم هذا السلوك الصادر عن مبدأ أخلاقي مجرد من الحساسية الإنسانية مع الذوق العام »[2].

و لما كانت مشكلة الرجل الأفرسيوي هي مشكلة فرد فقد الإحساس بالذوق الجمالي في كل ما له صلة بإيقاظ هذا الإحساس و تنميته و مشكلة مجتمع يحتاج إلى تكوين ذوق عام[3] يتناسب مع ما تقتضيه الصورة التي ينبغي أن يكون عليها البناء الحضاري للإنسان و الأفكار و الأشياء؛ فإنه لا يمكن للفرد أن يستعيد الإحساس بالذوق الجمالي[6]، و لا للمجتمع أن يكوّن ذوقا عاما تشترك فيه جميع الفئات التي يتركب منها، ما لم نسع إلى تغيير الإطار الثقافي[4] السائد تغييرا تستحيل معه على التدريج فوضى الأفكار و الأشخاص و الأشياء إلى نظام و تنظيم و فوضى العادات و الأشكال إلى تجانس و فوضى التقاليد و الأعراف إلى تكامل و فوضى الأذواق و الألوان إلى تناسب و فوضى العواطف و الحركات إلى تشابه. « ومن أجل خلق هذا الجو المنعش الذي يحمل الإنسان على التفكير المؤثر و العمل الفعال، يرى مالك بن نبي ضرورة الاهتمام بتكوين الذوق العام كشرط موضوعي من شروط التغيير المتضمنة في برنامجه التربوي »[5] التثقيفي و التوجيهي.

---

[1] مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية ص: 77.

[2] مالك بن نبي: تأملات ص: 150.

[3] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 93.

[6] انظر مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية ص: 238–240.

[4] انظر مالك بن نبي: بين الرشاد و التيه ص: 89.

[5] محمد بغداد باي: مفهوم التربية في المنظور الحضاري لمالك بن نبي، مذكرة بحث لنيل شهادة الماجستير بمعهد التربية و علم النفس جامعة وهران – السانية، السنة الجامعية 2002/ 2003 م ص: 83.

و إذا كان مالك بن نبي قد ركز في هذا البرنامج على التوجيه الجمالي للإنسان حين كانت المجتمعات العربية و الإسلامية لا تعرف في حياتها الاجتماعية ما تعرفه الآن من الجرائم التي يرتكبها الأفراد و الجماعات في حق الأرواح و الأموال العامة و الخاصة و حق البيئة، فإن التركيز عليه في هذه الظروف إلى جانب التركيز على التوجيه الأخلاقي يصبح واجبا على كل من يمارس في المجتمع بأي صفة من الصفات سلطة الأمر و النهي و التوجيه.

ذلك أن « الجمال الموجود في الإطار الذي يشتمل على ألوان و أصوات و روائح و حركات و أشكال يوحي للإنسان بأفكاره، و يطبعها بطابعه الخاص من الذوق الجميل أو السماجة القبيحة. فبالذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد يجد الإنسان في نفسه نزوعا إلى الإحسان في العمل، و توخيا للكريم من العادات »[1]. فإذا كان الذوق الفاسد هو الذي يطبع إطار حياتنا الاجتماعية غالبا، فإنه ينبغي أن نسعى و نسخر كل الوسائل لإصلاح ذوق الإنسان في مجتمعاتنا لأن « الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة »[2].

خاصة إذا كنا نحن المسلمين نزعم أننا أصحاب دور في رسالة[3] الحياة نبلغها للآخر الذي لم يتح له أن يولد من أبوين مؤمنين فإنه يصبح من اللازم علينا أن تكون أقوالنا و أفعالنا صورة جميلة تعكس وجه الوطن الذي ننتمي إليه وذلك « لكي نحفظ وجهتنا و لكي تحفظ كرامتنا و نفرض احترامنا على جيراننا الذين ندين لهم بالاحترام نفسه »[4] و ربما استطعنا بعد أن نحقق ذلك في أنفسنا أن نُعَرِّف الآخر بأنفسنا « بالصورة المحببة، بالصورة التي أجريت عليها كل عمليات التغيير بعد التنقية و التصفية من كل رواسب القابلية للاستعمار و التخلف و أصناف التقهقر »[5].

---

[1] مالك بن نبي: شروط النهضة 97، 98.

[2] مالك بن نبي: نفس المصدر ص: 100، 101.

[3] تلخصها الآية القرآنية: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر..." سورة آل عمران الآية: 110.

[4] مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 101.

[5] مالك بن نبي: دور المسلم و رسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين ص: 59.

و أما عن أهمية عنصر المنطق العملي في التوجيه المعنوي للإنسان، فإنها تنبع من أن مشكلة الإنسان المسلم هي أنه لا يعرف كيف يستخدم ما يوجد تحت تصرفه من وقت و تراب و علم و ثروات و طاقات؛ لأن المنطق العملي[1] باعتباره الضابط الذي يربط بين العمل و الهدف أو بين الفكرة و النشاط أو بين الوسيلة و الغاية، و باعتباره « فصلا كاملا من فصول الثقافة الإسلامية لم يتطور في حياة المسلمين. و إذن فلو أننا تحدّثنا اليوم عن قدر لا بأس به من السلبية في المجتمع الإسلامي فلا محل... لأن نرجع سببها إلى الإسلام... و لكن إلى تطبيقه التاريخي »[2].

و أما عن أهمية الفن الصياغي في التوجيه الحضاري للإنسان و المجتمع المسلم، فإن هذه الأهمية لا تنبع فحسب من أن دول العالم العربي خاصة، لا تزال غير مهتمة عمليا بالعلم و العلماء و إنما تنبع أيضا من أنها تكوّن آلاف العقول في هذا المجال الحيوي و لكنها لم توفر بعد في بلدانها المناخ الضروري الذي يساعد هذه العقول على الاستقرار و الإبداع و بالتالي على المساهمة في تخليص بلدانها من التبعية الاقتصادية و السياسية للغرب الاستعماري[3].

بل إن هذه البلدان بسبب عدم اهتمامها بهذه القضية الحيوية، تساهم مساهمة غير مباشرة في تصدير ثروتها العلمية إلى تلك البلدان التي تهيمن عليها و على ثرواتها الطبيعية[4].

و لذلك فإنه بات من الضروري على بلداننا العربية أن تفكر في المحافظة على هذه الثروة كي تتمكن مستقبلا من التحرر من التبعية للغرب الاستعماري[5].

و لما كان هدف مالك بن نبي من كل ما كتب في مشكلات الحضارة و في مشكلات الثقافة هو أن يوجه الإنسان المسلم إلى السبيل الأمثل المؤدي إلى بناء حضارة إسلامية جديدة، ليس على نموذج الحضارة الغربية[6]، تلك التي اتخذت لها من

---

[1] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 102، 103.

[2] مالك بن نبي: فكرة الإفريقية الآسيوية... ص: 224.

[3] انظر مالك بن نبي: من أجل التغيير، موضوع: دفاعا عن رأسمال الأفكار ص: 36-43.

[4] انظر مالك بن نبي: المصدر نفسه ص: 40.

[5] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد ص: 102.

[6] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، موضوع: بواكير العالم الإسلامي ص: 151-164.

العلمانية الفرنسية و من الجمالية الإيطالية[1] -منذ عصر النهضة حوالي عام 1513م- أساسا لتشييد جميع منجزاتها المعنوية و المادية، و ليس على أساس النموذج المرابطي الذي لم يكن يرى في القرآن و لا في السنة النبوية الصحيحة إلا جانب الترهيب من الدنيا[2]، فإنه بعد أن لاحظ على رجال النهضة الإصلاحيين -إلا من شذّ منهم- ميلهم إلى الجانب الأخلاقي من الحضارة كما لاحظ في الوقت نفسه على رجال النهضة التحديثيين ميلهم إلى الجانب الجمالي منها و في كلا الميلين إفراط و تفريط[3]، لم يفته و هو يتحدث في كتابه "شروط النهضة" عن مشكلة التوجيه المعنوي و المادي، أن يتحدث عن دور كل من المبدأ الأخلاقي و الذوق الجمالي في تحديد طابع الثقافة و اتجاه الحضارة[4].

و بعد أن صاغ العلاقة الخاصة القائمة بين المبدأ الأخلاقي و بين الذوق الجمالي باعتبارها علاقة تقديم أو تأخير لهذا العنصر أو ذاك في طرفي المعادلة الحضارية في الصورة الجبرية التالية: مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي = اتجاه حضارة، فإنه و من خلال الأمثلة التي استقاها من الحضارة الإسلامية و المسيحية للتوضيح نبّه إلى « أن كل ثقافة تتضمن علاقة (مبدأ أخلاقي- ذوق جمالي) تكون ذات دلالة على نوع عبقرية مجتمع معين، و هي ليست تطبع إنتاجه الأدبي بطابع خاص فحسب و إنما تحدد اتجاهه في التاريخ أيضا... و نستطيع مثلا أن نعد الاستعمار (كظاهرة ثقافية) يدل على أن الثقافة الغربية حددت علاقة (مبدأ أخلاقي- ذوق جمالي) بصفة عامة، و ذلك بأن قدمت العنصر الثاني على الأول في ترتيب القيم، فأثر هذا الترتيب في علاقة الإنسان الأوربي بالإنسانية... كما أننا نلاحظ من ناحية أخرى كيف أن الثقافة التي تمنح الأولوية للمبدأ الأخلاقي تكون حضارة مآلها التحجر و الجمود و تنتهي إلى فضيحة صامتة سوداء تتيه في مجاهل تصوف متقهقر يقود جنونه مشايخ الطرق »[5].

---

[1] انظر مالك بن نبي: القضايا الكبرى ص: 61 و لكن الإنسان الغربي كان في كل مرة يتعرض فيها لتحد خارجي أو استثارة ما كان يعود من جديد إلى أصله المسيحي كما يبين ذلك التصريح الشهير الذي أعلنه (شارل العاشر) على أمم أوربا غداة احتلال الجزائر.

[2] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، موضوع: الظاهرة الدورية ص: 21-28.

[3] انظر مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، موضوع: الأفكار و ازدواجية اللغة ص: 137-145.

[4] انظر موضوع: المبدأ الأخلاقي و الذوق الجمالي في بناء الحضارة ص: 106 و ما بعدها.

[5] مالك بن نبي: المصدر السابق ص: 110، 111.

و خلص من حديثه عن علاقة التقديم و التأخير لهذا العنصر أو ذاك إلى نتيجة هي أنه « حينما توضع مشكلة توجيه الثقافة فإنه يجب أن تراعى هذه الاعتبارات جميعا بحسب ضرورات الحياة، علما بأن العناصر الثقافية موجودة في كل حضارة تواجه هذه الضرورات. غير أن تأثيرها يختلف في الحياة و التاريخ بحسب ترتيبها في سلم القيم المصطلح عليها. و إن هذا ليبين لنا مدى الأهمية التي ينبغي لنا أن نعيرها لعناصر الثقافة، ليس فقط بالنسبة لقيمتها الفردية في مركب الحضارة و لكن بالنسبة لعلاقاتها في هذا المركب و بهذا يتبين لنا... أن أي خلل يحدث في هذه العلاقات فإنه قد ينتهي في آخر المطاف إلى خلل في توازن الحضارة و في كيانها »[1].

و بما أن الثقافة هي لب الحضارة و روحها؛ فإنه ينبغي في التوجيه الحضاري للإنسان مراعاة العلاقة المتبادلة بين عنصري: الأخلاق و الجمال في التأثير على الفرد و المجتمع، حتى لا ينساق كل منهما إلى الروحانية المحضة أو إلى المادية المحضة[2].

فإذا كانت وظيفة القيم الأخلاقية في البناء الحضاري تعدّ بمثابة وظيفة الروح في الجسد أو الوقود في المحرك فإن وظيفة القيم الجمالية في هذا البناء، تعد هي الأخرى بمثابة وظيفة الجسد للروح أو المحرّك للوقود[3]، و لذلك فإنه لا يمكن للبناء الحضاري إذا ما نشأ أن يتقوى و يستمر من جيل إلى آخر إلا إذا روعي التعادل في العلاقة المتبادلة بين القيم المعنوية و بين القيم المادية[4].

و ليس من العبث أن يظل الخطاب في القرآن و في السنة النبوية الشريفة طيلة العهد المكي و المدني يؤكد على هذا التعادل، لأن الحياة التي جاء ليصوغ صورة علاقاتها المختلفة سواء فيما بين عالم الأشخاص أو فيما بينه و بين عالم المفاهيم و

---

[1] مالك بن نبي: المصدر السابق ص: 112.

[2] انظر محمد البهي: الإسلام في الواقع الإيديولوجي المعاصر، دار الفكر -لبنان- بيروت، الطبعة الأولى لعام 1970م، موضوع: مضمون الرسالة الإسلامية ص: 45-51.

[3] فبالنسبة للجزائر « إذا كان الوفاء للقاعدة المتبعة و التعلق بالقيمة الأخلاقية يجب أن يعملا على شد وحدتها الملتحمة، في ربطهما للفرد بالجسم الاجتماعي، فإن الاهتمام بالصورة (أو الشكل)، و شعيرة القيمة الجمالية، يجب أن يعملا على الاحتفاظ لأسلوب الحياة برونقه؛ لأنه يتعين أن يكوّن التركيب المتآلف للحقيقة و الجمال أساسا لثقافتها... يجب أن تكون حياتنا جميعها لوحة جميلة،

و أنشودة منغومة، قصيدا خلاّبا، و حركة موقعة متناغمة، و عطرا متوضعا آسرا... » مالك بن نبي: القضايا الكبرى ص: 86، 87.

[4] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص: 156، 157.

عالم الأشياء أو فيما بين هذه العوالم مجتمعة طبقا لتعاليمه و توجيهاته ليست حياة روحية بحتة و ليست حياة مادية بحتة؛ بل هي مزيج من هذه و تلك[1].

و مما يؤكّد هذه الحقيقة هو أن جميع "الأجنة"[2] الأخلاقية الاجتماعية في النظرية القرآنية أو في النظرية السنية؛ باعتبارها أوامر منظمة أو موجهة لكل ما يصدر عن الفرد و المجتمع من أقوال و حركات، لم تفصل بين الجانبين، بل جمعت بينهما و دعت الإنسان المسلم إلى الوسطية و الاعتدال فيهما حتى لا يميل إلى جانب و يهمل جانبا آخر؛ لأن البناء الحضاري ابتداء أو إعادة لا يمكن أن ينشأ و يقوم و يستمر « إلا على أساس من التعادل بين الكم و الكيف، بين الروح و المادة، بين الغاية و السبب، فأينما اختل هذا التعادل في جانب أو في آخر كانت السقطة رهيبة قاصمة »[3]. الأمر الذي جعل مالك بن نبي يحرص في كل ما كتب عن مشكلات الحضارة، على مراعاة الجانب المعنوي و المادي في معالجته لهذه المشكلات، و ينبه إلى ضرورة توجيه الإنسان في العالم العربي و الإسلامي توجيها معنويا و ماديا في آن واحد؛ لأن نهضته « ليست في الفصل بين القيم، و إنما هي في أن يجمع بين العلم و الضمير، بين الخلق و الفن، بين الطبيعة و ما وراء الطبيعة، حتى يتسنى له أن يشيد عالمه طبقا لقانون أسبابه و وسائله، و طبقا لمقتضيات غاياته »[4].

و لذلك فإذا كان للتوجيه المعنوي للإنسان أهمية في البناء الحضاري عند مالك بن نبي، فإن للتوجيه المادي –خاصة في العمل و في رأس المال– أهمية لا تقل عن

---

[1] انظر مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ص: 79–81.

[2] إن الأجنة الاجتماعية في القرآن و في السنة النبوية الشريفة، سواء تلك التي تتعلق بإنشاء السلوك و الأسلوب أو تلك التي تتعلق بتوجيههما إلى ما يقتضيه تقدم النوع و رقيه الحضاري، كثيرة لا يمكن حصرها، و سأكتفي بذكر بعض منها على سبيل المثال؛ كقوله تعالى من سورة النساء الآية رقم 8، و من سورة الأنعام الآيات رقم: 151–165، و من سورة الإسراء الآيات رقم: 23–37، و من سورة القصص الآية رقم: 83 و من سورة لقمان الآيات رقم 16–19، و منها قول الرسول –صلى الله عليه و سلم–

" كلكم راع و كلكم مسؤول عن رعيته..." و هذه الأجنة بصيغتها الآمرة جاءت لتشكيل الحياة الاجتماعية و تنظيمها و توجيهها، و لا يكفي العالم العربي و الإسلامي لكي ينهض أن يتحدث بها أو عن أهميتها في العلاقات الخاصة و العامة بل ينبغي عليه أن يحولها إلى سلوك و أسلوب عملي.

[3] مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص:

[4] المصدر نفسه.

أهمية التوجيه المعنوي في هذا البناء، كما سيتضح ذلك من خلال الحديث عنه في الفرع الثاني من هذا الفصل.

الفرع الثاني: التوجيه المادي للإنسان: في العمل و رأس المال

يأخذ التوجيه المادي للإنسان؛ في العمل و في رأس المال في فكر مالك بن نبي، مفهوما تربويا، و ذلك لكون مالك بن نبي لا يعول في نهضة العالم الإسلامي بصفة خاصة على العوامل الاقتصادية، بقدر ما يعول على القيم الثقافية و القيم الإنسانية.

و تعويل مالك بن نبي في نهضة العالم الإسلامي الاقتصادية على القيم الثقافية و الإنسانية، آت من اعتباره لهذه القيم أنها هي الأصل في نشأة و تطوير القيم الاقتصادية[1]. فوسائل الإنتاج، و الإطارات الفنية و رؤوس الأموال « مهما كانت درجة تعقدها، هي في مرحلة أولى، نتيجة الإنسانية الأولية »[2]، فهي إذا كانت بالنسبة للبلدان المتقدمة من مقومات الاقتصاد، فذلك لا يعني أنها عند تقدير القيم المختلفة و نسبة بعضها إلى بعض؛ هي السبب في نشأة النهضة الاقتصادية في هذه البلدان، و إنما هي -سواء بالنسبة إلى هذه البلدان، كما هي بالنسبة إلى بلدان أخرى- نتيجة لـــ « تغيرات حضارية تعتري القيم و الأذواق و الأخلاق في منعطفات التاريخ »[3].

و يستمد هذا المفهوم التربوي للعمل و لرأس المال أهميته و قيمته الحيوية في التوجيه المعنوي و المادي في معالجة مالك بن نبي لمشكلة التخلف بوجه عام و في معالجته لمشكلة التخلف الاقتصادي بوجه خاص؛ من نظرته إلى العنصر الأساسي[4] في

---

[1] تحت هذا العنوان: "العدة الدائمة"، يرى مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 67 أنه: "عندما يتحرك رجل الفطرة و يأخذ طريقه لكي يصبح رجل حضارة، فإنه لا زاد له... سوى التراب و الوقت و إرادته لتلك الحركة. و هكذا لا يتاح لحضارة في بدئها رأسمال، إلا ذلك الرجل البسيط الذي تحرك، و التراب الذي يمده بقوته الزهيد حتى يصل إلى هدفه، و الوقت الضروري لوصوله. و كل ما عدا ذلك من قصور شامخات و من جامعات و طائرات، ليس إلا من المكتسبات لا من العناصر الأولية".

[2] مالك بن نبي: تأملات ص: 55، 56.

[3] مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد ص: 59.

[4] هذه النظر إلى العنصر الأساسي ليس في المشكلة الاقتصادية فحسب بل في المشكلة الحضارية، هي التي دفعت به إلى القول: "فقد صار من الضروري أن نضع أمامنا المشكلة بأكملها، و أن نأخذ في اعتبارنا -على الأخص- عنصرها الأساسي؛ الرجل، و يلزمنا أولا: أن نفهم كيف يؤثر الإنسان في تركيب التاريخ... [فهو يؤثر في هذا التركيب] أولا بفكره، [و] ثانيا بعمله، [و] ثالثا بماله" شروط النهضة ص: 83.

المشكلة الاقتصادية، فهو عنده لا ينحصر في العوامل أو المقومات الاقتصادية، بقدر ما ينحصر عنده في العوامل الإنسانية. الأمر الذي جعله يرى أنه « يحسن بمن يهتم بهذه [المشكلة] أن ينظر فيها النظرة الشاملة، حتى ترتبط الأشياء الاقتصادية بجذورها الاجتماعية الثقافية البعيدة، على الأقل في أذهان أصحاب الاختصاص كي تشمل نظرتهم في التصنيع، الذي لا بد منه، فكرة واضحة عن القيم الإنسانية الضرورية لنجاح المشروع »[1] الاقتصادي في بلدان العالم العربي و الإسلامي.

و لما كان الإنسان يعتبر في كل ما كتب مالك بن نبي عن مشكلات الحضارة بوجه عام، و عن مشكلات التخلف المادي بوجه خاص؛ العنصر الجوهري فيها؛ فإنه، و بالاستناد إلى نتائج التجارب التنموية الفاشلة في النصف الثاني من القرن المنصرم[2]، و التي تعاني منها الآن كل دول العالم العربي و الإسلامي، لا على المستوى السياسي و الاقتصادي فحسب، بل و على المستوى النفسي و الاجتماعي؛ ففي نظره أن نجاح أي خطة توضع للتجريب في الحقل الزراعي أو الصناعي أو التجاري أو في بقية الحقول الاقتصادية الأخرى كحقل الأشغال العامة بما فيه من إسكان و ري و شق طرق و بناء جسور و تشييد سدود؛ يتوقف على مدى اعتناء من يتصدون لمعالجة المشكلة الاقتصادية في بلدانهم لمشكلة الإنسان من ناحية، و على مدى اعتبارهم لها العامل الأساسي في فشل التجارب التنموية التي عرفتها بلدانهم في العقود الماضية من ناحية أخرى و ذلك لإعطائها، من حيث التفكير في ترتيب المشكلات الاقتصادية، الأولوية، عند وضع الخطط التنموية، و عند مباشرة إجراءات تنفيذها. لأن « إهمال أو تجاهل قضية الإنسان هي من الأمور التي أفقدت [تلك] التجارب الشرط الأساسي لنجاحها مثل ما حدث لمخطط (شاخت) بأندونيسيا »[3].

---

[1] مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد 57، 58.

[2] انظر مالك بن نبي: المصدر نفسه، موضوع: الاستثمار المالي و الاستثمار الاجتماعي ص: 73-78. و انظر له: بين الرشاد و التيه، موضوع: العمل و الاستثمار ص: 176-181.

[3] مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد ص: 58.

و في هذا الفشل درس، ليس لأهل الاختصاص في حقل السياسة و الاقتصاد فحسب، بل و لكل مهتم بقضية التخلف و النمو في العالم العربي و الإسلامي[1]، و هو أنه إذا كانت دول كاليابان و الاتحاد السوفياتي سابقا و ألمانيا و الصين الشعبية و غيرها من الدول التي لا يزيد عمر نهضتها على أربعين سنة مثل إيطاليا و كوريا الشمالية و إسبانيا، قد انطلقت في تنفيذ مفردات مشروعها النهضوي، من نفس النقطة التي انطلقت منها دول كأندونيسا والجزائر ومصر و« بواسطة وسائل تعد منقوصة على وجه الاجمال، اذا قدرناها ترقيميا بالوسائل التي [كانت] تقع في حوزة معظم بلدان»[2] العالم العربي والإسلامي، ومع ذلك فإنها استطاعت أن تحقق نصرا حاسما على مشكلة التخلف؛ فان ذلك لايعني سوى شيء واحد هو أن معالجة هذه المشكلة التي استعصى حلها على ذوي الاختصاص فيها و المهتمين بالتنمية في العالم الإسلامي، لا تبدأ من عالم الأشياء بل تبدأ من عالم الأنفس والأفكار[3]. وأنه لكي يكتب النجاح لمخطط التنمية الاقتصادية في دول هذا العالم كما كتب له في الدول المذكورة آنفا، لا ينبغي على واضعيه التعويل فيه على القيم الاقتصادية؛ لأن هذه الأخيرة « ترتبط من حيث التأثير والفعالية، بحالات خاصة تتصل بالعوامل الإنسانية، حتى إن الآلة الميكانيكية ذاتها يزيد أو ينقص إنتاجها حسب ما يعتري الوسط الإنساني الذي تعمل فيه من حالات توتر أو فتور، أو بعبارة أخرى حسب المسوغات الموجودة وراء نشاطه»[4].

ولذلك فإنه ينبغي على واضعيه التعويل على الإنسان؛ وذلك بجعل الخطط التنموية مصحوبة حين التنفيذ بالتوجيه الذي يبعث في الإنسان الإرادة إلى العمل[5] و يفعّل فيه سائر العناصر التي تتركب منها الطاقات الاجتماعية: كالعقل والضمير واليد والرجل؛

---

[1] انظر مالك بن نبي: تأملات، موضوع: خواطر عن نهضتنا العربية ص: 175 و ما بعدها.

[2] مالك بن نبي: القضايا الكبرى ص: 53.

[3] يقول مالك بن نبي، تأملات ص: 59: "... عندما نرى تجربة نجحت في بناء اقتصاد، فمعنى ذلك أن شخصية معينة نجحت كالتجربة الألمانية في بناء الاقتصاد الألماني بعد الحرب العالمية الثانية. و عندما نرى الاقتصاد الروسي ينجح بعد ثورة 1917م و بعد الكساد الذي عرفته روسيا القيصرية، فهذا لا يعني أن آلات جديدة بدأت تنتج في روسيا، بقدر ما يعني أن شخصية جديدة بدأت تنتج، أي تنسيقا جديدا لحركات العقل و اليد و المال بدأت تظهر آثاره المحسوسة...".

[4] مالك بن نبي: المصدر السابق ص: 56.

[5] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 115- الذي يرى "... أنه يجب أن يكون التوجيه المنهجي للعمل شرطا عاما أولا، ثم يكون وسيلة خاصة لكسب الحياة بعد ذلك، لأن التوجيه حين يتحد مع توجيه الثقافة و توجيه رأس المال يفتح مجالات جديدة للعمل... لأنه كلما تقدم التوجيه المثلث للإنسان تغير وجه الحياة حتما، فيكتمل و يحتل مستوى أرفع دائما".

إذ ببعث الإرادة الفردية و تفعيل عناصرها النفسية و الفكرية تتكوّن الإرادة الحضارية لدى الفرد ولدى الهيئة الاجتماعية شيئا فشيئا[1].

و متى تكونت هذه الإرادة الحضارية و توترت، فإنها تحرك الفرد و« تحرك المجتمع نحو تحديد مهماته الاجتماعية والاضطلاع بها»[2] وبهذا التوجيه التربوي لحركة العمل ولحركة رأس المال، في خطط التنمية الاقتصادية، الذي يجعل منهما ومن التراب والوقت في نظر الإنسان في العالم العربي والإسلامي-كما جعل منها في نظر سلفه الإنسان المسلم الأول[3] أو في نظر أخيه الإنسان الياباني والروسي والصيني والألماني-العدة التي يعتمد عليها اعتمادا كليا في منطلقه؛ يتكون أيضا الوعي الاقتصادي الذي يخوض على هدي منه هذا الإنسان معركة الحياة الاقتصادية؛ كما خاضها أسلافه أو كما يخوضها معاصروه من شعوب العالم التي تعرضت لنفس الصدمة الاستعمارية التي تعرض لها؛ لا باعتبارها معركة عيش، بل باعتبارها معركة بقاء ينبغي عليه فيها أن يبذل أقصى جهد للمساهمة في إنجاحها. لأنها الشوط الثاني الذي يخوضه للانتصار على نفسه أو على القابلية للاستعمار، بعد خوضه للشوط الأول منها، ضد الاستعمار و انتصاره عليه[4].

---

[1] لأنه إذا كانت " كل طاقة اجتماعية تصدر حتما من دوافع القلب و من مسوغات و توجيهات العقل و من حركات الأعضاء [و كان] كل نشاط اجتماعي مركب من هذه العناصر [فإن] الفاعلية تكون أقوى في الوسط الذي ينتج أقوى الدوافع و أقوم التوجيهات و أنشط الحركات " مالك بن نبي: تأملات ص: 38 و انظر له المصدر نفسه، موضوع: الثقافة ص: 147 و ما بعدها.

[2] مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد ص: 61.

[3] ففي كتابه: المسلم في عالم الاقتصاد و في حديثه عن العلاقة النسبية بين الإمكان الحضاري و الإرادة الحضارية و عن أهمية بعث الإرادة الحضارية في بناء الاقتصاد الإسلامي في الظروف الراهنة يستشهد مالك بن نبي بالتجربة التي عرفتها " الأمة العربية في زمن الرسول -صلى الله عليه و سلم- [تلك التي] انطلقت [فيها] من نقطة الصفر من حيث الإمكان [الحضاري، إذ] لم يكن لديها شيء للاضطلاع بمهماتها الجسيمة في المجال الاجتماعي و السياسي و العسكري على حد سواء، و لكننا نراها، و لا أحد ينكر هذا، تقوم بهذه المهمات دون إهمال و لا رجاء حتى يكتمل إمكانها، نراها منذ اللحظة الأولى، و بالإمكان البسيط الذي بيدها في تلك اللحظة، و كأنها قادرة على كل شيء، و إذا بها تنفذ فعلا كل خططها في كل المجالات، كأنما معامل ضرب... تدخل في فعالية وسائلها البسيطة، فجعلها كافية لإنجاز المهمات من ناحية و جعلها تكتمل في آن واحد من ناحية أخرى... [و] هذا المعامل المضاعف هو الإرادة الحضارية بالذات، حتى إنه لو فقد في نشاط مجتمع، نراه و كأنما تجمدت وسائله مهما كان كمها، و كأنما تعطل إمكانه مهما كان حجمه المادي " ص: 61، 62.

[4] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، موضوع: الطرق الجديدة ص: 129-150.

و إذا كانت الإرادة الحضارية و الوعي الاقتصادي لم ينموا في مرحلة ما بعد الاستقلال في البلدان العربية و الإسلامية، بالرغم من جسامة مهامها الاجتماعية بالقدر الذي نميا به في بلد مثل الصين الشعبية أو كوريا الشمالية؛ فإن العلة في ذلك –في نظر مالك بن نبي– تعود إلى السياسات التي اتبعتها هذه البلدان في التنمية الاقتصادية[1] إذ بدلا من أن تستمر هذه السياسات في تطبيق مبدأ الاتكال على النفس في المعركة الاقتصادية بعد أن تأكدت من نجاعته في المعركة العسكرية مع الاستعمار، لجأت إلى تطبيق مبدأ الاعتماد على الغير المتمثل في الاستثمار المالي مع أنها لا تمتلك منه إلا القليل في خزائنها، الأمر الذي حال دون اكتمال نموها[2].

و بما أن السياسات التي اتبعتها بلدان العالم العربي و الإسلامي في التنمية الاقتصادية، هي التي أعاقت النمو العادي للإرادة الحضارية و للوعي الاقتصادي[3]؛ فإنه و من أجل بعث جديد للإرادة الحضارية، و إيقاظ للوعي الاقتصادي في هذه البلدان؛ يتعين على هذه السياسات؛ و ذلك لكي نستطيع مواجهة سائر مشكلاتها الحضارية دون إهمال و لا إرجاء؛ ألا تضع في حسبانها سواء حين وضع خطط التنمية الاقتصادية أو حين الشروع في تنفيذها إلا ما تستطيع استثماره فعلا، و هو الإنسان و التراب و الوقت[4].

و يستند مالك بن نبي في رؤيته لهذه الأسس التي لا تقوم في بلدان العالم العربي و الإسلامي نهضة اقتصادية إلا عليها، إلى التجربة الصينية و التجربة الألمانية[5]. إذ حينما درس سياسة التجربة الصينية في التنمية الاقتصادية، وجد أن السياسة في هذا

---

[1] انظر مالك بن نبي: شروط النهضة، موضوع: من التكديس إلى البناء ص: 44–51. و انظر له: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، موضوع: الأفكار و ديناميكا المجتمع ص: 111–118. و المسلم في عالم الاقتصاد، موضوع: الأسس الحضارية لعالم الاقتصاد ص: 59–64.

[2] انظر مالك بن نبي: بين الرشاد و التيه، الموضوعات التالية: شروط الإقلاع الاقتصادي، العمل و الاستثمار، اقتصاد القوت و التنمية، نشتري أم نصنع ص: 169–198.

[3] انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، موضوع: العوامل الداخلية ص: 69–98.

[4] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد ص: 39، 40.

[5] من أجل أن يبين مالك بن نبي أن التنمية الاقتصادية، ليست قضية وسائل فحسب و إنما هي أيضا قضية عوامل إنسانية عقد موازنة بين التجربة الأندونيسية و بين التجربة الألمانية اللتين وضع خطتهما الدكتور "شاخت" و أشرف على تنفيذها و خلص منها إلى القول إن " التجربة الألمانية نجحت لا لأنها تصرفت في عدد أكبر من الوسائل الفنية، مما كان في رصيد التجربة الأندونيسية، و لكن لأنها تصرفت في وسائل و قيم إنسانية تتسم بفعالية أكثر" تأملات ص: 58.

البلد، حين عقدت العزم على الخروج من دائرة دول العالم الثالث، و الانضمام إلى دائرة دول العالم المتحضر، لم تكن تفكر –و هي مصممة على خوض هذه التجربة التنموية– إلا فيما تستطيع التصرف فيه و استثماره في كل الظروف في معالجتها لمشكلة التخلف الاقتصادي: و هو الإنسان و التراب و الوقت[1].

كما أن مالك بن نبي وقف في تأملاته للسياسة التي اتبعتها الصين الشعبية في التنمية الاقتصادية على درس، لا يمكن لمن يتصدى لمعالجة المشكلة الاقتصادية في البلدان العربية و الإسلامية أن يعثر عليه في أي كتاب يتناول المشكلة الاقتصادية انطلاقا من مقوماتها المادية، و ملخص هذا الدرس هو؛ أن القادة الصينيين أدركوا منذ المنطلق أن تنفيذ خطط مشروعهم الاقتصادي يتطلب وسائل إنجاز، ليس بإمكانهم بالنظر إلى قدرتهم الشرائية الضعيفة اقتناءها، و إنهم إن وضعوا خطط مشروعهم على أساس هذه القدرة الشرائية الضعيفة؛ فإن تنفيذها سيسير ببطء هذا إن لم يُصَب منذ اللحظة الأولى بالشلل، و بالتالي فإما أن يصعب و إما أن يستحيل إقلاعهم الاقتصادي[2].

و في ضوء هذا الإدراك تمت الموازنة بين الإرادة الحضارية التي تحرك كل الطاقات الاجتماعية و كافة الموارد الطبيعية، و بين الإمكان الحضاري الذي قد لا يأتي من الجهات التي تمتلكه و إذا أتى منها، فبشروط تكبل هذه الإرادة منذ البداية. كما تم في ضوئه اتخاذ القرار النهائي الذي يقضي بأن تضع الدولة الصينية « كل تبعات التنمية [الاقتصادية] على كاهل الشعب »[3] الصيني.

و بذلك اهتدت السياسة في هذا البلد –الذي كان يعد من بلدان العالم الثالث– إلى حل عملي لمشكلاتها المادية، و هو أنها لم تعتمد في نهضتها الاقتصادية على مبدأ الاستثمار المالي و إنما اعتمدت فيها على مبدأ الاستثمار الاجتماعي: الإنسان و التراب

---

[1] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، موضوع: الاستثمار المالي و الاستثمار الاجتماعي ص: 73–78.

[2] انظر مالك بن نبي: بين الرشاد و التيه، موضوع: شروط الإقلاع الاقتصادي ص: 169–175.

[3] مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد ص: 76.

و الوقت فـ « عوضت بقدر الإمكان، الإمكان المالي [المفقود] بالإمكان الاجتماعي [الموجود] تعويضا جعل...[من الصين دولة] رائدة في العالم الثالث بلا جدال، و جعلها عامة تحصل على خبرة في العالم في مجال توظيف الإنسان و التراب و الوقت »[1].

و ما كان مالك بن نبي ليربط في تأملاته الفكرية في التجربة التنموية التي عرفتها الصين الشعبية في بداية النصف الثاني من القرن العشرين، بين العناصر التي قامت عليها و بين النتائج النفسية و الاجتماعية و الاقتصادية التي تمخضت عنها[2]، لو لم يكن هدفه هو أن يلفت نظر المسؤولين السياسيين و الخبراء الاقتصاديين إلى أن حل المشكلات الاقتصادية في البلدان العربية و الإسلامية لا يتوقف على توفير الوسائل المادية بقدر ما يتوقف على المعادلة الاجتماعية للإنسان الذي يستعمل الوسائل التي تُستورَد بالعملة الصعبة لأن « الحياة الاقتصادية لا ترتبط فقط بأجهزة ذات طابع فني و مالي و تنظيمي، بل هي قبل ذلك مرتبطة بأجهزة نفسية موجودة في المعادلة الشخصية لدى الفرد الذي يفطر في الخطط و الذي ينفذها. و هذه المعادلة ليست من المعطيات البسيطة التي نجدها تلقائيا في الجهاز الميكانيكي الذي نقتنيه لتجهيز مصنع، و لكنها شيء يكتب، جنبا إلى جنب مع تكوين و نمو ثقافة »[3].

و في هذا الإطار الذي يضع فيه مالك بن نبي مشكلات الإنسان الأفرسيوي الحضارية بما فيها مشكلته الاقتصادية؛ تصبح المعادلة الاجتماعية التي تسير الفرد كما تسير المجتمعات الإفريقية الآسيوية في عالم الاقتصاد هي القضية المحورية في هذه المشكلات[4]؛ لأنه إذا كان على البلدان العربية و الإسلامية، بعد أن حققت استقلالها السياسي، أن تهتم بقضايا البناء و التشييد كي تحقق استقلالها الاقتصادي، فإنه يتعين

---

[1] مالك بن نبي: المصدر السابق ص: 76، 77.

[2] تحدث مالك بن نبي عن هذه النتائج بإعجاب كبير لأن الثورة الثقافية التي قامت في الصين الشعبية خضعت لمنطق طبيعي، حين قصدت إلى تعديل الإطار التقليدي الثقافي... انظر: فكرة الإفريقية الآسيوية ص: 137، 138 و انظر: المسلم في عالم الاقتصاد ص: 77.

[3] مالك بن نبي: بين الرشاد و التيه ص: 156، 157.

[4] انظر مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، موضوع: المعادلة البيولوجية و المعادلة الاجتماعية للفرد في التجارب الحديثة ص: 90-96.

عليها أن تركز اهتمامها في المعركة الاقتصادية على قضية الإنسان أولا ثم على قضية التجهيز ثانيا[1].

و ذلك لأن المشكلة الاقتصادية، بل و جميع المشكلات الحضارية في هذه البلدان، ليست أساسا متأتية من نقص في إمكانها التمادي، إذ لو كانت تعود أصلا إلى نقص الإمكان المادي، لما كان حلها يستعصي على بلد مثل أندونيسيا أو الجزائر أو العراق، لأن كل هذه الدول كانت و لا تزال تولي اهتماما كبيرا لقضية التجهيز و الخبرة الفنية[2]؛ و إنما هي متأتية أصلا من معادلة إنسانية أو اجتماعية خاصة بهذه البلدان و غيرها من البلدان التي توجد في عهد ما بعد الحضارة[3].

و على هذا فإن « أي مشورة تهدف إلى وضع نظام اقتصادي أو إصلاح نقائصه ينبغي... من حيث المبدأ و يصعب عند التطبيق أن تضع في حسابها العناصر غير الاقتصادية، و بهذا نلتقي مرة أخرى مع أسبقية "عالم الحياة الاجتماعي" على

---

[1] لأنه إذا كانت غاية البلدان العربية و الإسلامية من الأشياء التي تستوردها من الحضارة الغربية بناء اقتصاد قوي فإن « البناء لا يتم بالأشياء مهما كانت صلاحيتها و ثمنها، و إنما يتم بالدوافع التي تحرك تلك الأشياء، و الفكرة التي تربطها في العملية الاجتماعية، و عندما لا يكون في هذه العملية سوى الأشياء وحدها، فالنتيجة تصبح في حكم الصدف لا يكون هذه العملية سوى الأشياء وحدها، فالنتيجة تصبح في حكم الصدف لا في حكم التقدير " مالك بن نبي: تأملات ص: 195، 196.

[2] فالجزائر على سبيل المثال ظلت طيلة أربعين سنة الماضية تولي قضية التجهيز اهتماما كبيرا و تصرف عليه من عائداتها البترولية أموالا طائلة بغية مساعدة الإنسان في القطاع الصناعي و الزراعي و التعليمي و تخفيف الأعباء عليه و لكنها لم تستطع أن تحقق في هذه القطاعات و في غيرها نصرا حاسما على مشكلة التخلف.

[3] لقد تأمل مالك بن نبي الثورة الفرنسية التي قامت في فرنسا عام 1789 كما تأمل في الوقت ذاته الثورة التي قامت في روسيا عام 1917م فوجد أن الأولى انطلقت من النظم و المؤسسات البالية و عمدت إلى تغييرها بنظم و مؤسسات جديدة في نطاق دستور جديد، بينما وجد الثانية لا تبدأ بتغيير المحيط الاجتماعي و إنما بتغيير الإنسان الروسي ذلته.

و الاختلاف بين الثورتين في التغيير " [يعود] إلى أن المستوى الثقافي أو الحضاري الذي كان عليه الإنسان الفرنسي لم يكن يدعو إلى تغيير كبير في نفسه و إنما في محيطه الاجتماعي، بينما كان مستوى الإنسان الروسي قبل الثورة يدعو إلى تغيير عميق في معادلته الشخصية قبل كل تغيير خارجي.

و هذه الملاحظة لها قيمتها بالنسبة إلى تشخيص المشكلات و كيفية مواجهتها. فالطفل لا يشعر بها، و إن واجهها فإنه يواجهها بمنطق الأشياء لا بمنطق الأفكار. فعمر الإنسان الروسي كان عمر الطفل من الناحية النفسية فكان على الثورة أن تغيّر منطقه الاجتماعي بتغيير معادلته الشخصية.

و المشكلة التي تواجه الإنسان المسلم هي هذه نفسها، فهي مشكلة الإنسان الذي يعيش في عهد ما [بعد] الحضارة، أي الإنسان الذي يجب وضعه أمام ضرورات نفسية قبل كل شيء، تلك الضرورات التي تتطلب تغيير المعادلة الشخصية، المعادلة التي تفرض عليه في حالته الراهنة منطق الأشياء؛ فالمسلم اليوم يضع مشكلاته في حدود الأشياء... التي لا تتسع لظروف الحياة المتغيرة، بينما الأفكار وحدها تستطيع مسايرة ظروف كالظروف القاسية التي أحاطت ببناء الاقتصاد الألماني بعد الحرب العالمية الثانية » تأملات ص: 60.

"المهندس الاجتماعي« عندما نبدأ من الأساس، و في هذا المستوى، أي في بداية أي تجربة اجتماعية لا يكون الأمر فقط أن نحل معادلة اقتصادية، بل أن نكيفها طبقا لمعادلة شخصية معينة، و أي تجربة تغفل في بدايتها هذه العلاقة الأساسية لا تكون سوى تجربة نظرية مقضي عليها بالفشل. و لو أردنا أن نستخلص من هذا الكلام نتيجة صادقة لبناء اقتصاد أفرسيوي، من اللازم أن نفكر في الشروط الفنية التي يتطلبها التوفيق بين معادلة إنسانية خاصة بالبلدان المتخلفة و بين المعادلة الاقتصادية »[1] لهذا القرن.

و مما كان مالك بن نبي ليثير مشكلة توجيه الأفكار بتوجيه الإنسان في النواحي التي يؤثر بها تأثيرا إيجابيا أو سلبيا في العملية الاجتماعية و يؤكد على أهمية التوجيه المزدوج للإنسان المسلم كبداية للتحرر من عوامل القابلية للتبعية الأدبية و المادية للغرب الاستعماري؛ لو لم يكن مقتنعا تمام الاقتناع أن الأصل في المشكلة الاقتصادية و في بقية المشاكل الحضارية الأخرى هو الإنسان.

فإذا كان الإنسان في بلداننا العربية و الإسلامية هو العنصر الجوهري في كل مشكلات الحضارة؛ فإنه ليس من المعقول أن نركز في معالجة المشكلة الاقتصادية على القيم الاقتصادية المجردة مع أنها نتيجة لتوجيه الإنسان توجيها معنويا و ماديا و نهمل القيم الإنسانية و الظروف التي تحيط بها مع أنها هي المقدمة الأساسية لكل معالجة تتناول المشكلة الاقتصادية في أصولها النفسية و الفكرية.

---

[1] مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد ص: 19-20.

الخاتمة:

مشكلات الحضارة التي تطرق لها مالك بن نبي في ما كتب و إن كان قد حصرها في الإنسان و التراب و الوقت من ناحية و في الدين و الثقافة و التوجيه من ناحية أخرى، إلا أن المتعمق في دراسة هذه المشكلات و تحليلها يجدها متشعبة إلى عناصر جزئية تشكل بدورها القضية الكبرى أو القضايا الكبرى.

و أول عنصر من العناصر المادية للحضارة كما يراها مالك بن نبي الإنسان باعتباره الخليفة الذي أوكلت إليه مهمة إحداث النهضة و استثمار مقوماتها. ذلك يتأرجح هذا الإنسان بين عقل يوجهه و وحي يهديه. و بدون أي منهما لا يمكنه أن يحقق الغاية من وجوده. العقل هو ما ميّز به عن باقي المخلوقات، به حوّل الإنسان المصادر البسيطة و المواد الأولية إلى وسائل جعلت حياته أسهل و قطع بواسطتها أشواطا نحو الحضارة. أما الوحي فهو وصفة التعامل مع الكون مصدرها خالق هذا الكون الذي يعلم أحسن الطرق و ثمارها كما يعرف أسوأ الطرق و عواقبها. مرّ الإنسان بمراحل أثناء وجوده على هذه الأرض أكدت كل مرحلة منها أن هناك عوامل لابد من تكاملها لكي يحقق الإنسان نهضته.

و خلاصة دراسة مالك بن نبي لمشكلة الإنسان أنها تنحصر في كونه حائرا مذبذبا بين الدين و العقل. فالمشكلة ليست في الدين كما أنها ليست في العقل و إنما في التوفيق بينهما و سبب تخلفه هو أنه لم يستطع تحقيق الانسجام بين هذين المصدرين.

أما العنصر الثاني من العناصر المادية و هو التراب فقد استرعى اهتمام مالك بن نبي أثناء ملاحظته للتطور الذي يعيشه المجتمع الفرنسي فقد لاحظ أن التراب يحظى بعناية و رعاية الإنسان الغربي عموما بينما يهمله الإنسان العربي و المسلم. فاستنتج مالك بن نبي أن قيمة التراب إنما هي انعكاس لقيمة الأمة التي تعيش عليه. و لكي يستعيد التراب قيمته لا بد من إحداث تغيير في مفهومه عند المسلم و ربطه بهويته و انتمائه.

و لكي تحقق القيم الاقتصادية لا بد من تركيز الاهتمام بداية على القيم الإنسانية كما أن تحقيق الإقلاع الحضاري في نظر مالك بن نبي يعتمد على حشد الطاقات الاجتماعية

من إنسان و تراب و وقت في خطوات تدفعها إرادة حضارية قوية. هذا مع الإشارة إلى ارتباط مشكلة التراب بمشكلة الثقافة في العالم العربي و الإسلامي، فالدول المتقدمة لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بعد أن قامت بثورة ثقافية غيرت المفاهيم و شحذت الهمم نحو استغلال ثرواتها الاجتماعية و المادية في سبيل الحضارة.

و يأتي الوقت كضلع ثالث للأسس المادية للحضارة في نظر مالك بن نبي و الذي بدونه لا معنى لتثقيف الإنسان و لا لبعث قيمة التراب في ذهنيته. و قد قارن مالك بن نبي بين إدراك السلف الصالح لقيمة الزمن من الناحية الروحية و المادية من جهة و بين استثمار الإنسان الغربي لوقته بشكل جيد يجعله ينجز واجباته في وقتها و يخصص جزء من وقته للمساهمة في خدمة مجتمعه، بينما لا يحظى الزمن بأولوية في حياة المسلم المعاصر. و الربط بين مشكلتي الوقت و التراب في مخطط محكم هو الحل لمشكلة الوقت في نظر مالك بن نبي مع الإشارة إلى إمكانية بعث قيمة الوقت و التراب في الفترة الحالية حيث تستحيل الظروف الصعبة التي يعيشها العالم العربي و الإسلامي مناخا ملائما لنهضة جديدة تعاد فيها صياغة المفاهيم و تتحد فيها الجهود.

و ننتقل بالحديث الآن إلى الباب الثاني من هذا البحث و الذي يتحدث عن الأسس المعنوية و هي ثلاثة: الدين و الثقافة و التوجيه. أما الدين فقد تحدثت عنه مستمدا ذلك من القرآن الكريم بالإضافة إلى مؤلفات مالك بن نبي. و خلصت من ذلك إلى نتيجة مفادها أن الفكرة الدينية لم تؤثر في طاقة الإنسان البدوي بشكلها أو مضمونها أو طريقتها و إنما أثرت فيه بذلك كله.

و تحدثت في الفصل الثاني عن الثقافة بتحديد مفهومها و اختلافه عن مفهوم العلم. و خلصت إلى أن حل مشكلة الثقافة يبدأ من التفريق بين دلالتي هاتين الكلمتين. و عن كيفية تحقيق الثقافة بصورة عملية ملموسة الآثار، لابد من جمع الوسائل المتوفرة و استثمارها لبعث روح الاهتمام بهذه الوسائل في روح الفرد و المجتمع.

و في الفصل الثالث من الباب الثاني، تناولت طرفي معادلة البناء الحضاري ألا و هما التوجيه المعنوي و المادي للإنسان. أما التوجيه المعنوي فهو المتكفّل بإعداد الإنسان فكريا و نفسيا للأخذ بزمام المبادرة نحو التحضر. بينما تكمن أهمية التوجيه المادي في وسائل هذه المبادرة من عمل و رأس مال. و إن كان التوجيه المعنوي أولى

و أسبق من المادي كون الحضارة تعتمد و تنبع من عالم الأفكار لا من عالم الأشياء و كون مشكلاتنا الحضارية ذات جذور فكرية و نفسية و اجتماعية، فإن طرفي معادلة البناء الحضاري متكاملان و كلاهما ضروري لبلوغ الغاية المنشودة.

و في الختام ثمة أسئلة مفتوحة و هي النتيجة الطبيعية لأي بحث فطريق العلم كله أسئلة نحاول الإجابة عليها و أسئلة توجدها هذه الإجابات إلى أن يأتي من يجيب عليها.

و من هذه الأسئلة السؤال الكبير المحير: كيف يمكننا أن نعيد لجميع أجنة الفكرة الإسلامية فاعليتها في الحياة الإسلامية الاجتماعية و الاقتصادية، و هل يمكن إعادة تركيب عناصر الحضارة الإسلامية دون إعادة الاعتبار للدين الإسلامي في جميع مجالات الحياة ؟ و إذا كان ذلك ممكنا فلم لم تتركب هذه العناصر منذ أن تبنت بعض الدول العربية الإسلامية الأفكار الغربية الشرقية أو الغربية و هل عدم التركيب يعود إلى الأفكار أم يعود إلى الإنسان المسلم أم يعود إلى الكيفية. إذا كان يعود إلى الأفكار، فلم كانت في بلادها فاعلة ؟ و إذا كان يعود إلى الإنسان فلم يصبح هذا الإنسان منذ أن تطأ قدماه أرض الحضارة الغربية فعالا ؟ و إذا كان يعود إلى الكيفية فهل يمكننا أن نعيد النظر في الكيفية التي انطلقنا منها منذ ما يزيد على قرن و أربعين سنة دون نتيجة، و ما هي الجهات التي يمكنها أن تقوم بهذا التقويم و هل تكفي إعادة النظر للانطلاقة الحضارية الشاملة أم لابد من عزم و إرادة ؟ و ما هي الأفكار القادرة على خلق هذه العزيمة و هذه الإرادة. تلك هي الأسئلة الجوهرية التي يمكن استنتاجها من هذا البحث و التي لم أستطع الإجابة عليها.

المـــراجـــع:

- أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي -لبنان- بيروت، بدون.
- أحمد أمين: ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي بيروت -لبنان- الطبعة الخامسة.
- أحمد علي إسماعيل: التعبئة العسكرية في صدر الإسلام والعهد الأموي، دار الشورى بيروت، الطبعة الأولى لسنة 1982.
- أحمد محمود صبحي: فلسفة التاريخ، دار النهضة العربية، لبنان-بيروت- طبعة عام 1994.
- أسعد الحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا،دار النفائس- لبنان- بيروت، الطبعة الأولى لعام 1984م.
- أميرة حلمي مطر: مقالات فلسفية حول القيم والحضارة، مكتبة مدبولي-مصر- القاهرة.
- بيير مابيه: النمو الاقتصادي، ترجمة: جان كميد المنشورات العربية، المطبعة البوليسية-جونيه-طبعة عام 1972م.
- تيسير شيخ الأرض: إرادة الحضارة، دار الفضل -سوريا- دمشق، الطبعة الأولى لعام 1991م.
- جورج أنطونيوس: يقظة العرب: تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة: ناصر الدين الأسد، إحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت.
- جورج جرداق علي: حقوق الإنسان، منشور دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الثانية لعام 1970.
- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي،دار الأندلس، بيروت-لبنان- الطبعة الأولى لسنة 1967م.
- حنفي بن عيسى: تعلم لتكون، تأليف مجموعة من الكتاب الغربيين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة عام 1974م.

- خالد محمد خالد: خلفاء الرسول – صلى الله عليه و سلم-، دار الكتاب العربي، بيروت -لبنان- الطبعة الرابعة 1987م.
- رمزي زكي: العرب والأزمة الاقتصادية العالمية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى لعام 1986م.
- روجي غارودي: الإسلام الحي، ترجمة: دلال بواب ضاهر، محمد كامل ضاهر،دار البيروني للطباعة والنشر بيروت -لبنان- الطبعة الأولى لعام 1995.
- زكريا إبراهيم: مشكلة الإنسان، دار مصر للطباعة، بدون.
- زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع الهجري، دار الجيل، بيروت -لبنان.
- زكي نجيب محمود: رؤية إسلامية، دار الشروق الطبعة الأولى لعام1987.
- سفيلانا باتسيف: العمران البشري مقدمة ابن خلدون، ترجمة: رضوان إبراهيم،الدار العربية للكتاب،ليبيا،تونس،الطبعة الأولى لسنة 1978.
- سمير رضوان: مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية السنة العاشرة العدد109مارس 1988.
- سيد أمير علي: روح الإسلام، ترجمة: عمر الديراوي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة لسنة 1989.
- سيد سابق: إسلامنا، مكتبة الشركة الجزائرية، دار البعث، قسنطينة، الطبعة الأولى لسنة 1988.
- سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، الطبعة العاشرة لسنة 1982.
- شربل داغر:عصر النهضة، الدار البيضاء-المغرب-الطبعة الأولى لعام 2000.
- شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، دار العلم للملايين، بيروت الطبعة الرابعة لعام 1978.
- صابر طعيمة: الإسلام يقينا لا تلقينا، دار الجيل -لبنان- بيروت، بدون.
- صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت -لبنان- الطبعة السابعة عشرة لعام 1988.
- عباس محمود العقاد: الإسلام والحضارة الإنسانية، دار المكتبة العصرية -لبنان- بيروت، بدون.

- عباس محمود العقاد: عبقرية عمر، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان- طبعة سنة 1969.
- عباس محمود العقاد: ما يقال عن الإسلام، مكتبة رحاب، الجزائر.
- عبد الرحمن ابن خلدون، المجلد الأول، دار الكتاب اللبناني-لبنان- بيروت، طبعة سنة1993.
- عبد العزيز جاويش: الإسلام دين الفطرة و الحرية، دار المعارف، الطبعة الأولى لسنة 1968.
- عبد الكريم بكار: من أجل انطلاقة حضارية شاملة، دار القلم -سوريا- دمشق، الطبعة الثانية لعام 2001م.
- عبد اللطيف عبادة: مجلة الموافقات،العدد الثالث جوان 1994، المعهد الوطني العالي لأصول الدين.
- عبد الله شريط: الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع - الجزائر- الطبعة الأولى لعام 1975م.
- عبد المجيد عمر النجار: تاريخ الاشهاد الحضاري، دار الغرب الإسلامي، بيروت الطبعة الأولى لسنة 1999.
- عبد المجيد عمر النجار: عوامل الشهود الحضاري، دارالغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى.
- عبد المجيد عمر النجار: فقه التحضر، دار الغرب الإسلامي -لبنان- بيروت، الطبعة الأولى لعام 1999م.
- عصام الزعيم: مجلة دراسات عربية، العدد 11 السنة 15 سبتمبر 1979.
- عفت الشرقاوي: القضايا الإنسانية في أعمال المفكرين، دار النهضة العربية للطباعة
- عفت الشرقاوي: في فلسفة الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر لبنان-بيروت-الطبعة الثالثة لعام 1951.
- عفيف عبد الفتاح طبارة: مع الأنبياء في القرآن قصص ودروس وعبر من حياتهم، دار الملايين لبنان -بيروت- الطبعة الثالثة.

- علي عزت بيجوفيتش: الإعلان الإسلامي، دار الشروق -مصر- القاهرة، الطبعة الأولى لعام 1999م.
- علي محمد الآغا: الشورى والديمقراطية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع -بيروت- لبنان- الطبعة الأولى لسنة 1982.
- عماد الدين خليل: نظرة الغرب إلى حاضر الإسلام ومستقبله، دار النفائس -لبنان- بيروت، الطبعة الأولى لعام 1999م.
- عيون عبد الكريم: جغرافية الغذاء في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر الطبعة الأولى لعام 1985.
- غازي عناية: هدى الفرقان في علوم القرآن، دار الشهاب -باتنة- طبعة سنة 1988.
- فؤاد زكريا: الإنسان والحضارة، دار مصر للطباعة-مصر-القاهرة.
- فتحي رضوان: الإسلام والمسلمون، دار الشروق -مصر- القاهرة، بدون.
- فتحي هويدي: تزييف الوعي، دار الشروق، لطبعة الثالثة لسنة 1999.
- فيصل العوامي: عن ثقافة النهضة، دراسة في قيم العقل والروح والنهضة الاجتماعية، مؤسسة الانتشار العربي الأولى لعام2001.
- كارل بروكلمان: تاريخ الثورة الاسلامية، ترجمة: بيه أمين فارس، منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت- الطبعة الأولى لسنة1981.
- لطفي بركات أحمد، محمد مصطفى زيدان: التوجيه التربوي والإرشاد النفسي في المدرسة العربية،مكتبة الأنجلو مصرية، مصر،القاهرة،طبعة عام 1968.
- لوثروب ستوارد: حاضر العالم الإسلامي، ترجمة:عجاج نويهض، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت- لبنان- الطبعة الرابعة لسنة1973.
- مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، دار الآداب -لبنان- بيروت، الطبعة الأولى لعام 1980م.
- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق - سوريا-، دار الفكر -الجزائر، الطبعة الرابعة لسنة 1987.
- مالك بن نبي: القضايا الكبرى، دار الفكر -الجزائر-، دار الفكر -دمشق- سوريا، الطبعة الأولى لسنة 1991.

- مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، دار الفكر –الجزائر–، دار الفكر، دمشق – سوريا–، الطبعة الثالثة لسنة 1987.
- مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه، دار الفكر–الجزائر–دار الفكر، دمشق–سوريا– الطبعة الثالثة سنة1988.
- مالك بن نبي: تأملات، دار الفكر –الجزائر–، دار الفكر –دمشق– سوريا، الطبعة الخامسة لسنة 1991.
- مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل المقادي، عبد الصبور شاهين، دار الفكر –الجزائر–، دار الفكر، دمشق –سوريا، الطبعة الرابعة لسنة 1987.
- مالك بن نبي: فكرة الأفروسيوية، ترجمة: عبد الصبور شاهين،دار الفكر،دمشق،سوريا.
- مالك بن نبي: في مهب المعركة دار الفكر–الجزائر– دار الفكر، دمشق،سوريا، الطبعة الأولى لسنة1991.
- مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، دار الفكر للطباعة والنشر،دمشق – سوريا،الطبعة الثانية لسنة1984.
- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر المعاصر –بيروت– لبنان، دار الفكر –دمشق– سوريا، ترجمة: بسام بركة، أحمد شعبو، الطبعة الأولى لسنة 1988.
- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق، سوريا الطبعة الثالثة لسنة 1986.
- مالك بن نبي: من أجل التغيير، دار الفكر المعاصر، لبنان–سوريا–، الطبعة الأولى لعام 1998.
- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، دار الفكر المعاصر –لبنان– بيروت، الطبعة الثالثة لعام 1986م.
- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق، سوريا.

- محمد البهي: الإسلام في الواقع الإيديولوجي المعاصر، دار الفكر-لبنان-بيروت،الطبعة الأولى لعام1970.
- محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، دار الفكر، بيروت-لبنان-الطبعة السادسة لعام1973.
- محمد الغزالي: كفاح ودين، دار نهضة مصر للطباعة والنشر التوزيع، بدون.
- محمد الغزالي: كيف نتعامل مع القرآن، دار الانتفاضة للنشر والتوزيع، الجزائر.
- محمد الغزالي: كيف نفهم الإسلام، دار الكتاب -لجزائر- الطبعة الأولى لعام 1987م.
- محمد النقلي: المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، الدار التونسية للنشر، طبعة 1986.
- محمد بغداد باي: مفهوم التربية في المنظور الحضاري لمالك بن نبي، مذكرة بحث لنيل شهادة الماجستير بمعهد التربية وعلم النفس جامعة وهران-السانية-السنة الجامعية
- محمد بيصار: العقيدة و الأخلاق و أثرهما في حياة الفرد و المجتمع، دار الكتاب بيروت، الطبعة الأولى لسنة 1973.
- محمد جابر الأنصاري: تجديد النهضة باكتشاف الذات ونقدها، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت الطبعة الثانية لعام 1998.
- محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي، دار الكتب، الجزائر، الطبعة الثانية.
- محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، دار الفكر لكل من الجزائر وسوريا،الطبعة الحادية عشر لسنة1991.
- محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإنسانية، دار الفكر -سوريا- دمشق، الطبعة الثانية لعام 1998م.
- محمد عبد السلام كناني، عبد الله الشريف: في علوم القرآن: دراسات ومحاضرات، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، طبعة سنة 1981.
- محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن،الجزء الأول،دار التراث العربي-لبنان-بيروت-الطبعة الثانية لعام1998.

- محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، دار طيبة للنشر و التوزيع، الرياض -السعودية- الطبعة الأولى لعام 1997.

- محمد عبد المنعم خفاجة- عبد العزيز شرف: التفسير الإعلامي للسيرة النبوية، دار الجيل -لبنان- بيروت، الطبعة الأولى لعام 1992م.

- محمد عبد المنعم: عصر التنمية والتخطيط وتقويم المشروعات في الاقتصاد الإسلامي، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، السعودية، لطبعة الأولى لعام 1992.

- محمد عمارة: الإسلام و الثورة، المؤسسة العربية للدراسات و للنشر، بيروت، الطبعة الثانية لسنة 1980.

- محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن، شركة الشهاب -الجزائر- الطبعة الثانية لسنة 1990.

- محمد محمد حسين: الاسلام والحضارة الغربية، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة.

- مصطفى العوجي: الأمن الاجتماعي: مقوماته، تقنياته، ارتباطه بالتربية المدنية، مؤسسة نوفل، بيروت-لبنان-الطبعة الأولى لسنة1983.

- مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، مكتبة رحاب،-الجزائر- الطبعة التاسعة لعام 1973.

- منير شفيق: قضايا التنمية والاستقلال في الصراع الحضاري، ال... للطباعة و النشر

- مهدي فضل الله: آراء نقديةفي مشكلات الدين، دار الأندلس للطباعة و النشر – لبنان- بيروت، الطبعة الأولى لعام 1981م.

- نبيل محمد توفيق السمالوطي: الدين والبناء الاجتماعي الجزء الثاني، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة بيروت، الطبعة الأولى لعام 1981.

- نيجل هاي: مشكلة الغذاء العالمي، ترجمة:فتحي محمد عبد التواب، الهيئة العامة للكتاب الطبعة الأولى لعام1975.

- هـ .أ .أوقرستريت: العقل الناضج، ترجمة، عبد العزيز القوصي، محمد عثمان، مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثانية لسنة 1963.

2003 / 2002.
-عباس محمود العقاد: الإسلام دعوة عالمية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.
-عبد العزيز جاويش: الإسلام دين الفطرة والحرية.
و التوزيع و الإعلان، الطبعة الثانية لعام 1992م بدون إشارة إلى مكان الدار.
و النشر، بيروت، الطبعة الثانية لسنة 1980.